إقـــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الشخصيـة في أعمال زيـــاد عبد الفتـــاح الروائيـــة

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	اسم الطالب: محمد عبد القادر أبو علي
Signature:	التوقيع:
Date:	التاريخ: 2015/01/27

بسم الله الرحمن الرَّحيم

الجـــــــامعة الإسلاميـــة – غزة

شئون البحث العلمي والدراسات العليا

كــلـيـــــــــــــــــــــة الآداب

قسم اللــــغـــــــة العربيـــــــــة

الشخصية في أعمال زياد عبد الفتاح الروائية

Characterization in the Novels of Zaiad Abd-Elfatah

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب

محمد عبد القادر أبو علي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور

كمال أحمد غنيم

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

من قسم اللغة العربية – بكلية الآداب

في الجامعة الإسلامية بغزة

١٤٣٦هـ- ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم ج س غ/35/ Ref

التاريخ 2015/01/27 Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **محمد عبدالقادر خالد أبوعلي** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

الشخصية في أعمال زياد عبد الفتاح الروائية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 07 ربيع الآخر 1436هـ، الموافق 2015/01/27م الساعة العاشرة صباحاً بمبنى اللحيدان، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د كمال أحمد غنيم	**مشرفاً و رئيساً**	....
د. خضر محمد أبو جحجوح	**مناقشاً داخلياً**	....
د. عاطف عبدالله أبو حمادة	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

إلى الغالية أمي، والحبيب أبي اللذين أنارا بمهج قلوبهم دروب حياتي

إلى عمي العزيز، والدي الثاني الذي أضفى لحياتي بريقا مميزا

الأستاذ الدكتور/ نبيل أبو علي

إلى زوجتي الغالية، الشمعة التي تسهر من أجل سعادتي

وإلى بنيتي منال، وبتول

وإلى إخواني وأخواتي وأحبتي

أهدي بحثي هذا

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان وعلمه بالقلم ما لم يعلم، ثم الصلاة والسلام على النبي الأمي المعلم الأول للأمة جمعاء، الذي أرسل منارة لهداية التائهين والعابرين إلى طريق النجاة، وعلى أله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين أفضل الصلاة والتسليم.

أما بعد:

إني أحمد الله أولا الذي أعانني على إتمام هذا البحث، فلولا كرمه وعنايته وتوفيقه، لما خضت في دروب العلم وتحملت مشاقه، وإنه ليشرفني ويسعدني أن أتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان والتقدير إلى كل من قدم لي المساعدة في إتمام بحثي، ولكل من علمني حرفا في هذه الحياة، وإلى من كان لهم الفضل في توجيهي وإمدادي بالعون وأمدوني بالنصائح والكلمات التي كانت محفزاً دائما على الاستمرار، إلى كل أصحاب الخبرات الغالية التي كانت لي زادا ونبراسا أضاء لي طريق البحث، وأخص بذلك الشكر أستاذي ومعلمي ومشرفي الأستاذ الدكتور/كمال أحمد غنيم الذي كان نعم المعلم، الصبور في توجيهه، والمعطاء في علمه، الشاعر الأديب العالم الذي مهما طالت به كلمات الشكر فإنها لن تفيه حقه، فله الفضل بعد الله أن يرى بحثي هذا النور.

وأشكر العالمين الأستاذين عضوي لجنة المناقشة على ما قاما به من جهد مشكور في قراءة الرسالة وإثرائها بالملاحظات الهامة والمفيدة، التي من شأنها زيادة النفع و المعرفة بإذن الله، كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد نبيل أبوعلي، أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية الذي وضعني على أول درجات سلم هذا الطريق، وإلى الأستاذ الدكتور/ محمود محمد العامودي، أستاذ النحو والتحقيق في الجامعة الإسلامية، الذي ما توانى يوما عن مد يد العون لي وزملائي طلبة العلم.

والشكر موصول إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية في الجامعة الإسلامية، ولكل من أفدت منه في دراستي.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

الملخص

الشخصية في أعمال زياد عبد الفتاح الروائية

تأتي هذه الدراسة بهدف تقديم تصور واضح للشخصية الروائية في أعمال الكاتب والروائي الفلسطيني (زياد عبد الفتاح)، وتبرز أهمية هذه الرسالة إذ تؤصل لكفاح الشعب الفلسطيني، وخروجه من أرضه نحو مخيمات اللجوء والشتات العربي، واللبنات الأولى لتشكيل فصائل الكفاح السياسي والعسكري، والظروف التي سبقت تشكيل منظمة التحرير الوطني الفلسطيني.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد تمحور حول ركنين أولهما: تقديم مستهل عن الرواية، أما المحور الثاني في التمهيد فقد جاء للتعريف بالكاتب الروائي (زياد عبد الفتاح) وأعماله الأدبية التي تراوحت بين القصة القصيرة والسيرة الذاتية "ورق حرير"، والروايات مجال الدراسة "وداعاً مريم، المعبر، ما علينا، دار الجيش".

وقد تطرق الفصل الأول إلى الشخصية الفلسطينية، وتفاعلاتها مع التغيرات الطارئة، كما يقيس مدى استيعاب كارثة النكبة، ويركز على الهموم التي عصفت بالفلسطينيين، وقد توزعت شخصيات هذا الفصل بين الشخصية (الوطنية، والمناضلة، والمقهورة، والمهجرة، والمرأة الفلسطينية).

أما الفصل الثاني فقد توصلت من خلال دراسة شخصية العربي إلى الدور العربي الذي لا يفصل عن القضية الفلسطينية، وقد انقسمت الشخصيات إلى شخصيات فاعلة إيجابية، وشخصيات سلبية، كما درست شخصية الرئيس العربي الذي دفعه الغرور لتدمير شعبه.

وانقسم الحديث في الفصل الثالث الموسوم بـ "شخصية اليهودي والأجنبي" فقد جاءت الشخصيات اليهودية محاولة قمع الفلسطيني وتخويفه، أما القسم الثاني فقد تناولت فيه الشخصية الأجنبية التي ساندت الشخوص الفلسطينية، كما تطرقت إلى دراسة المرأة ذات الأصول الغير عربية، والتي جاءت في سياق السرد على صورة المرأة الضحية.

وقد توصلت إلى العديد من النتائج، فقد نجح الكاتب في الوقوف على أسباب فشل التعايش السلمي، وأرجعها إلى تأصل العقيدة الصهيونية في عقول بني صهيون الذين اعتادوا

التصرف كمحتلين. وقد طبع الكاتب المرأة بطابعين، فطبعها بصورة المتحررة المبادرة إلى الرجال، أما الأنموذج الثاني فهو المرأة التقليدية.

لخصت هذه الروايات بلغة فنية حية مراحل مهمة من مفاصل تاريخ الشعب الفلسطيني، وامتازت الروايات بالوضوح وسهولة المعاني والبعد عن التعقيد والالتواء، كما برع الكاتب في اختيار الألفاظ المعبرة عن حالة الفقد والحزن وقسوة الواقع، واتسمت هذه الأعمال بأصالة الخيال، وابتكار الصور المعبرة.

ABSTRACT

Characterization in the Novels of ZaiadAbd-Elfatah

This study aims at presenting an obvious vision about the characters in the novels of the Palestinian novelist Zaiad Abd-Elfatah, and this study takes importance as it explains the Palestinian struggle, and how they were forced into a Diaspora, and the establishment of the Palestinian political and military parties, and circumstances that preceded founding the PLO.

This study starts with an introduction, and then a grounding with two parts. First, it gives a brief idea about novels. Second, a presentation of the life and works of the novelist Zaiad Abd-Elfatah which took the kinds of short stories, memoirs ' Waraq Hareer ' and novels ' Wadaan Mariam, Almaebar, Ma Alayna, Dar Aljeish'.

The first section tackles the Palestinian personality and its interactions with critical changes. It also measures how the Palestinians dealt with the ١٩٤٨ disaster. In addition, it focuses on the troubles of the Palestinians. It finally tackles five kinds of characters (patriotic, fighter, compelled, refugee, Palestinian woman).

The second section tackles the Arab personality and its role in the Palestinian issue, and the characters have been divided into two kinds: positive and negative . It finally studies the character of the Arab corrupt president who destroyed his people.

The third section tackles the Jewish and foreign character. The Jewish character who hurt and feared the Palestinians. Whereas the foreign character who supported the Palestinians. It finally tackles the foreign woman who takes the image of a victim.

I have reached many results such as the novelist success in displaying the reasons for the failure of peaceful coexistence. He ensured that the reason for that had been the Zionist mentality which had acted as an occupier. I have also reached the idea that women have two asepects which are the free and the traditional ones.

These novels have summarized important stages of the Palestinian people history with a lively technical language which has been easy and obvious. Moreover, the novelist has chosen expressive words which show the sadness and bad reality. The novels also have marvelous imagination and expressive descriptions.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, الذي حفظ لنا لغتنا الغراء, بروائعها, ورُقِيها, وسمو معانيها, فأنزل بها قرآناً عربياً بَيِّناً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد لقوله تعالى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾, والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم, وبدائع الحكم, وفصل الخطاب, سيدنا محمد خير ولد عدنان, وعلى آله وصحبه الهادين المهديين, ومن تبعهم بإحسان وفضل إلى يوم الدين.

أما بعد:

فمن المعلوم عند كل مطلع أن المُحفِّز الأقوى إلى وضع علوم العربية هو الحرص الشديد على المحافظة على لغة القرآن الكريم, خوفاً من أن يتسرب إليها لحن, أو تنتابها عوارض التحريف, لذا تجد علماء المسلمين منذ القرن الأول للهجرة قد اتجهوا إلى القرآن الكريم بوصفه المصدر الأول والمنبع الغريز الذي أثريت به اللغة, وقد روي عن ابن مسعود ﷺقوله: (من أراد العلم فليثّور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين)[1], فقد عكف العلماء من خلالها على وضع أصول العربية, وتقعيد قواعده, وترتيب مسائله, فجمعوا غرائبه, وصانوا فرائده, حتى كمل بنيانه, وعلا صرحه.

وقد حدا بي مقام البحث والتنقيب للعمل على دراسة الأدب الحديث، ولما تعددت مجالات هذا الأدب وفروعه، فقد اخترت الدراسة النثرية لفرع مهم من فروعه ألا وهي الرواية الأدبية، لما لها من خصائص أسلوبية وفنية جعلتها ترتقي وتتربع وتأخذ مكانة في سلم الأجناس الأدبية.

ولقد كان للرواية الأدبية الفلسطينية دورٌ مهمٌ في كشف العنف الذي مارسه بني صهيون ضد الفلسطيني وممتلكاته، بدءا من إخراجه من أرضه وسلبها، ومظاهر القتل والمجازر المتكررة بدير ياسين، وقانا، وصبر وشاتيلا وليس انتهاءً بالحصار الظالم الذي تشنه آلة القتل الإسرائيلية ضد قطاع غزة.

الشعب الفلسطيني وما يحمل من أعباء وطنه السليب منذ هجرته والترحال من بلد إلى أخر، وليس نهاية بالعودة المبتورة بعد أوسلو و ما حملته من مؤامرات داخل طياتها تنقل المهاجر

---

[1] انظر: البرهان في علوم القرآن ٨/١, النهاية في غريب الحديث ٣٨/١ .

إلى محاصر وصاحب الإرادة إلى مسلوب الحرية، لقد صمد أبناء الشعب الفلسطيني وحاولوا تشكيل أول لبنات المقاومة الثورية، وعانوا الويلات بعد الآهات، و تلقوا المهانة وخرجوا من بيروت بعد أن استماتوا في الدفاع عن أغلى ما يملكون، ولما كان الأدب الشاهد على عصره، كانت الرواية الجزء الأصيل من القسم النثري للأدب العربي، لقد نسجت الرواية وأبدعت في رسم الواقع الفلسطيني ففي كل مكان يوجد به فلسطيني هناك قصة ثائر.

لذا كانت وقفتي مع الرواية و الشخصية الروائية التي تعد وسيلة الكاتب لرسم إحساسه والتعبير عن واقعه، فالشخصية المحرك الرئيس للرواية ولا رواية دون شخصية ، وعلى الرغم من أن الشخصيات لا تعدو كونها أبطال ورقية إلا أنها تعانق الإحساس الداخلي للمتلقي وتحرك مشاعره المختزنة ويطرب لها و يتمايل مع فرحها و يتوقف عند حزنها .

لقد طرق (زياد عبد الفتاح) الكاتب الفلسطيني الذي شهدت طولكرم في الضفة الفلسطينية مراحل طفولته، ورسمت فيه معنى الوطن فلا تخلو أي رواية من ذكرها أبواب الأدب، فقد بدأ الكاتب أعماله الروائية برواية (وداعا مريم) الذي حشد فيها كرهه لسلوكيات الرئيس في العالم الثالث و أعماله الخبيثة و العشوائية لإرضاء خواطره ونزواته .

ثم يرسم في روايته الموسومة بعنوان (المعبر) بريشة قلمية مراحل الألم و العذاب الذي يعانيها الفلسطيني عند المعابر والحواجز المنتشرة على أرجاء أرضه و يلعن (أوسلو) التي جاءت بهذه الاتفاقات المجحفة بحق كل ما هو فلسطيني، و يصور في روايته كافة أشكال القمع و البؤس و الألم على معبر رفح وتحكم بعض جنود، أحدهم يمني و الآخر روسي والثالث ربما كان بولنديا أو من الفلاشا بآلاف المسافرين.

ثم يسرد معاناة الفلسطيني خارج الأراضي الفلسطينية في رواية (ما علينا) فهو مرفوض الدخول تارة، ومطارد من البوليس السياسي في أخرى، و يحمل جواز سفر مزور لابنته لأن لا وطن لهم.

ترصد الرواية أدق لحظات صراع النفس وأسوأ لحظات القلق، بعد أن أصبحت المقاومة والكفاح جزءا لا يتجزأ من حياة الفلسطيني. فرسمت الرواية مشهدا لصورة الفلسطيني الممنوع من الدخول والقابع في المطار، والمتنقل في أعالي البحار، والمشرد من صبرا و شاتيلا، إلى حامل فكر الإصلاح التنظيمي، والمطارد من الاحتلال، والهارب من بيروت إلى تونس .

ثم أصدر الكاتب رواية (دار الجيش) التي يصور فيها لحظات الشتات بعد الهجرة ، وتدور أحداثها في دولة الكويت وتشهد على فترة الانتقال من البداوة إلى التحضر بعيد اكتشاف النفط، وترصد هموم الفلسطيني الذي يسعى للبحث عن عمل، لكي يوفر بعض المال التي يرسله للعائلة في فلسطين، لقد حشد الكاتب أكبر عدد من الشخصيات داخل روايته، ليرصد أهم الانفعالات والتطورات وأكبر عدد من الأحداث، كما يركز على تفاصيل التفاصيل اليومية لكل شخصية ليعكس مرارة ما أصاب الفلسطيني من هموم ونائبات.

يعيش الكاتب معظم أحداث رواياته ويستشعر القارئ بأنه ملازم لكل الأحداث، بل يذكر اسمه في خضم الأحداث، ولا يغفل دور المرأة ، فقد حظيت (مريم) بمكانة مرموقة في سياق أحداث رواية (وداعاً مريم) و شاركت (حصة) عشق فلسطين لأن محبوبها فلسطيني قادم من دار الجيش (دار الجيش)، وانخرطت (شيلان) في الكفاح المسلح و خسرت حبيبها مرتين الأولى عندما سجن، والثانية عندما اغتيل من على شرفة المنزل في رواية (ما علينا) ، و حملت (مريم) هم أخيها عبد الحميد في رواية (المعبر).

تأتي هذه الدراسة بهدف وضع تصور وافٍ للشخصية عند (زياد عبد الفتاح) من خلال رواياته ، وتقدم تحليلا فنياً للحدث في ضوء عناصر الرواية التي تكتمل في تناسق مع الشخصية بكافة أنواعها المسطحة أو الكروية .هذا العالم المعقد الشديد التركيبِ ، الذي لا نستطيع كشف جوانبه إلا بالدراسة المتفحصة و المتأنية .

وقد رأيت أن المنهج التكاملي هو أنسب المناهج للوصول إلى الغايات المنشودة ، كما رأيت أن تتوزع الدراسة على ثلاثة فصول بعد تمهيد يعرض سيرة الكاتب زياد عبد الفتاح ، أما الفصل الأول فقد تناولت فيه شخصية الفلسطيني (الوطني ، والمناضل ، والمهجر ، والمقهور، وشخصية المرأة) .

والفصل الثاني فقد تناولت فيه شخصية العربي (الفاعلة ، والمُحبطة، والرئيس، وشخصية المرأة العربية) .

أما في الفصل الثالث فقد تناولت شخصية اليهودي و الأجنبي (اليهودي، والأجنبي، والمرأة الأجنبية).

فعلم العربية إذن هو شريف في مكانته, وعالٍ في قدرات دراسته؛ لأنه يتعلق بأشرف كلام, وهو كلام الله تعالى, وكلام نبيه ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [1].

هذا ما بدا لي, فإن أصبت فمن الله, وله الحمد على فضله وتوفيقه, وإن أخطأت فمن نفسي, واستغفره من ذنبي, وحسبي في هذا العمل نيتي وقصدي, ولكل امرئ ما نوى...

---

[1] سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.

التمهيد

لقد تخطّت الرواية الحديثة التقنيات السردية المنظّر لها, وأخذت بالتبلور نحو اتجاه حديث يسعى إلى كسر التقانات الروائية المعروفة من خلال إضفاء تقنية التكسير والتمزيق على الشخصيات والأحداث والمكان, والاستفادة من التقانات الحديثة والابتعاد عن التقليدية الأدبية[١]، ومثلت ثورة حقيقية على الاتجاه التقليدي الذي كان في القرن التاسع عشر، وقد بدأت هذه الثورة مع الإنجازات العلمية المذهلة في بدايات القرن العشرين تقريبا.

يرى أحمد الهواري أن الرواية خيال مرتبط بالواقع "وهو خيال و لكنه مرتبط بالحقيقة وإن حلق بجناحيه في السماء"[٢] وبذلك يؤكد على فكرة أن الفنان مبدع وطاقته الإبداعية تعتمد على تجميع الصورة المشتتة و المستمدة فروعها من الحقيقة أو تجربة المؤلف و يركب الصورة و يكملها للوصول إلى فضاء السرد.

الرواية النشأة و التطور:

إن الرواية العربية بوصفها شكلا أدبيا متطورا لم تظهر في عالمنا العربي إلا مع بداية الاجتياح الاستعماري لأقطارنا المشرقية ، وبالتحديد أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إذ بدأت تبرز – ولو بخجل شديد – المحاولات الروائية الأولى عند بعض كتاب العرب المسيحيين ، وعند أولئك العائدين من البعثات والرحلات العلمية والرحلات إلى أوربا وخاصة فرنسا.

إن نشأة الرواية كان بفعل الاحتكاك بالأدب الغربي وثقافته ، ومن بين هؤلاء الكتاب نذكر على سبيل المثال لا الحصر: فرح أنطون، ونقولا حداد، وجورجي زيدان، وحسين هيكل وخاصة في روايته زينب التي تعد البداية الحقيقية للرواية العربية المبتكرة ، إذ بعد نشرها سنة ١٩١٤م شاعت الرواية في أقطارنا العربية – مقتبسة أو مترجمة واتخذت مسارات متعددة غنية ومتطورة بفعل تطور المجتمع العربي وانتشرت خاصة الروايات ذات الطابع العاطفي والرومانسي مثل: سارة للعقاد،

---

[١] انظر: إيمان مطر السلطاني، السرد وما السرد في الرواية العراقية المعاصرة، مجلة اللغة العربية و آدابها ، عدد ٩، ٢٠١٠.

[٢] أحمد الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر ، دار المعارف، ١٩٧٨، ص١٦٢.

ودعاء الكروان لطه حسين وعودة الروح لتوفيق الحكيم ...إلخ وتوج هذا التراكم الروائي بظهور العديد من روايات نجيب محفوظ الذي يعد الأب الروحي للرواية العربية دون منازع[١].

و"تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه ، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ، تحت ألف شكل، مما يعسر تعريفها تعريفا جامعا مانعا. ذلك لأننا نلفي الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى ، بقدر ما تستميز عنها بخصائصها الحميمة، وأشكالها الصميمة"[٢].

"نشأت الرواية في أوروبا قبل قرنين ونصف من الزمان، فيما سمى بالكلاسيكية الجديدة، وتطورت شكلا ومضمونا في القرن التاسع عشر، ومن أقطاب المرحلة ديكنز، وهيجو، وغوغول وتولستوي، وبوشكين، وتورجنيف...إلخ ثم تشكلت مذاهب أدبية جديدة".[٣]

ويذهب العديد من مؤرخي الرواية إلى أن العام ١٩٢٢م يشكل محطة الانطلاق الكبرى في الرواية الحديثة وذلك عن طريق الترجمة والتعليم وإنشاء الصحف وتطور وسائل النقل، وإنشاء المراكز التجارية والإعلامية والثقافية.

والشكل الروائي في العالم العربي مرّ في تطوره عبر ثلاث مراحل تاريخية هي على التوالي:

"١- المرحلة الرومانسية التي امتدت إلى الثلاثينات من هذا القرن، وتضمنت روايات تاريخية، ثم سيرة ذاتية. وقد توافقت بداياتها مع النهضة (طه حسين - جرجي زيدان - هيكل).

٢- المرحلة الواقعية الاجتماعية، منذ منتصف الثلاثينات وامتدت إلى منتصف الستينات ويمثل نجيب محفوظ أنموذجها بامتياز.

---

[١] عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة ،١٩٩٨م، ص١١ .

[٢] السابق.

[٣] نزيه أبو نضال: علامات على طريق الرواية في الأردن، ط١ ، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ،١٩٩٨م، ص٢٤ - ٢٥ .

٣- مرحلة الرواية الجديدة ، التي ابتدأت من منتصف الستينيات ، انطلاقا من إعادة تقييم دور الأدب وعلاقته بالأيديولوجية وبالسياسة المباشرة لجهة التعامل مع النصوص بذاتيتها وقيمتها ومميزاتها عن باقي الخطابات الأدبية أو السياسية الأخرى".[١]

وقد كانت الرواية في القرن التاسع عشر تبدو أقل أهمية من الشعر والمسرح وهي اليوم لا تجلس في الصف الأمامي فقط بل إنها امتطت كل الأجناس الأخرى، "إنها تنافس الشعر مستخدمة وسائله عندما تنافس بنيتها بنية البيت الشعري عندما تمتلئ بالاستعارة أو عندما تلعب بموسيقى الكلمات، وتأخذ من المسرح المنولوج والحوار"[٢]، ويصورها أصحاب الواقعية النقدية و الواقعية الاشتراكية بأنها "بناء فني قائم على الشخصية و السرد بلغة نثرية"[٣].

أما في فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨م فقد كانت هناك بعض الآثار النفسية السلبية على الكتّاب الفلسطينيين، حيث انهمك الكتّاب في البحث عن لقمة العيش بعد فقدان الوطن والرزق، إضافة إلى أنهم أصبحوا يعيشون في ظروف عربية شبه استثنائية، إلا أن هذه الفترة بظروفها المعقدة لم توقف الروائيين الفلسطينيين طويلا، بل سرعان ما تحولت الظروف الصعبة إلى حافز على الإبداع والكتابة، وأصبح الكاتب الفلسطيني مطالبا بالتعبير عن هموم الإنسان الفلسطيني والعربي من خلال الدائرة الساخنة، وهذا ما أعطى للرواية الفلسطينية التميز والريادة في التعبير عن الهم العربي من خلال طرح الهم الفلسطيني. ويبرز في هذا المجال اسم الروائي غسان كنفاني في أعمال متميزة تعبر عن المرحلة. [٤]

تتشكل الرواية وتتنوع و تختلف أنواعها; لذلك فمن الصعب تعريفها تعريفا جامعا، ذلك لأن الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى بقدر ما تتميز عنها بخصائصها الحميمة، وأشكالها، والرواية في أبسط تعريفاتها وأكثرها إيجازا :" قصص نثري واقعي كامل بذاته وذو طول معين"[٥]،

---

[١] آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط١، دار الحوار، سوريا ، ١٩٩٧، ص ١٩-٢٠ .

[٢] جان إيف تاديه: الرواية في القرن العشرين، ترجمة محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٥٩.

[٣] أحمد الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، عالم المعرفة، ١٩٧٨م ، ص٢٥٧.

[٤] انظر: علي محمد عودة: الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، ط ١، ١٩٩٧ ، ص٩-١٠ .

[٥] جهاد عطا نعيسة: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ص ٢٣.

فالرواية من حيث كونها فنا أدبيا نثريا تشترك مع الشعر، وتتداخل مع القصة والمسرحية والأسطورة والملحمة، أما اشتراكها مع الملحمة، وذلك من حيث إنها تسرد أحداثا تسعى لأن تنقل الحقيقة، وتعكس مواقف الإنسان، وتجسد ما في العالم. والرواية تتميز عن الملحمة بكون الأخيرة شعرا، وتلك تتخذ لها اللغة النثرية تعبيرا; وأما اشتراكها مع الشعر فلأن الرواية الكبيرة الجميلة شديدة الحرص على أن تكون لغة كتابتها مثقلة بالصور الشعرية الشفافة ذلك لأن النثر هو قبل كل شيء مثل اللغة التي يتحدث الناس بها في حياتهم اليومية. ولا تريد الرواية أن تتدنى لغتها إلى هذه النثرية الفِجة، فتسعى على أيدي كبار كتابها إلى ترقية لغتها حتى يمكن لها أن تتصنفَ في الأدبية، وأما كون الرواية متفردة بذاتها; فلأنها ليست فعلا وحقا أيا من هذه الأجناس الأدبية مجتمعة أو منجمَة; فهي طويلة الحجم، ولكن دون طول الملحمة غالبا; وهي غنية بالعمل اللغوي; ولكن هذه اللغة تكون وسطا بين اللغة الشعرية "لغة الملحمة" و"اللغة السوقية" في المسرحية المعاصرة، "وهي تعول على التنوع والكثرة في الشخصيات، فتقترب من الملحمة دون أن تكونها بالفعل حيث الشخصيات في الملحمة أبطال; وفي الرواية كائنات عادية; وهي تستميز بالتعامل اللطيف مع الزمان والحيز والحدث: فهي إذن تختلف عن كل الأجناس الأدبية الأخرى ، ولكن دون أن تبتعد عنها كل البعد، ذلك أن الرواية عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب، متداخل الأصول، إنها جنس سردي منثور[١].

النظرة الأولى للرواية التاريخية تعتمد على أنها مستند إنساني يصور الحياة الواقعية والتاريخية فلذلك فإن أغلب نقاد مرحلة الخمسينات من القرن المنصرم قد قدموا تصورهم على أن "غاية الرواية: فيجب أن يكون التحري عن الحياة وتصويرها بأمانة و إخلاص كما تبدو لنا، وجمع كمية كبيرة من الملاحظات والمستندات الإنسانية بحيث تكون الرواية عبارة عن دوسيه يطلع فيه القارئ على تاريخ حياة إنسان أو صفحة من حياته"[٢].

"لقد اعتمدت الرواية القديمة على التاريخ، إما بسرد أحداث تاريخية واقعية أو بإيهام المتلقي بأنه يعيش أحداث تاريخية واقعية، و قد عد بلزاك أن الرواية حليف للتاريخ، ومن العيب اعتبار

---

[١] انظر: عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ،المقالة الأولى، دار المعارف ، ١٩٩٨م، ص١٦ .

[٢] أحمد الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار المعارف ١٩٧٨م ، ص١١٨.

الرواية وثيقة تاريخية" [١]، فالروائي لا يستطيع أن يكتب التاريخ بأي من معانيه ، ولا يمكن النظر إلى الروائي بأنه مؤرخ؛ فهو مركب ومكمل و محور لكل الصور وإن ارتكز على التاريخ فهذا عمل فني لا يتجاوز حدود أوراقه وإن ركز على قضية واقعية. وقد ازدهر هذا النوع من الرواية أثناء القرنِ السادسَ عشرَ; وذلك كمعظم الأنواع السردية الأخرى، وقد انجذب الكتاب لهذا النوع لما يحقق لصاحبه من شهرة واسعة، إلا أن التصورات التاريخية كانت تختلف من كاتب إلى آخر، ولعل الرواية التاريخية ازدهرت كل هذا الازدهار الذي بلغ أوجه; لأنها عمدت إلى تحليل الأحداث التاريخية والاجتماعية بشكل فني بارع; ثم لأنها كانت في عهد كان الناس فيه لا زالوا يعتقدون بقيمة سلطان الفرد وسبيله على التاريخ، ولذلك سرعان ما انتهت هذه الرواية بعد المآسي التي مُني بها العالم بعد الحربين العالميتين، فقد اعمل الكتاب أقلامهم و مزقوا الواقع، واعتبروا أن لا بطلا ولا شخصية، ومالوا إلى إنكار هذه الأكاذيب التي عظمت شخصيات أدت بهم إلى القتل والحرمان. لقد تغيرت نظرة المجتمع وانطلق مكسرا للواقع فكانت الرواية الحديثة التي لا يحد من إبداعها وتفوقها حد. بل تعدى الأمر بالنقاد المحدثين الذين اعتبروا أن الراوي مثل الرسام الذي لا يبدع إلا بكسر القواعد المعهودة والمعمول بها [٢].

وتهتم الرواية بالمستويات غير الكاملة "مستوى ما قبل الكلام بما فيه من كلام وأفكار ومشاعر وذكريات"[٣] وبذلك لا تخضع للمراقبة والتنظيم والسيطرة على نحو منطقي، فتبدو الذكريات والأفكار والمشاعر أشبه بتيار مضطرب في الأعماق، عندئذ ينكشف أمامنا الكيان النفسي للشخصية بكافة أبعاده و متعلقاته.

---

[١] عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب ، مكتبة غريب ، ط٤ ، مصر، ص١٢.

[٢] انظر: فاروق خورشيد ، في الرواية العربية ، دار الشروق ، ١٩٧٥ .

[٣] عبد الرحمن أبو عوف: مقالات لها تاريخ ، مشكلة التجديد و البعد الفكري في أدبنا، مطابع الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠٣ ، ص١١٨.

تطور مصطلح الشخصية

الشخص لغة: "سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد ..وكل شيء رأيت جسمانه..والشخص كل جسم له ارتفاع و ظهور، و المراد به إثبات الذات والجمع أشخاص وشخوص وشِخاص"[١] وأنشد سيبويه[٢] لعمر بن أبي ربيعة:

فكان نصيري دون من كنت اتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر[٣]

فقوله ثلاث شخوص أراد بها ثلاث أنفس والإطلاق هنا أراد به المرأة فالثلاثة امرأتان وعمر بن أبي ربيعة وهو يلبس ملابس النساء ليتقي بها شر القوم الذين لاحقوه ، والملاحظ من دلالة الشخص لغوياً عند العرب مما تقدم استخدامهم لحاسة النظر لتحديد الشكل بالظهور والارتفاع، والشخيص : "العظيم الشَّخْص، والأنثى شخيصةٌ " [٤].

وجاء أيضا أنها من(شَخص) "خرج من موضع إلى غيره، ويتعدى بالهمزة فيقال أشخصته وشخص شخوص أيضا ارتفع، وشخص البصر إذا ارتفع ويتعدى بنفسه فيقال شخص الرجل بصره إذا فتح عينيه لا يطرف وربما يعدى بالباء فقيل شخص الرجل ببصره فهو شاخص وأبصار شاخصة وشواخص وشخص السهم شخوصا جاوز الهدف من أعلاه ... والشخص سواد الإنسان تراه من بعيد ثم استعمل في ذاته قال الخطابي ولا يسمي شخصا إلا جسم مؤلف له شخوص وارتفاع"[٥].

وجاء في لسان العرب أنها من مادة شخص ، و الشخص : "جماعة شخص الإنسان وغيره مذكر"[٦].

---

[١] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ،ط١، مادة (شخص).

[٢] أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م، ٥٦٦/٣.

[٣] عمر بن أبي ربيعة: ديوان عمر بن أبي ربيعة، الموسوعة الشعرية، ص٩٢.

[٤] ابن منظور، لسان العرب ٤٥١٧ .

[٥] أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ :المصباح المنير، ط١ ، دار الحديث، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص١٨٤.

[٦] ابن منظور: لسان العرب ٤٥١٧.

و في المعجم الوسيط الشخصية "صفات تميز الشخص من غيره ويقال فلان ذو شخصية قوية ذو صفات متميزة وإرادة وكيان مستقل"[١].

ويعود استعمال اللفظة إلى الزمن الذي شوهد فيه الممثل على المسرح الإغريقي يضع القناع على وجهه لغرض إظهار الصفات الصارخة في شخصية الفرد الذي يقوم بتمثيل دوره على المسرح وإيضاحها[٢].

وبالوقوف على مصطلح الشخصية في الكتب العربية التراثية يجد الباحث أن لفظ الشخصية موجود وفي أفرع متعددة من العلوم مثل علم الجرح والتعديل عند علماء الحديث الشريف للدلالة على الصلاح والصدق من عكسه، وفي كتب الطبقات والتراجم ومحاولة رسم المشهد الكامل للشخص المقصود وتقديم الصورة الأكمل في مخيلة القارئ، إلا أن استخدامهم للفظ جاء مع شخوص حقيقيين لهم أثر وأسماء بارزة في خدمة العلم، أو في مجالات أخرى "كانت شخصية الإمام ابن تيمية قد اكتملت في نهاية القرن السابع الهجري، فأصبح مجتهدا له آراؤه الخاصة التي تقوم في أصلها على إتباع آثار السلف، وتنقية الدين من الخرافات، والمعتقدات الطارئة عليه، وابتدأ منذ سنة ٦٩٨ م يدخل في خصومات عقائدية حادة مع علماء عصره المخالفين له"[٣].

وقد استخدم مصطلح الشخصية علماء العرب أيضا في توصيفهم البعد الجسدي، والبعد النفسي للآخرين، يقول (أبو طاهر السلفي) في أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي: "صورة من شخصية السلفي: كان السلفي سمح الطبع متحملاً حليماً لا تبدو منه جفوة لأحد، فإذا جلس في مجلس الدرس أخذ نفسه بالشدة فلم يشرب الماء ولم يتورك ولم تبد له قدم.

---

[١] المعجم الوسيط ، ٤٧٥/١.

[٢] انظر: علي كمال: النفس ، ط٤، دار واسط، بغداد، ١٩٨٨م ،٧٣/١ .

[٣] المزي: جمال الدين ابى الحجاج يوسف، تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، ط ٤، مؤسسة الرسالة، ص١٩.

وكان على سهولة عشرته آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أزال من جواره منكراً كثيراً وتاب على يديه عدد ممن يشربون الخمر"[١].

ويخلص الباحث إلى أن استخدام العرب لمصطلح الشخصية، ظهر قبل اشتغال نقاد الغرب بتأسيس وتذكية عناصر الرواية الفنية، وقد مهد العلماء العرب لظهور المصطلح في الدراسات الأدبية و الفنية على الصورة الواضحة اليوم، صحيح أنهم لم يستخدموه في المجال الروائي، ولكن أرسوا قواعد استفاد الآخرون منها.

بدأ مصطلح الشخصية في مفهومه المكون الأبرز للرواية في كتب الأدب والنقد الإنجليزي فقد فرقوا بين الشخصية الثابتة والنامية أو الرئيسة والفرعية وقد تنوعت الكتب والدراسات التي استفاضت في شرح أنواع الشخصية وذهب ستانلي هايمن إلى التفصيل المغرق في شرح أنواع الشخصيات الشعرية والنثرية في كتابه النقد الأدبي ومدارسه الحديثة فيقول: "إن الشخصية التي تنبثق أخيراً من هذا كله، ليست، كما قد يتوقع المرء، شخصية فنان عظيم منتصر، حقق في قصيدته " المقامات الرباعية " قطعة من أصل ما صدر في عصرنا من شعر، بل شخصية رجل مريض مقهور معذب يتحلل متوكئاً على النظام واللاشخصانية ...."[٢].

يقول مرتاض في بداية مقالته الثالثة من كتاب في نظرية الرواية : "الشخصية! هذا العالم المعقد الشديد التركيب، المتباين التنوع... تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود"[٣].

---

[١] أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الثقافة، بيروت، لبنان،١٩٦٣ م، ص٧.

[٢] ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة: إحسان عباس، ط ١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٥٨، ١٨٤/١.

[٣] انظر :عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ،المقالة الثالثة، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ص٧٣.

لقد فرق بين مصطلح الشخص والشخصية، فالشخص هو الإنسان المكون من لحم ودم وله حضور، ومسجل في دائرة الأحوال المدنية، ويقصد بذلك الفصل في حقيقة الشخص "الذي يولد فعلا، ويموت حقا. بينما إطلاق الشخصية لا يخلو من عمومية المعنى في اللغة العربية، زئبقي الدلالة فارتأينا تمحيصه لدى الحديث عن السرديات"[١].

وفي الدراسات والفنون الأدبية تعد الشخصية أهم العناصر التي تغزو الفنون النثرية من الرواية والقصة والأقصوصة –القصة القصيرة– والمسرح. فهي "مصدر إمتاع وتشويق في القصة، لعوامل كثيرة؛ منها أن هناك ميلا طبيعيا عند كل إنسان إلى التحليل النفسي ودراسة الشخصية"[٢].

ويذهب محمد غنيمي هلال إلى أن "الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة. ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه"[٣].

إذن الشخصية الروائية هي :"كائن ورقي ينشأ إنشاءً، وهو كائن حي بالمعنى الفني لكنه بلا أحشاء، أو هو كائن قد تكون من سمات وعلامات وإشارات يمكن منها إنشاء خطاب ما، فالشخصية إذن من سمات وعلامات وإشارات يمكن إنشاء خطاب ما، فالشخصية إذن من عالم الأدب أو الفن أو الخيال وهي لا تنتسب إلا إلى عالمها ذاك"[٤]

وتنقسم الرواية والقصة من حيث علاقتها واهتمامها بالشخصية قسمين[٥]: القسم الأول وهو الذي ينشغل بالحدث أكثر من غيره ونسميها "قصة الحدث" وهنا يهتم الكاتب بالحدث ومن ثم يختار الشخصيات المناسبة لها. والقسم الآخر يسمى "قصة الشخصية" وهنا يهتم الكاتب الشخصية ومن ثمة يختار الحوادث المناسبة لها .

---

[١] عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص ٨٥.

[٢] محمد يوسف نجم: فن القصة، ط٥، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٦، ص٥١.

[٣] محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، ص٥٦٢.

[٤] شرحبيل المحاسنة: بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرازز(رسالة ماجستير)، جامعة مؤته، ٢٠٠٧، ص١٥.

[٥] انظر: عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٠٧.

ويرى بعض النقاد المعاصرين(إن خلق الشخصية المقنعة هو أساس بناء الرواية، وسبب نجاحها، يقول (آرنولد)" "إن أساس الرواية الجيدة هو خلق الشخصيات ولا شيء سوى ذلك. إن للأسلوب وزنه، وللحبكة وزنها، وللنظرة الجامدة وزنها، ولكن ليس لشيء من كل هذا وزن بجانب كون الشخصيات مقنعة. فإذا كانت الشخصيات مقنعة، فسيكون أمام الرواية فرصة للنجاح، أما إذا لم تكن كذلك فسيكون النسيان نصيبها."[١].

إن الرواية الحديثة تهتم بالبحث عن المعنى في الشخصية الإنسانية أكثر من البحث عنه في الفعل ورد الفعل الاجتماعيين، وبذلك تسلط الأضواء على الفرد لا على المجتمع، أي على أفكاره التي تتسلط عليه في الحاضر، والتجارب الماضية التي يعايشها فيه، فيتبدى الهم الاجتماعي بطريقة غير مباشرة، أي بطريقة أكثر إيحاء وفنية.

ولكن من أين تأتي الشخصية وهل من حقنا أن نسأل كيف تولد الشخصية؟، وهل يخلق الراوي شخصياته؟، وهل للخيال دور في صناعة الشخصيات؟ هناك طريقتان لعملية ابتداع الشخصية الروائية، أولهما أن يقوم الراوي بالنظر إلى فتات الواقع وتسجيل ملاحظاته ويدونها ويختزلها، وفي مخزون ذكرياته يصوغ الشخصية مستخدما التركيب الفني محاولا أن يجعل له الحياة الكاملة في فضاء الرواية .

أما الطريقة الثانية . تتطلب توافر النظرة الشمولية إلى ما في الحياة من وحدة ، وذلك من خلال التنوع الذي يتراءى عل السطح مع مزج الخيال الثانوي.[٢]

تعتقد فرجينا وولف أن الشيء المهم الذي ينبغي أن يعبر عنه الفنان هو رؤيته الخاصة، أو ماهية الحياة من زاوية ذاتية، وأن الشيء الهام في الحياة الإنسانية هو البحث عن المعنى والتعرف إلى الذات، ولهذا فإن طريقتها في الكتابة الروائية هي تقديم الانطباعات النفسية "عن طريق الصورة، والتركيز على العلاقة بين الأشياء"[٣]، وهي تختار تلك الانطباعات بوصفها مراحل

---

[١] انظر: عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٠٧.

[٢] انظر: أحمد الهواري ، نقد الرواية في الأدب العربي الحديث ، ص ١٨٥ .

[٣] انظر: روبرت همفري ، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص٧٣ .

في طريق الوصول إلى رؤية ما، وبذلك يصبح تشريح النفس الإنسانية ليس مجرد تحليل شكلي، وإنما يمتلئ بحساسية الفنان الانطباعي للون والصوت والشكل والرائحة.

وقد بدت الصورة الجمالية لدى (جيمس جويس) حياة مصفاة في قالب من الخيال الإنساني، ومبرزة بفضله، لذلك يتحقق السر الجمالي على نحو شبيه بحالة الإبداع المادي، فالفنان، مثل المبدع في عالم المادة، يظل مختفيا ومصفى خارج الوجود ومحايدا يتسلى، وهكذا كان في روايته يوليسيس[١].

أما لماذا يصر (جيمس جويس) أن يتخلص العمل الأدبي من آثار مؤلفه؟ فنجده يوضح لنا أن العمل الأدبي بوصفه إبداعا ليس أكثر من عمل يقتضي مهارة، وجمالية هذا العمل في تأثير على المتلقي، أي في جعله على اتصال مباشر بالحياة التي يمثلها، كأنه يريد تقديمها كما هي في الواقع دون حكم تعسفي أو تقييم مباشر، لذا كانت المعرفة هي أخلاقية الرواية الوحيدة، كما يقول كونديرا، وهي معرفة داخلية تتعلق بدقائق النفس، ولا تعني حشوها بمعارف، تثقل كاهلها، وإنما نجد توظيفا لمعارف عدة في جسد الرواية عبر لمسات فنية، فتبدو جزءا حيويا من فضاء الرواية[٢].

لقد ظهرت الرواية باعتبارها " أكثر نظم التمثيل اللغوية قدرة في العالم الحديث من حيث إمكاناتها في إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية والثقافية وإدراجها في السياقات النصية ,ومن حيث إمكاناتها في خلق عوالم متخيلة توهم المتلقي بأنها نظيرة العوالم الحقيقية"[٣].

يحاول الروائي في الرواية الحديثة أن يبتعد عن تقديم الخبر للمتلقي، ليريه أو بالأحرى ليشركه في فضاء الرواية، وبذلك لم يعد المتلقي يستقبل عالما متكاملا مغلقا على نفسه، بل على النقيض إنه يحاوره، ويطلب منه أن يسهم في عملية الخلق وأن يخترع بدوره العمل الذي يقرأ، فيكون مشاركا في معطياته لخلق انسجام وتفاعل بين الفضاء المتخيل وعالمه الذي يعايشه، وبذلك يسهم في خلق عمل أدبي ينسجم وفق تصوراته، ويتعلم في الوقت نفسه أن يخلق حياته من جديد.

---

[١] السابق .

[٢] انظر: محمود غنايم، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة ، دار الهدى، القاهرة، ص٣٧.

[٣] جهاد عطا نعيسة: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١ ، ص٢٣ .

وينقسم القارئ المتلقي إلى نوعين: الأول المتلقي العادي الذي يكتفي بقراءة النص قراءة عابرة بهدف التسلية وإمتاع الروح، ويكتفي بتكوين فكرة عن النص، دونما تدقيق وإعمال للفكر لفهم ما وراء السطور والكلمات .

أما القارئ الناقد الذي يحاول الغوص كما البحار الباحث عن الجواهر واللآلئ، ولا يتوقف عند ظاهر الأشياء محاولا الوصول إلى العلل السردية وعلاقات العناصر الروائية ببعضها، وقراءة الهدف الخفي للكاتب ومحاولة ربطه بالأبعاد الخارجية .

إن القراءة الناقدة تتميز عن قراءة التسلية في فهمها وتفسيرها النصوص الأدبية، ويكتب التميز لصاحبها، لأنه مبدع فسر النص قرأه بتمعن وفحص عباراته، لذلك يرى النقاد أن القارئ المؤلف الثاني للنص.

لقد احتلت الرواية كفن حيزا كبيرا بوصفها فنا أدبيا كما أشغلت عقول النقاد والباحثين في أواخر القرن المنصرم حتى عهدنا هذا لما لها من إسهامات في رصد المتغيرات الإنسانية وردود الأفعال على الحوادث الطارئة وغير الطارئة.

والرواية تقوم على عناصر أساسية تناولتها العديد من الدراسات ومنها الشخصية، التي عاش تفاصيلها الكاتب (زياد عبد الفتاح) وأبدع قلمه في رسم معالمها، ومفاصلها، وللكاتب (زياد عبد الفتاح) العديد من الأعمال الأدبية النثرية الروائية.

تعريف بالروائي زياد عبد الفتاح :

ولد زياد عبد الفتاح[1] في مدينة طولكرم الفلسطينية عام ١٩٣٩م، لأسرة متوسطة وبسيطة عملت الطبيعة سحرها في تشكيل طفولة الكاتب فأنغمس في رائحة اللوز البري والزعتر والعكوب، وسار خلف الرعاة طربا بعزفهم على الشبابة و أهزايجهم الشعبية عمل والده بوظيفة مفتش صحة في مسلخ البلدية، أما الأم فقد كانت من يافا فتنقل ما بين بحر يافا، وجبال طولكرم فعشق الألوان وتمايزها والحنون ورائحة البحر وفتن بالسهل الساحلي الفلسطيني.

عاش الكاتب طفولة رائعة أسهمت في صقل حسه الفني إلا أن عمر التاسعة من حياة الكاتب شكل علامة فارقة، فقد داهمت الشعب الفلسطيني النكبة التي خلعت هذا الشعب من أرضه ودفعت بالفلسطينيين نحو مخيمات الشتات والهجرة وتحولت الأوضاع الاقتصادية من مستقرة إلى فقر مدقع وقد تأثرت أسرة الكاتب بهذه النكبة كما بقية الأسر .

درس زياد المرحلة الابتدائية حتى الثانوية في المدرسة الفاضلية في طولكرم ، وقد ساعد أسرته في العديد من الأعمال فعمل بائعا متجولا فباع السكاكر والبزر، وعمل أيضا صبيا لخياط، وغيرها من الأعمال الأخرى .

ثم حصل على شهادة التوجيهي من الكلية المسائية في جامعة النجاح عام ١٩٥٧م، وسجن في نفس العام لمدة ستين يوما لمشاركته في مظاهرة، وبعدها طلق البلاد وهاجر إلى دمشق ولم يحط الرحال طويلا في دمشق فقد كان وحيدا وخرج من طولكرم متسللا .

وفي عام ١٩٦٠م خرج إلى الكويت وعملا مدرسا لمدة ثلاث سنوات ، وأنتسب في هذه الفترة إلى كلية الآداب في جامعة دمشق ودرس اللغة العربية ، وقد تزامن مع هذه الفترة البدايات الأولى لتكوين حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) وقد كان الكاتب مراقبا لهذه الحركة وبدياتها في محاولة لفهم ما يجري دون الانتماء لها ، إلا أنه أبعد عن الكويت في عام ١٩٦٤م لأسباب وصفت بالسياسية ، وانتقل مرة أخرى إلى دمشق .

---

[1] مقابلة شخصية أجريت مع الكاتب يوم ٢٠١٤/٦/٢٨م.

وفي عام ١٩٦٦م عمل في البنك الصناعي السوري وتنقل ما بين الأردن وسوريا ، إلى أن التقى بدمشق بالشهيد هايل عبد الحميد في عام ١٩٦٨م، وصحبه إلى القاهرة حيث تم تأسيس أول إذاعة سرية (صوت فتح .. صوت العاصفة) ،"لا أدري، ولكن ربما أسعفني الحظ مرات، أن أكون من زمرة المؤسسين. فلقد مضيت إلى الإذاعة (صوت العاصفة) عام ١٩٦٨م، لأكون واحدا من الكوادر المؤسسة لإذاعة لم تكن في حسابات حياتي على الإطلاق"[١].

كان للكاتب العديد من المحاولات الكتابية الخاصة في هذه الفترة، وقد قام بكتابة قصة أرسلها إلى أحد البرامج الثقافية في الإذاعة السورية وبعدها بأسبوعين عندما كان الكاتب يتابع البرنامج لاحظ الاهتمام بذلك العمل وتنبؤ البرنامج بظهور قلم واعد جديد ، ومن هنا بدأت الثقة بالنفس والإعداد الشخصي للشروع في الكتابة الأدبية .

مع بداية العمل في القاهرة التحق زياد عبد الفتاح بجامعة عين شمس ودرس الحقوق، وانتسب إلى كلية الآداب ودرس علم النفس بالتوازي، وقد تخرج ونال الشهادة الجامعية للتخصصين في عام ١٩٧٥م.

في ١٩٧٠م وبعد أحداث أيلول الأسود تقرر تأسيس إذاعة لحركة (فتح) في درعا السورية وبذلك انتقل الكاتب زياد عبد الفتاح إلى سوريا وعمل في الإذاعة لمدة تسعة شهور، إلى أن استدعاه ياسر عرفات رئيس حركة فتح إلى بيروت وعمل مراسلا عسكريا بين القواعد العسكرية.

وفي عام ١٩٧٢م، عين مديرا عاما لوكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) وكان المؤسس الأول للوكالة في بيروت، "المهم صدر قرار اللجنة التنفذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في ١٩٧٢/٦/٥م بإنشاء الإعلام الموحد، وكانت وكالة الأنباء الفلسطينية(وفا) واحدةً من أبجدياته، تم تشكيلها برئاستي ومعي هيئة تحرير، أسند القرار إلى الفصائل الفلسطينية اختيار مندوبا فيها، ليكونوا محررين وعاملين"[٢].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، الرعاة للنشر والتوزيع، رام الله، فلسطين، ص٦ .

[٢] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ٨ .

لقد حظيت المرأة بمكانة رفيعة في حياة الأديب زياد عبد الفتاح على الرغم من تنقلاته وسفرياته ورحلاته المتعددة، فقد ارتبط في العام ١٩٧٢م بالسيدة ماجدة إبراهيم صاحبة الأصول المصرية، وتكلل هذا الحب بديمة التي أمضت طفولتها في بيروت .

كما كانت الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت من ١٩٧٥-١٩٨٢م بآلامها وأحداثها مصدرا للإلهام الثوري عند الكاتب الذي انشغل في محاولات المحافظة على هوية الثورة والدم الفلسطيني اللبناني، وقد أتاحت هذه الأحداث الفرصة للكاتب لممارسة ميوله الإعلامية وإبراز قدرته على التحليل والرصد.

"لقد اقتربت وفا من الوطنيين اللبنانيين، وحيث إنها كانت تزن دورها بميزان الذهب، فإنها لجأت إلى الحليف الوطني اللبناني. فأنفقت وقتا وجهدا عاليا للعمل معه بهمة ونشاط"[١].

وفي أثناء الحصار الإسرائيلي على بيروت (١٩٨٢) عمل الكاتب زياد عبد الفتاح مع مجموعة من الكتاب والصحفيين رغم القصف والدمار والقدائف المتساقطة من كل حدب وصوب على إصدار جريدة (المعركة) التي كانت تقف على الجبهات وتلاحق الأوضاع الساخنة على المحاور ، وكان العاملون فيها كخلية نحل تقوم على التضحية والاستشهاد.

"تحولنا في هيئة تحرير المعركة إلى أسرة حقيقية ، كل الحساسيات التي تشكلت عبر سنوات طويلة بسبب الانتماءات المختلفة ، والرفض والقبول والتنافس والتناحر وكل ما عدا ذلك مما يفجر الحساسيات ذاب وتبخر .كنا نواجه المصير ذاته.هاماتنا جميعا تحت المقصلة...."[٢]

في أواخر ١٩٨٢م كان قرار القيادة الفلسطينية الخروج من بيروت "في ذلك الحين كانت الثورة الفلسطينية وحركة فتح على وجه الخصوص، تمر بمأزق العودة من طرابلس في اتجاه تونس"[٣] فتوجه الكاتب، إلى دمشق، واستقل الباخرة إلى أن وصل إلى اليونان ، ولم يطل المكوث في فولوس اليونانية، إذ قرر إكمال الطريق إلى القاهرة، وكانت الصاعقة النفسية على الكاتب

---

[١] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ١٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ٦٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ٩٩.

المهاجر في بلاد العروبة إذ رفضت السلطات المصرية السماح له بدخول أراضيها، فأجبر على العودة بنفس الباخرة من حيث أتى ، ثم قرر الرحيل إلى تونس .

عاد زياد عبد الفتاح إلى مزاولة عمله رئيسا لوكالة وفا الإعلامية في تونس مقر القيادة الجديدة وربطته علاقات وطيدة بأركان القيادة الفلسطينية وعلى رأسها القائد العام ياسر عرفات ونائبه خليل الوزير (أبو جهاد) ، إلا أن الكاتب مع احترامه وحبه لقيادته تمسك برأيه، ولم يدع لأحد الفرصة لاختراق رجاحة عقله.

"لم يعد أبو عمار يتساهل في شيء ، حتى أنه أمر بحبس محرر في وكالة الأنباء الفلسطينية وفا وهو على متن طائرة تحلق فوق مجاهل إفريقيا ... قررنا ألا تمر الحادثة دون احتجاج وسعي مكثف لإطلاق سراح الصحفي" [١].

استمر عمل الكاتب في رئاسة وكالة وفا طوال فترة مكوثه في تونس التي امتدت حتى عام ١٩٩٤م، إذ دشن هذا العام باتفاقية أوسلو وقرر الفلسطينيون عقد معاهدة سلام انتهت بالعودة إلى فلسطين، وعاد الكاتب زياد عبد الفتاح إلى مدينة غزة، يقول في ورق حرير: "من تونس طرت إلى القاهرة . تلكأت كثيرا. اعتقدت أن ثمة وقتا تتدبر فيه وتفكر وتعيد حساباتك. هناك مرحلة في العمر تفرض إيقاعها، فتتركك لتأمل فارق يقودك إلى أن تكون نفسك، ورهن صواب قلبك...وصلت غزة ، كان معظمهم قد سبقوني ، وقد كانت الوكالة قد استقرت في شارع النصر في مدينة غزة في بناية بائسة..." [٢].

وفي خريف عمر الروائي زياد عبد الفتاح أسندت إليه مهمة تأسيس الهيئة العامة للاستعلامات بعدما كلفه ياسر عرفات بها إذ أنه رأى فيه الرجل الكفء القادر على القيادة والتأسيس .

في عام ٢٠٠٦م ، بلغ زياد عبد الفتاح السن التقاعدي وبذلك ترك مسيرة وفا إلى من بعده ليكمل المشوار يقول واصفا هذه التجربة: "... وحتى عام ٢٠٠٦، وهو العام الذي قام فيه وزير

---

[١] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ١٠٩ .

[٢] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ١٩٨ .

الإعلام، وأظنه كان في ذلك الوقت (نبيل شعت) باستصدار مرسوم يكف يدي عن العمل في الوكالة، وبتعييني مستشارا لوزير الإعلام . وهي وظيفة لم أمارسها ، ولم أقبل بها ولو يوما واحدا. على كل حال كنت قد جاوزت سن التقاعد ، فحق لي وعلي الذهاب إليه طواعية، دون التوقف للحظة واحدة أمام أحقاد، أو تسديد حسابات لم تشغلني من قبل"[١].

وانهمك بعدها الكاتب في مواصلة حياته الخاصة متنقلا بين أرجاء المعمورة، ومتخذا من فلسطين وبحر غزة مقرا له، كالطائر المحلق الذي يطير بجناحيه آخر الفضاء ثم يعود إلى عشه الدافئ والحاني، ولا يزال كاتبنا مواصلا لمسيرته الأدبية في انتظار مولود روائي جديد، ولا يزال ممارسا إدارة أعماله الحرة الخاصة بعيدا عن صخب المكاتب وهموم الأعمال الإدارية المرهقة.

شارك الكاتب في الكثير من المؤتمرات والندوات الإعلامية والثقافية ، وزار معظم أقطار العالم من خلال بوابة عمله الأدبي والإعلامي فعمل رئيسا لتحرير مجلة (لوتس) الأدبية الناطقة باسم اتحاد كتاب أسيا وأفريقيا.

كما اختير عضوا للأمانة العامة في مؤتمر اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ومسئولا عن العلاقات الداخلية والعضوية .

شارك في إيصال الهم والمعاناة اليومية لأبناء الشعب الفلسطيني من خلال كفاحه بسلاح القلم، وكتب المقالات في العديد من المجلات والجرائد الدولية والمحلية ، كما أفردت له مساحة أدبية لكتابة المحرر السياسي الذي استمر في كتابته من ١٩٧٢، وحتى ٢٠٠٦م .

نجا من الموت في أكثر من حادثة، كانت أنامل الموت تصل إلى حد ملامسة روحه، إحداها كانت في بيروت أثناء الحصار الخانق ، واستشهد زميله ونجا هو ليواصل قلمه إتحاف القراء بالأعمال الأدبية المميزة .

---

[١] زياد عبد الفتاح: ورق حرير، ٢٤.

صدر للكاتب العديد من الأعمال الأدبية ففي عام ١٩٧٦م، أصدر مجموعة قصصية بعنوان (بلاغ خاص لأحد الرجال العاديين) التي تدور حول أحداث القضية الفلسطينية، وشخصياتها، وقصص وأبطالها.

وبعد الخروج من بيروت عام ١٩٨٢م، أصدر الكاتب مجموعة قصصية جديدة تحمل عنوان (قمر على بيروت) التي تتحدث عن معاناة الشعب الفلسطيني، وأحداث صبرا وشتيلا .

ثم كتب مجموعة قصصية قصيرة جدا بعنوان (قطة سوداء في الشارع الأخير) التي تلخص علاقة قطة هربت من دوي الرصاص والقدائف ، وعلاقتها بالصحفي الفلسطيني (خليل الزبن) الذي خرج من بيروت تاركا القطة وراءه ليستشهد في غزة .

وفي عام١٩٩٢م، أصدر الكاتب الرواية الأولى(وداعا مريم) التي فضح من خلالها الدكتاتور المستبد والقاتل ، الذي يخلو من الشرف والأخلاق، ويسعى إلى سلب الآخرين حقوقهم البسيطة في سبيل إشباع ميوله ورغباته النرجسية، ووضع الكاتب زياد عبد الفتاح نهاية هذا الحاكم المستبد بثلاثة رصاصات يتلقاها على يدي مستشاره .

وقد طبع هذا العمل مرتين الأولى في بيروت ، والثانية في غزة عام ٢٠٠٤ .

ثم أصدر الكاتب في العام ٢٠٠٢، رواية (المعبر) التي تلخص انتهاك العقل الفلسطيني والروح الإنسانية للمواطن الفلسطيني الذي يدخل رحلة من الجحيم إذا اضُطر إلى السفر أو الخروج من قطاع غزة عبر معبر رفح الخاضع للسيطرة الصهيونية، وألوان العذاب التي يتلقاها المواطنون على المعابر التي تفصل أجزاء القطاع الواحد وتحوله إلى أشلاء فيعاني الأمرين من أراد العبور من جزء إلى آخر.

وقد أصدر الكاتب رواية أخرى بعنوان (ما علينا) وبطلها نزار الذي خرج من بيروت مع زوجته وطفلته، نحو طرطوس، ثم اليونان، ومصر وعدم السماح له بالنزول على الأرض المصرية، لأنه فلسطيني، ويصل إلى تونس عبر مطار قرطاج، وتلخص الرواية بأحداثها وشخصياتها الرئيسة والثانوية ألوان العذاب التي يتجرعها الفلسطينيون على أيدي أبناء جلدتهم العرب.

ثم تأتي (دار الجيش) التي صدرت في العام ٢٠١٠م، والتي تقدم مشهدا متكاملا عن الأحداث المرافقة لانطلاق حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) في الكويت، وما رافق المشهد من آلام وتضحيات والظروف التي تحتم على الفلسطينيين التغلب عليها في سبيل الحياة بعزة وكرامة، كما تطرقت الرواية إلى العوامل التي أسهمت في الثورة الاقتصادية الكويتية، وتحرر الكويت من الاستعمار، ومساندة الشعب الكويتي في مجمله للشباب الفلسطيني .

وآخر أعمال الكاتب صدورا (ورق حرير) التي تُعد سيرة ذاتية تمارس السرد القصصي، والتي استمد تسميتها من ورق (الستانسل) الذي استخدم في الطباعة على آلة الطباعة البدائية (الرونيو) ويقدم هذا العمل شهادة ذاتية حقيقية للظروف والأحداث التي تقاطعت مع تأسيس وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) من مناوشات وصراعات مع المحتل الصهيوني، أو مع الحكام العرب، أو المشاكل الحزبية التي كانت تطفو على هامش الثورة، وأسهب الكاتب في تقديم الأسماء التي دعمت هذه الوكالة وناضلت من أجل استمراريتها، ويبدأ الكاتب سرده للأحداث من العام ١٩٧٢م، مسترجعا بعض الأحداث الأقدم في سياق القص، ثم تنتهي أحداث هذا العمل الأدبي في عام ٢٠٠٦م، عندما وصل الكاتب إلى سن التقاعد.

الفصل الأول

شخصية الفلسطيني

الحياة ريشة تنقش في قلب صاحبها، ولا يفصل الواقع عن تجربة صاحبه، ومهما تعاظمت الأمور أو صغرت فإنّها تترك أثراً في اللا شعور، والإنسان الفلسطيني ليس كباقي الشعوب، فالنائبات تحل بصورة طارئة، إلّا أنّ الفلسطيني – لقدر ربما خلق له– ملازم لشتى أنواع القهر والصلف والتعذيب، ليس بدءاً من النكبة أو وعد بلفور بل تجاوز الأمر صفحات التاريخ وكتبه، فطحنته ملاحم نبوخذ نصر وخراب الهيكل المزعوم، وجزء من معارك الفراعنة، وشهد معارك الرومان للقضاء على فلول اليهود الذين مزجوا وصناعة الخراب، ونالت منه الحملات الصليبية التي استهدفت المشرق العربي، وتآمر على أرضه الأقارب قبل الأبعاد، فوقع تحت الانتداب البريطاني الذي سلم فلسطين لقمة سائغة لعصابات الصهاينة، وتوالت النكبات والنكسات على الفلسطينيين البسطاء الذين أنهكتهم آلة التخريب والقمع، فشردوا من أوطانهم وأراضيهم، وصار الفلسطينيون الكرماء يطلبون المأوى والمأكل، وبعدها صار الفلسطيني لاجئا.

وانتقل الفلسطينيون بذلك الحال المشئوم إلى مخيمات اللجوء في الضفة الفلسطينية وغزة، وإلى الشتات العربي متمثلا في لبنان، والأردن، وسوريا، ومصر، ودول الخليج العربي، وأنتقل البعض الآخر إلى أبعد من ذلك .

لقد ارتبط الفلسطيني، بمحيط صعب وقاس. أثرت هذه الظروف الصعبة به وحولته إلى شخصية وطنية مناضلة ثائرة تسعى وتعمل لإعادة لملمة الجراح، وعدم الانكفاء على الذات والاستسلام، فالمرأة ترسم الدور المنوط به بدقة بالغة قبل الرجل، والطفل ولد مقاتلا من رحم المعاناة، والشاب تحول إلى مقاتل شرس، يقف في وجه أعتى آلات الحرب الصهيونية.

بعد أن طالت رصاصات الصهاينة وأحقادهم الضعاف من أبناء الشعب الفلسطيني، والمحاولات المتكررة لنزع هذا الفلسطيني من أرضه، ومسح معالمه، وإزالة أي أثر يدل على فلسطينية المكان، أدرك جيل النكبة أنه قد وقع في فخ المؤامرة وأن المفتاح الذي حمله على أمل العودة قد ضاع بابه، والجنيهات التي تركها في مسنده، أو في زيره تحولت إلى رماد، ورحلته التي سيعود منها بعد أسبوع أو أسبوعين على أقصى تقدير تحولت إلى رحلة هجرة، وخيمة الأنروا التي ليس بحاجتها تحولت إلى دار، والمخيم تحول إلى دار إقامة، وكرت التموين تحول بلا إرادة إلى حق يجب الحصول عليه، بل يقاتل من أجل إثبات أنه لاجئ .

لقد كان هذا الجيل الذي عاصر الانتداب البريطاني والنكبة منهكا، فقد أتعبته حروب ليس له علاقة بها، وأنهكه الفقر، والجهل، واستسلم رغم إراداته.

لكن صعد جيل جديد هو جيل ما بعد النكبة، الذي تعلم في مدارس المخيم، وعشق أرضا لم يرها، ورفض واقعا ولد فيه، فتسلح بسلاح المعرفة، وأدرك أن ما أخد بالقوة لا يسترد إلا بها، ووصل إلى يقين أن هم تحرير الأرض يقع على كتفه، ورفض محاولات الاستسلام والخضوع. لقد أكمل هذا الجيل تعليمه في المعاهد والكليات، وإن حالفهم الحظ سافروا إلى الجامعات العربية لاستكمال طريقهم وتحصيلهم، كانوا معلمين وخدموا في بلادهم وبلاد أخرى، كانوا محاسبين وإداريين وحرفيين يسعون لتحسين واقعهم وواقع عائلاتهم، إلا أنهم لم ينسوا بلادهم التي سلبهم إياها اليهود وهجروا آباءهم منها، فكان التخطيط والعمل على تكوين اللبنات الأولى لحركات التحرر الوطني، رافعين لواء الكفاح المسلح لاستعادة الأرض، لقد كان هؤلاء النفر على وعي كامل، ودراية شاملة بحجم المؤامرة وأبعادها فاتخذوا السرية أساسا لعملهم، وانطلقوا حاملين الهم الوطني في شتى الميادين والمجالات، وكان أول مولود لهذا المخاض حركة التحرر الوطني الفلسطيني، ثم تبعتها عدد من التنظيمات الفلسطينية الأخرى، التي توحدت تحت راية منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، سجل (زياد عبد الفتاح) هذه الأحداث الحقيقية بلغة روائية استندت في بعض أحداثها على واقع تاريخي، ولكنها نجحت في ترهين اللحظة، وإتحاف المتلقي، وجذبه إلى داخل روايات (وداعا مريم، والمعبر، وما علينا، ودار الجيش).

أولا/ الشخصية الوطنية:

الوطن: موطن الإنسان ومحله وأوطان الأغنام: مرابضها التي تأوي إليها، ويقال: أوطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلا ومسكنا يقيم بها، قال رؤبة:

حتى رأى أهل العراق أنني أوطنت أرضا لم تكن من وطني

والموطن: كل مكان قام به الإنسان لأمر. وواطنت فلانا على هذا الأمر، أي: جعلتما في أنفسكما أن تعملاه وتفعلاه، فإذا أردت: وافقته قلت: واطأته. وتقول: وطنت نفسي على الأمر فتوطنت، أي: حملتها عليه فذلت، قال كُثير:

وقلت لها يا عز: كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت[1]

يرتبط العصفور الصغير بعشه، وتسعى سمكة السلمون في رحلة انتحارية متحدية التيار نحو موطن ولادتها، ويعشق الإنسان منذ ولادته أرضه، ومهما باعدت الظروف بين الإنسان ووطنه يعود إليه، كأن عقدا مبرما – دونما إحساس – حال دون نسيان الإنسان لوطنه وديارة، ربما هذا الإنسان الطبيعي الذي يسافر عن بلده طواعية، ويستقر به المقام خارج أرضه، يفكر بالعودة بعدما يقضي ما خرج من أجله كتحصيل علم، أو طلب مال، أو سياحة يريد أن يستكشف من خلالها عوالم أخرى، إلا أن هذا الحالة الطبيعية الموافقة لسنن الكون ونواميسه؛ تقف جامدة عند الفلسطيني، الذي أخرج من أرضه قسرا، وطرد من بيته، وسلبت منه أدنى الحقوق، وأصبح شعبا بلا وطن، بعد أن تكالبت عليه القوى العالمية والإقليمية.

"ويشكل المكان أحد العناصر المكونة لبنية النص الروائي، وهو يشير إلى الإطار الذي تقع فيه الأحداث والمساحة التي تتحرك فيها الشخصيات الروائية، ويعدّ إلى جانب عنصر الزمان "المكوّن الثاني لأي وجود في بعده الكوني، والحد المهم في تكوين الإنسان وسلوكه، في بعده الاجتماعي" [2].

---

[1] انظر: لسان العرب ٤٥١/١٣ ، العين ١٠٧/٢ .

[2] سليمان حسين: مضمرات النص والخطاب، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩،ص٣٠٣ .

وقد اختلفت نظرة الروائيين وطريقة تعاملهم مع المكان؛ ففي القرن التاسع عشر، الذي أصبح فيه تحديد المكان من السمات التي ميزت الرواية، بالغ الروائيون في اهتمامهم به، فمالوا إلى تحديد العالم الحي الذي تعيش فيه الشخصيات الروائية، وجسدوا المكان تجسيدًا مفصلاً. [١]

في حين تعامل روائيو القرن العشرين معه بطريقة مختلفة لم يعد معها مجرد إطار للشخصيات، وإنما ظهر كمحور تتفاعل معه وفيه الشخصيات، مضيفةً إليه سماتها الإنسانية.[٢]

ومثل ذلك التغير في طريقة التعامل مع المكان، كأحد المكونات لبنية النص، ليس إلا انعكاسا لتغير طبيعة إحساس إنسان القرن العشرين بعامة والروائيين بخاصة بالحياة، وهو تغير جعل تعامل هؤلاء الروائيين مع الواقع يتخذ صورًا أخرى.[٣]

لكن المكان يغيب في أحد الروايات عن قصد كما ويقتصر الروائي في تقديمه له على إشارة عابرة، في حين يحضر، في رواية أخرى، من خلال صور مبالغ فيها، بالتركيز على وصف تفاصيل ذلك المكان، حتى ليبدو" العالم المادي ينوء بأشيائه، وأمكنته على الأبطال، وعلى القراء أنفسهم، فيتجمد الأبطال، ويصمتون في الغالب، وتصبح حركتهم داخل المكان لا معنى لها .حتى أن المحيط يصبح طاغيًا على وجودهم"[٤]، ومن خلال هاتين الطريقتين يظهر المكان عنصرًا فاعلاً ومؤثرًا، لا عنصرًا محايدًا يقتصر وجوده كديكور أو كوسط يؤطر الأحداث.

لقد ظلَّ الفلسطيني مرتبطاً بوطنه رغم البعد القسري الذي أُجبر عليه، ويظهر ذلك جلياً في رواية (دار الجيش) والتي تجسد معاناة وآلام فراق الفلسطيني لأرضه.

---

[١] انظر: قاسم سيزا، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص٧٩.

[٢] انظر: رفيف رضا صيداوي، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية ١٩٧٥ –١٩٩٥ ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م ،ص٣١٠.

[٣] انظر: حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م ، ص٦٨.

[٤] السابق، ٦٩.

دار الجيش

لم ينس الفلسطيني وطنه، بل اعتقد أن هذه الهجرة طارئة، فعائلة (العمري) المثقفة والمتعلمة، والتي تعتبر من العائلات الكريمة في مدينة القدس جزمت بأن هذه الهجرة أيام قليلة "لقد حملوا مفاتيحهم معهم أول الاحتلال ظنا بأنها أيام ويعودون"[١]، وسيعود هذا المهاجر بعد أسبوع أو أسبوعين على أبعد تقدير إلى أرضه، و(أبو ليلى) الفلاح البسيط الذي لا يستطيع العمل لكبر سنه وحجمه، والذي لا يستطيع القراءة أو الكتابة، هاجر نحو الكويت طالبا لعمل يسد من خلاله جوع طفلته الصغيرة (ليلى)، وعندما حانت ساعة الرحيل ودع (ليلى)، ولم يأخذ (أم ليلى) معه، وحمل مفتاح الدار "ظل أبو ليلى الأعلى تعبيراً عن الحالة ... عندما طردوه آخر مرة وأيقن أن لا عودة. اكتفى بأن يحمل معه مفتاح الدار التي اغتصبت ... كان يفرج عن كربه والنكبة التي أصابته، بأن يمد يده إلى جيبه ويخرج مفتاحه يتفقده ويتحسس ملمسه. يعاين حديده ويمسحه بحنين، قبل أن يعيده إلى عبه..لم ينس وهو يغادر ليلى وأم ليلى إلى الكويت، أن يحمل معه مفتاح الدار، بل لم يغفل في كل ليلة من ليالي دار الجيش الكئيبة أو السعيدة أن يتحسس المفتاح، حتى لا يضيع أو يسطو عليه أحد.لماذا المفتاح قاسم مشترك، يتحسسونه ويتممون عليه، كلما هاجت الذكرى وبرحهم الحنين؟!"[٢].

واستخدم (زياد عبد الفتاح) أسلوب الوصف لعرض تأثير النكبة على اللاجئ الفلسطيني الذي هُجر من أرضه وتقديم رواياته للقارئ، فيصف (صالح محمد صالح) وطنه وقريته التي هجر منها بعد النكبة؛ لقد خرج الكلام من عاشق مزج بمحبوبته، لم يسمح لعقله بنسيان أدق التفاصيل التي عاشها على أرضه، فيستذكر الكتاتيب، والشيخ الذي لم يفلح بتعليمه فصار يعاني الأمية "الجنة هي الأرض، والله خلق السماء على شاكلتها، أما جنة الجنات فهي الوطن. يحدث بهمس وحنين بأنهم كانوا يزرعون البطيخ والقثائيات والخضروات ويمضون في سعادة بالغة وهم يقطفون الثمار: هذه بندورة، وتلك فاصولية وبامية، وثوما وبصلا[٣]، وكل ما يخطر في بالك من خيرات"[٤]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ط١، الدر للنشر والتوزيع، المحروسة، مصر، ٢٠١٠م، ٥٦ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٧٨ .

[٣] الأصح: ثوم، وبصل.

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٦٣ .

فللوصف وظيفة ذات طبيعة تفسيرية ورمزية معاً أشار إليها النقاد، فرسم شكل الشخصيات وملابسهم وملامحهم أيضا وكل هذا يعطي فكرة عن تركيبها النفسي فالوصف عنصر حيوي في تقديم الشخصيات.[١]

لقد تميزت الشخصية الفلسطينية في روايات (زياد عبد الفتاح) بالوطنية، وأكد على حب الأوطان، ورسخ في العقول مفهوم فلسطين الوطن غير القابل للانتزاع، وسلخ من مخيلته وعقول قارئيه أي سرد أو وصف يستهدف الشخصية الفلسطينية، أو يقلل من شأنها، وشخصياته الفلسطينية سواء أكانت رجلا، شيخا، أم شابا، أو امرأة متزوجة كانت أم فتاة صغيرة، أو طفلا يعي ما يدور حوله أم لا يعي، اشتركوا في وطنيتهم، فشخصية المهاجر، والمقهور، والمناضل هي شخصيات وطنية وهي من الشخصيات التي تميزت بوطنيتها في رواية (دار الجيش) .

يوسف أبو نصرة

تمتع بشخصية قيادية ذكية تتميز ببعد النظر. صنع وطنا خاصا للفلسطينيين داخل دار الجيش في الكويت، وفوض نفسه ليكون مشرعا للقوانين، فالدار للفلسطينيين، ولا يجوز لغيرهم الإقامة بأي حال داخلها، ولا يستقبلهم إلا زوارا أو سُمّارا فقط، لقد حاول الفلسطينيون تقاسم المسكن والمأكل، وعلموا جيدا أنّهم في غربة قاسية فتراحموا، وأطعموا جائعهم، ولم يقسوا على ضعيفهم "كان يوسف أبو نصرة يمثل الساكنين وكان يحسبهم بعقله ويحصيهم ويوزعهم بين أصلاء ومارقين، مرشحين للعمل ومتعطلين دائمين، ثم يخلط كل هؤلاء معا خلطة عبقرية تكون معهم وبهم كلهم دار الجيش، وحسابها الذي يجمع، ونصيب الفرد منهم فيما يستحق أن يدفعه!"[٢] .

لقد أعطى (أبو نصرة) أنموذجا على البساطة البعيدة عن الواقعية، وحالة الفقر الممزوج بضعف التعليم وتراجع المستوى المعيشي الذي عاشه الفلسطينيون إبان الإنتداب البريطاني وما تلاه من نكبة واستعمار صهيوني.

---

[١] انظر: صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الادبي، ط١، دار الشروق، ١٩٩٨م، ص٢٩٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٨.

تراجعت الخدمات التعليمية والصحية، وصنع الاستعمار عوامل طاردة تسعى للنيل من الفلسطينيين، الذين تحدوا كل الظروف ونمت لديهم إرادة الحياة "ليس حلاقا وحسب، وإنما كان لويحا ودبيكا وعازف ناي، وحادي القرية وطبيبها وممرضها، الذي لا يلبث –على الرغم من صغر سنه في ذلك الزمان– حتى يحضر لك وصفة أعشاب كاملة، أو يسر لك بتركيبة تنفع إذا خانتك القدرة. ولم يكن أبو نصرة كما يتبادر للذهن دجالا أو مدعيا"[١].

رغم الآلام والجراح، تستمر الرغبة في الحياة، ويتشبث الفلسطينيون ببصيص أمل لحياة مستقرة، أحب وعشق (يوسف أبو نصرة) الذي كان حلاقا للقرية، حاول تأسيس حياته الخاصة المبنية على الحب الصادق الذي طالما حلم به، فقد أحب مريم بنت المختار المتخرجة من كليات المعلمات "فاجأه المختار بأنه سيكون الخميس القادم نجم حفل زواج ابنته مريم، ولسوف يرقصون ويدبكون حتى الصباح، فمريم العزيزة الغالية مسافرة وراحلة إلى بلد عريسها في رام الله"[٢].

شكلت هذه الحادثة صدمة في حياته "قويا كان أبو نصرة وجريئا أو وقحا ومغامرا، فلم يتردد وإنما باع دكانه وهجر قريته وفلسطين كلها، وسرعان ما أمّ الكويت"[٣].

لم يتلق (يوسف أبو نصرة) شهادة عليا أو متوسطة، ووصل في تحصيله إلى الصف السادس الابتدائي، إلا أنه قد طور نفسه وزاد من قدراته العقلية، وقرأ كل ما يقع تحت يديه، فنال خبرة في الحياة برزت من خلال آرائه وكلماته المنتقاة بعناية تدل على محصلته اللغوية وسعة إطلاعه "مهلا يا عبد الفتاح مهلا، فسوف يأتيك بالأخبار من لم تزود"[٤]، "قال أبو نصرة: إن غدا لناظره قريب، ولكن ...."[٥].

هاجر (أبو نصرة) إلى الكويت، وعمل مراقبا في إحدى الشركات، التي كانت تسعي لبناء الكويت بعد ثورة التقدم واكتشاف البترول، أصبحت الكويت كباقي دول الخليج العربي مرتعا خصيبا

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ،٣١.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ،٣٤ .

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٥.

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٥١ .

[٥] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٥٣ .

للمال وللعمل، لذلك حرص الفلسطينيون على العمل في هذه الدول التي توفر لهم المال الكافي لإطعام عائلتهم، أو بناء أسرهم الخاصة.

لم يكن الفلسطيني مجرد آلة للعمل، بل أصبح أكثر إدراكا للواقع، وعمل لتغيير طريقة تفكيره، وتخلى عن السذاجة، وحاول تغليب العقل على العاطفة، وأستخدم التفكير المنطقي والواقعي في تحليله للحادثات، ولم يطلق الأحكام جزافا، فموقف أبو نصرة كان بعيدا كل البعد عن ظاهر الأمور عندما ادعى(محمود الشيص) العمل وصدقه الآخرون "الشيص يكذب لم يشتغل ولن يشتغل حتى أشهر طويلة قادمة، الشيص يكذب كما يتنفس وهذه مسرحية، وإنكم لمغفلون"[١]

ربما كان قاسيا (يوسف أبو نصرة) في أحكامه، ولكن أراد إيصال رسالة واضحة مفادها جربنا العاطفة وحكمنا بظاهر الأمور، وكانت النتيجة قاسية جدا، خسر الفلسطينيون كل ما يملكون، لم يصدق (الخال) والد (محمود الشيص) و (عبد الفتاح الأصفر) ما يذهب إليه(أبو نصرة) ولعنه (صالح محمد صالح) على هذا الرأي الذي لا يتوافق مع آمالهم ورجائهم بنجاح (الشيص) وحصوله على عمل في دائرة الأشغال.

ومرة أخرى تتحقق فراسة (أبو نصرة) فقد دخل عليهم (عبد الكريم سمارة) مرتديا بدلة بحار، ومعلنا الحصول على عمل في أعالي البحار "عبد الكريم سمارة يراهن على حماقتنا وغبائنا، إنه أيضا لا يعمل، يقدم مسرحية لن يجد لها ممثلين، إنه مثل الشيص يكذب كما يتنفس"[٢].

بدأت عقلية الفلسطيني بالتطور، وبدأ الفهم للواقع، وإطلاق الأحكام بناء على الوقائع والقرائن، لا على الأهواء والخواطر "قال عبد الفتاح الأصفر في ذاته: ربما يكون أبو نصرة على حق، إلى متى نظل لا نستفيد من تجاربنا، ألم يكن الشيص مثلا صارخا؟ لقد ضحك على ذقوننا جميعا بما فيها ذقن والده، الذي يكدح طوال النهار وأطرافا من الليل في سبيل ساعات إضافية يحسن بها وضعه.".[٣]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٥٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣٠.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣٠.

كانت دار الجيش مقرا لبحث هموم الفلسطينيين، ومشاركة أفراحهم، وأصبحت شاهدا على حراك غامض، لم يفهمه (يوسف أبو نصرة) ولأول مرة يحس أن الماء يسير من تحته دون أن يعرف ما يحاك، كان حراكا سريعا، تبدأ خيوطه بظهور المهندس (ولي الدين) وطلبه (عبد الفتاح الأصفر)، ثم لا تلبث الأمور تعود إلى ما كانت عليه "ما علينا! ولكن قل لي يا عبد الفتاح أليس ما يجري أمامنا فيه غموض يثير أسئلة؟ أم أنك ترى مثلما لا أرى أن الأمور طبيعية وعادية! أحيانا أقول لنفسي يا عبد الفتاح، إن الأمور إذا لم تترتب بفعل بشري، فإنها على الأقل، تترتب قدريا ... وهذا ربما يكفي لتفسير عجزي عن فهم ما يحيط بي !!".[١]

لقد كانت رواية زياد (دار الجيش) شاهدة على تشكيل الكفاح المسلح الفلسطيني، وأصبحت شخصيات (دار الجيش) الفلسطينية اللبنات الأولى في جدار الصد للمحتل الصهيوني، انخرط (يوسف أبو نصرة) في الركب، بعد أن كاشفه (عبد الفتاح) بحقيقة الأمر، "قال الأصفر: لا تذهب بعيدا ولا حتى قريبا .. سأضع لك الأمر في جملة واحدة، هل لديك الرغبة أن تنضم إلينا..؟"[٢].

لم يفكر (يوسف أبو نصرة) بالرد، فالإجابة معلومة؛ يضحى الفلسطينيون بأرواحهم أغلى ما يملكون من أجل استعادة أرضهم، ولكن يعتب لأن مشاورته للانخراط في العمل جاءت متأخرة "قاطعه عبد الفتاح مرة أخرى: يا عزيزي يوسف، لسنا في مجال مبارزة، إن الذي يتقدم هو من يعطي بلا حدود، يتجاهل روحه ويمضي إلى أهدافه بتصميم لا يفله الحديد"[٣].

يبدأ (يوسف أبو نصرة) بعمله الكفاحي المسلح الجديد بلا سأم أو ملل، فهو عاشق اقترن بقضيته، وحرص على إرضائها، وأصبح مطيعا للأوامر التنظيمية، ومسؤولا عن (محمود الشيص)، وقد تخلى عن بعض الصفات التي كان يفاخر بها من علم بكافة الأمور، وابتعد عن دس أنفه في القضايا التي تعنيه، أو التي لا تعنيه "يا صديقي يوسف أنت الآن على وشك المضي إلى الأحمدي

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٥٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٠١.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٠٢.

لتتسلم عملك الجديد ... ولقد تقرر أن تكون منطقة الأحمدي ومحيطها مجالك الحيوي. هناك سوف تعمل، وتستقطب أعضاءً جددا"[١].

أراد الروائي أن يعلن انتهاء مرحلة البناء والتأسيس، فالجميع انخرط في أعماله، وعرف مسؤولياته، ووقف على واجباته، فالجميع غادر دار الجيش إما لمدن أو مواقع داخل الكويت، أو خارجها، منهم من استجلب عائلته من فلسطين المحتلة، أو حصل على بيت أو زوجة جديدة، أو استقل بحياته الخاصة المرتكزة على كرامة العيش، والعمل من أجل استرداد الأرض، وتحرير فلسطين، وكأن هذه الدار كانت خلية النحل الأولى التي أنتجت ووزعت الخلايا الجديدة "آخر المغادرين دار الجيش كان يوسف أبو نصرة .. سبقه الخال أبو محمود الذي أحضر عائلته من شويكة..."[٢].

نزار الأصفر

(نزار الأصفر) الأخ الأصغر (لعبد الفتاح)، ويتشاطر معه جزءا من بطولة أحداث (دار الجيش)، يمثل (نزار) جيلا جديدا يختلف ثقافة وفكرا عن الجيل الذي عاش تفاصيل النكبة،تلقى قدرا أكبر من التعليم وصل به إلى المرحلة المتوسطة، عاش مرارة مخيمات اللجوء، وصل إلى (دار الجيش) ضيفا، بعد أن تم التعاقد معه من الضفة الغربية للعمل مدرسا في مدارس الكويت، حصل على تأشيرة دخول من السفارة البريطانية – كانت الكويت تحت الانتداب– وتذكرة ذهاب بالطائرة.

"القادم الجديد كان في العشرين من عمره، ومتخرج في المدرسة الثانوية في نابلس وكلية المعلمين في رام الله. مر بدار الجيش ضيفا لثلاثة أيام، ما لبث بعدها أن استكمل إجراءات تعيينه فانتقل إلى مسكن مستقل قريب من المدرسة التي تم تعيينه فيها".[٣]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٣١ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٧ .

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٩٩.

يستمع إلى الأحاديث التي تدور في دار الجيش، محاولا تجميع أكبر قدر من النصائح من تجارب من سبقوه في الكويت ممن هم أكبر منه سنا، ولكنه يصطدم بواقعهم حيث النصائح بعدم التطرق إلى أحاديث سياسية تؤدي بهم إلى خارج أرض الكويت، وخسارة فرص عملهم، وبذلك يضحون بقوت أطفالهم، تفجر (نزار) غضبا، كيف وقد ذاق عذاب الحرمان من وطنه وأرضه "كأنك يا عزيزي أبو نصرة تطلب من أن ننسى أو نسلم. منذ متى كان الحديث في الوطن سياسة، وماذا يضر بالكويت؟ إنك لتعلم أكثر مني، بأننا فقدنا كل شيء، ولم تبق لنا سوى الذاكرة، علينا أن نلمعها صباح مساء، وعليكم أنت في الأساس أن تحفروا الذكريات في عقول أطفالكم وأرواحهم! لا أحد يحررنا، أو يقاتل نيابة عنا"[١].

لقد تخلى (نزار الأصفر) عما لا يغني وما لا يسمن من جوع، وقرر الاحتفاظ لنفسه بما يقتنع به من ضرورة إعمال الروح والفكر من أجل وطنه.

كان (نزار) صاحب حس مرهف، تستوقفه اللحظات الراقية، غاص في التراث الكويتي، محاولا الحصول على سر التناغم بين الصحراء والبحر، والتناسق بين الحفاظ على العادات والتقاليد الكويتية الأصيلة، والتربع على عرش النهضة العمرانية والثقافية، أدرك أنه أمام نهضة مبنية على أسس منظمة، فاستقدموا ما يعينهم على البناء والصعود، حرصوا على تدريس أبنائهم الفنون بجانب العلوم الأخرى "كان نزار فنانا تشكيليا قبل أن يمضي إلى دار المعلمين ليتخصص في تدريس الرسم. لم يخطط لذلك، ساقته المصادفات إلى رام الله بعد أن كان يحلم بايطاليا موطن ليناردو دافنشي، ومايكل أنجلو، يصقل عبر أكاديميات الفنون فيها موهبته، ظل الحلم حبيس صدره، وحسرة روحه"[٢].

يعتقد (نزار) أنه مُغتصَب، مسروق، مظلوم، فقد سرق منه الحلم الأغلى، والطموح الأعظم، فبعد أن أصبحت عائلته فقيرة ومهجرة، لم يستطع أن يدخل دائرة الإبداع الفني، التي اعتقد بها، ولا يكون التمييز إلا بموطن الفن إيطاليا.

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٠٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١١٠.

حاول الراوي إعطاء شخصية (نزار) الشكل المتحرر عقلا وروحا وجسدا، تحرر(نزار) الممثل للجيل القادم من الخوف وطرق باب السياسة، والتصريح علنا بما يجول في خاطره، وتهيأت الظروف (لنزار) فقد خرج من دائرته المكانية الصغيرة قرية (شويكة)[١]، ليلتحق بالكلية المتوسطة في مدينة (نابلس)، فقد توسع أفقه، وجالت عيونه داخل مجتمع جديد، تتداخل فيه تعقيدات الثقافات واختلافها، بدءا بالمدرس المصري، وليس انتهاء (برجاء) الفتاة التي أُعجبت به ودعته، إلى بيتها، وبادرت بتقبيله.

"ولقد اختار نزار المدرسة التجريدية هدفا ومنهجا. فهو يريد التحرر من كل قيد، وسيعمل فرشاته في كل ما يخطر له، يظل يجرب ويجرب حتى تستقر الموهبة وتتخذ طريقا وأسلوبا يشبعه ويرضيه"[٢].

استقر (نزار) في مدينة(النقرة) الكويتية، وعمل مدرسا للفنون في مدرسة القرية، وتصادق مع (مهند الميداني) السوري الجنسية، تمتع بحسن خلق صنع منه صديقا للجميع، أعجب (بأبي يعقوب) آذن المدرسة التي يعمل ولده(يعقوب) ناظرا لها. انغمس بفنه، وتمتع بعمله الجديد الذي سيدر عليه مالا يرسله لوطنه وعائلته، ولكن كان له هدفا خفيا، لم يطلع أحدا عليه " في أثناء استعداداته القصوى عندما كان يتأمل ذاته، ويعكف على بناء الشخص الذي أصبح فيما بعد نزار الأصفر، حرص على أن يتسلح بما يكفي من الانتباه والفطنة، وعدم السماح للغفلة من أن تتسلل إليه ولو على سبيل النسيان أو السهو"[٣].

عاني كثيرا، ولعن كثيرا، وأصبح عدوه الأكبر؛ الجهل والحماقة والغباء. رأى ضرورة التسلح بالمكر والدهاء المتوج بالعلم لاسترجاع فلسطين، لا بد أن يستذكر كل يوم أنه مطرود من وطنه، لم ينس كلمات والده، التي لاحقته في نومه ويقظته "كان والده يحدث في مجالسه، عندما كان طفلا بأنهم كانوا سذجا وأغبياء، وكان يطيب له أن يقول في قناعة تامة عندما كان أحد مجالسيه يصحح له: إن الطيبة هبل وسذاجة وسوء حيلة وهذه يمكن تصحيحها، أما الغباء فلا سبيل إلى تفاديه!

---

[١] قرية تابعة لمحافظة طولكرم.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٤٨.

وإنهم لولا كل تلك الصفات ما كانوا وصلوا إلى ما وصلوا إليه. لم يكن والده يكثرت بالمقاطعة، كان يكمل حديثه: أما وأن الأمر أصبح واقعا فإن علينا أن نعلم أولادنا فضيلة الدهاء والحكمة والانتباه. ليس لهم أن يشبوا مثلنا وإلا ضاع ما تبقى.."[١].

يمارس نزار دوره القائم على شحذ الهمم، وتهيئة الأجواء للنهوض بالهمم المثقلة بالخوف من الطرد وخسارة العمل وضياع العائلة، مستذكرا (يازور)[٢] التي خرج منها طفلا وعائلته التي انحدرت دون مستوى الفقر، أعتاد السهر في المقهى المجاور، واعتاد لعب الشطرنج اللعبة التي تحتاج توسيع المدارك وإعمال العقل.

يتعرض صاحب المقهى وعائلته لحادث فاجع أتى عليهم، فأغلق المقهى أبوابه لمدة ثلاثة أيام، يستوقف الحادث (نزار) المغترب، ماذا سيحدث لو وقعت مصيبة أو كارثة لأحدهم، يطرح هذه الأسئلة في دار الجيش، ويستعين بصديقه (مهند الميداني) ليقدم لهم النصيحة الممزوجة بحجة الإقناع "قال هذا صديقي مهند الميداني الدمشقي، يسألني نفس الأسئلة، نسأل بعضنا بعضا، يقول: نحن نملك مرجعية ثابتة ومستقرة، ففي النهاية لنا دمشق وسورية والميدان. أما أنتم فلا مرجعية لكم سوى ما تقدمونه من مرجعية للفكر والتوحد والاندماج، وفي الأساس التذكر والاختزان .. كل هذا جميل بل رائع، ولكن ينبغي أن ينشأ شيء ما"[٣].

لم يكن نزار مجردا من الإحساس والمشاعر، كان إنسانا بفطرة سليمة، يحب ويكره، أحب (رجاء) – زميلته في الكلية المتوسطة– التي بادرته بالنظرات، وإرسال عبارات الحب. حاولت إقناعه بمقدار الحرية والانفتاح الذي تعيشه، شم عطرها، وحلم بجمال عيونها، ثم أعد الخطة ليقابلها في بيت ابنة خالته الواقع في الطرف الشرقي لمدينة نابلس. يتخلى عنها بعد أن حاصرتهم مجموعة من رجال القرية ويهرب، ويتركها أسيرة غضبهم وجنونهم "صام نزار عن الأكل ثلاثة أيام... ولم يكلم الناس خمسة ... وضرب في داخله اكتئاب وركبته مشاعر مدمرة: إحساس بذنب لا يغتفر ولا تحله الأيام .. خذلان وفشل وخيبة أمل، وفوق ذلك كله وقبله انهيار حب كان مرشحا

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،١٤٨-١٤٩.

[٢] إحدى القرى التي هجر منها الفلسطينيين عقب النكبة.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٨٥ .

ليبلغ اكتماله الساحر..."[١]، وبذلك تؤكد الرواية على طبيعة المجتمع الفلسطيني الذي وضع المرأة ضمن هالة من الرفعة، وعلو المكانة، المحفوفة بالحب الممزوج بالخوف من الوقوع في طريق الخطأ.

يحاول الروائي إقناع المتلقي أن الكفاح المسلح لم يكن محصورا في مكان واحد أو في شخوص محدودين، فيدخل في سياق السرد شخصية جديدة ليس لها أي ظهور سوى أنه زميل (نزار الأصفر) في العمل، إنه (خليل الزعيم) الذي يعرض على (نزار) الانضمام إليهم وإقناع صديقه (مهند الميداني) بالعمل العسكري إلى جوار حركته، يفاجأ (نزار) من دراماتيكية الحدث، ولكن "لم يفكر طويلا .. كان قد سمع عن تشكيل حركة تحرير وطني، وكانت النقاشات تدور حامية في الجلسات الخاصة حول تلك الحركة التي تسمع عنها ولا تراها..."[٢].

في كل لحظة حاسمة يتمثل أمام (نزار) الرسالة والهدف الذي يسعى له؛ هدفه خاص المتمثل بالفن والإبداع، ورسالته الوطنية الفلسطينية، لقد تناست روحه الفن ودروبه أمام عظمة الوطن، وإيصال رسالة فلسطين المحتلة إلى كافة أنحاء المعمورة لرفع ظلم المحتل عنها "وقال في روحه الوثابة: نزار الأصفر لا يُخيب ظنه، ولسوف يرى كيف يجدني أهلا للثقة..."[٣].

انخرط نزار بالعمل الثوري، وأصبح أحد أعضاء منظمة التحرر الفلسطيني، التي أعطت لكل دوره الذي ينسجم وطموحه، وتكفلت همومهم العائلية من توفير مال يعين أسرهم على تحدي شظف الحياة، فيقابل المهندس (ولي الدين) العقل المدبر، وقائد هذه الحركة " قال الرجل الغامض الذي استقبله والذي يلقاه أول مرة: أهلا نزار. ظللت على قناعة بأن اسمك الحقيقي هو الأنسب ليكون اسمك الحركي!.. ولكي نقصر مسافة الكلام فإنك مدعو للسفر إلى روما لتقيم هناك. الفلسطينيون في أوروبا كثيرون ... لديهم إمكانات كبرى يجب توظيفها في الإعلام والسياسة والأمن والعلم وكل ما يخطر ولا يخطر على بال"[٤].

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣٦.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٦٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٦٣.

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٦.

ثانيا/ الشخصية المناضلة:

جاء في الصحاح للجوهري "ناضله: أي راماه. يقال: ناضلت فلانا فنضلته، إذا غلبته. وانتضل القوم وتناضلوا، أي رموا للسبق. ومنه قيل: انتضلوا بالكلام والأشعار. وفلان يناضل عن فلان، إذا تكلم عنه بعذره ودفع. وانتضال الابل: رميها بأيديها في السير."[١]

وفي العين "نضل فلان فلانا أي فضله في مراماة فغلبه.وفلان يناضل عن فلان أي تكلم عنه بعذر ودفع. وخرج القوم ينتضلون إذا استبقوا في رمي الأغراض.وفلان نضيلي: وهو الذي يراميه ويسابقه.

والمناضلة: المفاخرة، قال الطرماح:

ملك تدين له الملو ك ولا يجاثيه المناضل

وانتضل القوم: إذا تفاخروا، وقال لبيد:

فانتضلنا وابن سلمى قاعد كعتيق الطير يغضي ويجل"[٢]

النضال مرتبط بالفطرة السليمة المتفقة مع نواميس الكون، فالطفل الصغير يناضل لتسمع والدته احتياجه، ورب الأسرة يناضل لتكوين أسرته وحماية أبنائه وتوفير سبل الحياة لهم، وطالب العلم مناضل يسعى لتحصي المعرفة للارتقاء بذاته، وخدمة دينه ووطنه، هذا النضال الطبيعي المرتبط بالحياة، "الإنسان مخلوق شريف مناضل جميل حين لا يفقد الألفة مع أخوته أو حين لا يموت في قلبه الإنسان"[٣].

وفرض على الشعب الفلسطيني نوع آخر من النضال المرتبط بالتضحية والفداء، فتحول الفلسطيني إلى عاشق للكفاح، بكافة أنواعه: السياسي، والمعنوي، والوطني، والعسكري، ساعيا لتحرير وطنه وبلاده من براثين المستعمر المغتصب للأرض، لقد تشكلت مجموعات الكفاح المسلح

---

[١] الجوهري: الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ١٨٣١/٥.

[٢] الخليل بن أحمد: معجم العين ٢٣/٢ .

[٣] إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ،١٨٥ .

في فلسطين عقب الإحساس بحجم المؤامرة عقب وعد بلفور واستقدام جماعة اليهود، المدعومة من الانتداب البريطاني، ولكن تكتمل خيوط المؤامرة ويخرج الفلسطينيون من أرضهم عقب هجرة عام ١٩٤٨م، "فلولا الضعف الفلسطيني، والخنوع العربي على وجه العموم، لما تمكن الإسرائيليون أن ينالوا منا "[١].

وأصبح الفلسطيني المناضل "الفارس القديم (لأنه يعيش في غير عصر الفروسية)، وهو في النهاية مهزوم، كما أنه هو الملاح الذي مات قبيل الموت حين ودع الأحباب والأصحاب والزمان المكان،عادت إلى قمقمها حياته وانكمشت أعضاؤه رمال ومد جسمه على خط الزوال، وهو سندباد الذي سئم التطواف، والحديث عن المغامرات والأهوال. ليس هذا وحسب، بل أنه لا يمثل حقيقة واحدة تسمى الإنسان، وإنما هو في كل مرحلة غيره في المرحلة الأخرى"[٢].

وزخر الإنتاج الأدبي الفلسطيني بنماذج نضالية تكاد لا تحصى، فقد كان الشعور بالهزيمة والاستسلام المحرك الأسمى لنبوغ الأدب وتطور الأجناس الدبية، "وقد قدمت الرواية الفلسطينية المناضل على عدة صور، فهو تارة يعمل في الكفاح المسلح السري ويدعو إليه، ويعمل في المجال الفكري تارة أخرى، أو في المجال السياسي تارة ثالثة، وقد شكل الكفاح المسلح هاجساً دائماً لكافة الشباب المنخرطين في التنظيمات الموجودة على الساحة، و قد وصل الأمر بالجميع تقريباً إلى حد اعتبار أن الكفاح المسلح الشكل الوحيد للنضال في مواجهة قوات الاحتلال، مما أدى إلى إهمال البنى السياسية والفكرية والتنظيمية لمختلف الأطر، كما أهملت النقابات وغيرها من المؤسسات الخدماتية ظناً منهم أن مثل هذه الأنشطة قد تجعل الحياة في المناطق المحتلة طبيعية"[٣].

---

[١] شمس الدين موسى: مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، السلطة الوطنية الفلسطينية– وزارة الثقافة، ١٩٩٩،ص٩٩-١٠٠ .

[٢] إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ١٨٥ .

[٣] محمد أيوب، الشخصية في الرواية الفلسطينية، ص٥٢.

دار الجيش

المهندس ولي الدين

يركز الراوي على الحدث المرتبط بشخصية المهندس (ولي الدين)، وقد نجح الراوي بإعطائه الغموض المرتبط بالظهور المفاجئ في الأحداث المهمة التي تشكل نقطة تحول في مجريات الأحداث، هيأ هذا الغموض المتلقي للتنبؤ بالدور المنوط بالمهندس العقل المخطط، لتكوين حركة التحرر الوطني، فقد تلقى قدرا أكبر من التعليم، وتمتع بعقلية فذة، وحرص على السرية التامة في تحركاته.

أوجد الراوي علاقة بين المهندس (ولي الدين) ودار الجيش، وجعل له الحجة لدخولها فهو الأخ الأصغر(لصبحي العمري) "دخل عالمهم في دار الجيش وافد جديد. شقيق صبحي العمري الذي أم الكويت مهندسا مدنيا غامضا ومثيرا"[١]، حاول المهندس تحريك الجانب المظلم في نفوس سكان دار الجيش، الجانب المرتبط بالخوف من الحديث في السياسة، وعدم إنكار حب الوطن، وشوقهم إلى تحرير فلسطين، لكن لا يجدهم (المهندس) إلا جماعات من البسطاء الذين تخلوا دون علمهم عن دورهم في تحرير فلسطين من نير المحتل بحرصهم على توفير طعامهم، وخوفهم من مغبة الطرد نحو المجهول "ولي الدين عندما دخل حياتهم، شوشهم وأربكهم وأيقظهم على عالمهم المعادل للعالم السفلي. إنهم يمتازون ببساطتهم ونخوتهم ودفاعهم – حتى الرمق الأخير– عن شرفهم، وعن كل من يتعرض من عصبتهم للأذى... كانوا أنماطا من البشر الشرفاء غامروا بحياتهم حتى التيه في صحاري لا ترحم، وحدود تترصدهم، لا توصد أبوابها في وجودهم وحسب، وإنما تلقي بهم في السجون والمعتقلات، أو تردهم على أعقابهم."[٢]

ارتبط الفلسطيني البسيط المهاجر من أرضه بمفتاح داره، اعتقادا منهم بأن هذه الهجرة أيام قليلة ومن تم سيعودون، يمثل هذا الأنموذج من أصحاب التفكير البسيط الساذج (أبو ليلى) أحد كبار السن في دار الجيش، حرص (أبو ليلى) على تحسس مفتاحه وتفقده يوميا، و لم يعارضه أحد

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٧٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٧٨.

من سكان الدار فهذا مشهد طبيعي لديهم، لكن المهندس (ولي الدين) يحاول سحبهم من ذلك الجانب المظلم، إلى المعقول فيخاطب أبو ليلى: "هل تعتقد بعد كل هذا الوقت سوف تعود إلى أرضك ودارك، هكذا بقدرة قادر؟ أساسا هل تظن أن المفتاح ما زال يفتح! وأنهم لم يغيروا الأقفال؟ هذا إن لم يكونوا قد بدلوا الأبواب أو حتى نسفوا الدار، وأقاموا مكانها دار جديدة؟! هل ما زلت تنتظر يا أبو ليلى،أن تعود، وعلى من تعول؟ هل سألت نفسك أم لم تسأل بعد، من الذي يعيدك بعد كل هذه السنين وكيف تعود؟".[١]

أحاط المهندس(ولي الدين) نفسه بهالة من الضبابية، المنتهية إلى قلة المعلومات المتعلقة به، فلا أحد من السكان يعرف له عنوانا أو مكان إقامة "لم يكن أحد يعرف – حتى صبحي العمري شقيق ولي الدين– عنوانه أو مكان إقامته، وكيف يعيش! هل هو متزوج أم يعاشر امرأة في المستوطنات التي يقطن فيها... لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولكنه يقبل بفنجان شاي صغير عندما تلح في ضيافته!".[٢]

لا يتردد المهندس(ولي الدين) في مساعدة الآخرين وتقديم يد العون لهم، فعندما فر (محمود الشيص) من دار الجيش بعد أن كشف (يوسف أبو نصرة) إدعاءه الكاذب في قضية عمله في دائرة الأشغال، كان المهندس(ولي الدين) حينها منقطعا عن دار الجيش من مدة ليست بالقصيرة، ولكن ظهر للمتشرد(الشيص) من العدم وساعده وقدم له فرصة للمبيت الفاخر والطعام والشراب والسجائر، ويسترجع (الشيص) أحداث تلك الليلة فوق مصطبة دار الجيش عندما أخبره المهندس "أعلم يا صاحبي أنك قضيت وقتا تتساءل فيه عن الثمن الذي عليك أن تدفعه في مقابل هذا الكرم، الذي لا يحمل أسبابا مقنعة..ستعرف فيما بعد وفي الوقت المناسب، أما الآن فأظن أنك محتاج إلى أن تعمل. خذ هذه البطاقة واذهب إلى مساعد مدير مستشفى الصليبخات، فسيجد لك عملا ".[٣]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٧٩ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٨٠.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٧٤.

عندما يعود (الشيص) لشكره لا يجده في نفس العنوان، وعندما يسأل نائب مدير المستشفى عن المهندس الذي سهل له العمل بتوصية ممزوجة ببطاقته، يخبره بأن صاحب البطاقة صديق له اسمه (محمد علي) ولا يعرف أحدا اسمه(ولي الدين) .

تتبت شخصية (المهندس ولي الدين) بلا مقدمات، وتظهر فجأة وفي لحظات خارقة، يوشك فيها الآخرون على الانهيار، مما يجعلهم مستغربين من القدر الذي يسوق المهندس في هذه اللحظات الفاصلة، لقد شكلت هذه الشخصية أشكالا شتى من النضال الذي يسبق النضال العسكري، للنهوض بجماعة مفككة تقتلها الهواجس والخوف من المجهول؛ تتقوقع على ذاتها للنجاة بنفسها، فقد وحد الكلمة وجمع الصف، وهيأ العقول، ونظم الصفوف، قبل إعلان عزمه ونيته تشكيل حركة تحرر وطني فلسطيني.

استخدم (ولي الدين) لغة مكثفة سهلة أقرب إلى عقول المخاطبين الذي تمتعوا بالبساطة والبعد عن التكلف، وتناول الأمور من البعد السطحي، وعدم الإغراق في التفاصيل.

يظهر المهندس مرة أخرى داخل الدار بلا مقدمات، فقد مات (أبو ليلى) بعد ليلة سمر أكل فيها وشرب احتفالا بزواج (صبحي العمري)، اضطرب أهل الدار، ماذا يفعلون؟، هل يجمعوا المال ليرسلوه إلى فلسطين على متن طائرة؟، ما هي الترتيبات الواجب إعدادها؟. وسط حالة التخبط التي عمت دار الجيش يظهر المهندس (ولي الدين) "قال ولي الدين! الذي نبت في دار الجيش مفاجئا بذلك الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه: يدفن أبو ليلى هنا في الكويت .. يا إخوان إكرام الميت دفنه .. لا تعذبوا أهله فينتظرون أياما جثة لا تقدم ولا تؤخر.. لا بد أن يتكاتف الكل، والمبلغ الذي تحدثتم به من أجل نقله إلى بلدته، نجمعه على أية حال ونرسله إلى زوجته وابنته ليلى."[١]

لم يكتف المهندس (ولي الدين) بحل المشكلة، أراد إيصال رسالته الأسمى التي صب كل الجهود من أجلها، فبعد إملاء مقترحه الذي نفذ بلا نقاش قال لسكان الدار محفزا ومهيئا عقولهم

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤٩.

لإعلامهم بأمر حركته "بهذا تكون القضية قد حلت، ولكن السؤال يظل قائما! ماذا تفعلون مع حادثة مشابهة أو حوادث؟ هل فكرنا في أوضاعنا ودققنا؟!".[١]

تتسارع الأحداث، ويصدر الأمر التنظيمي الأول من القيادة التي يمثلها المهندس (ولي الدين)، فلا وقت للفلسطينيين، فيجب استغلال اللحظات وتنظيم الصفوف وتوحيدها من أجل بدء الإجراء الفعلي، والانطلاق نحو التحرر "اسمع يا عبد الفتاح .. أنت مسئول عن هؤلاء الناس جميعا، حتى عن صبحي الذي يخب خلفنا".[٢]

يبدأ المهندس بالعمل الفعلي المنظم المبني على أسس عقلية، وتبدأ حركة التحرر الفلسطيني بالتوسع، بعد إعداد الأفراد المنوي انضمامهم إلى الحركة فكريا واجتماعيا، بل ويلمح إلى العمل العسكري بعد توجيه الأوامر باستقطاب (مهند السوري) المتخصص في المتفجرات أثناء عمله في الجيش السوري "أريد شخصين اثنين، لا يزيد أي منهما عن خمسة وعشرين عاما، يستحسن أن يكونا في العشرين أو الحادية والعشرين..أريدهما بصلابة وإرادة، وبشخصية قادرة على مواجهة الصعاب وذاكرة عنيدة وطازجة".[٣]

يسير الركب، وتنجح شخصية المهندس (ولي الدين) صاحب البناء العقلي العلمي، المتجرد من العواطف في أحكامه المصيرية، والحاسم في قراراته، لقد مثل شخصية مناضلة نجحت في تنفيذ المخطط الذي وضعته، بل تفرع الأمر وأصبح يرسل الأفراد إلى دول أخرى صانعا لهم الغطاء الذي يحافظ عل السرية، فأرسل (نزار الأصفر) إلى روما تحت الغطاء الفني لاستقطاب أفراد جدد، كما أعاد (محمود الشيص) إلى (طولكرم) داخل الأراضي المحتلة تحت غطاء تجاري، كما كلف (يوسف أبو نصرة) بالانتقال إلى الأحمدي، ويعلن الرؤية العامة لحركة التحرر الوطني "الأمر بالنسبة لنا لا يتعلق بكفاح مسلح وحسب، وإنما بنهوض عام يصيب كل الفلسطينيين. المسائل لا تنفصل ولا تتجزأ. علينا الاهتمام بالصغيرة والكبيرة في كل مكان".[٤]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٥٠.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٥١.

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٧.

عبد الفتاح الأصفر

تعتبر شخصية (عبد الفتاح الأصفر) من الشخصيات النامية وهي الشخصية التي لا تمتاز بالثبات على طول النص الروائي بل تخضع لتغيرات مستمرة مع تصاعد الحبكة وهي التي " تنمو وتتطور بتفاعلها مع الأحداث سواء أكان هذا التفاعل ظاهراً أم خفياً، وأنها الاستثناء الدائم الذي يحطم العادة أو تتحطم من أجلها العادة "[١]، وغالباً ما تكون "مرتبطة بالظرف الحياتي، وتتميز بقدرتها على التطور مع تاريخ وأسلوب الأحداث "[٢] بمعنى أنها " تتطور من موقف إلى موقف بحيث تتطور الأحداث ولا يكتمل تكوينها حتى تكتمل القصة وتتكشف ملامحها شيئاً فشيئاً خلال الرواية أو السرد، أو الوصف، وتتطور تدريجياً خلال تطور القصة وتأثير الأحداث فيها أو الظروف الاجتماعية"[٣]، وهذا ما يجعل منها شخصية مقنعة في الرواية بفضل تطورها التدريجي ووضوح أفعالها وتصرفاتها التي لا تقدم دفعة واحدة بل تقدم متطورة مع سياق الحدث العام للرواية؛ فهي مؤثرة ومتأثرة على حد سواء وكل ذلك يؤكد اتسامها بالطابع الدرامي .

تتفاعل شخصية (عبد الفتاح) مع الحدث بشكل إيجابي، فقد حمل هم الأسرة المُهجرة، التي خرجت من ديارها خالية الوفاض عقب النكبة التي حلت بالفلسطينيين، ويمثل جيلا منفتحا على الواقع بصورة أكبر من الجيل الذي سبقه (أبو ليلى – الخال أبو محمود) لم يحمل المفتاح، ولم يدس الجنيهات الفلسطينية في مخدة الدار لحين العودة، تمتع بخبرة أكبر في مجال الحياة، لم يشر الراوي إلى مستواه التعليمي، ولكن كان على قدر من المعرفة أتاح له التنقل في عدد من الأعمال داخل الكويت، فقد وضعه (أبو نصرة) في خانة الملتزمين في دفتر الدار، حيث أنه قادر على العمل، وسدد ما عليه بانتظام. وكان أحد شركاء ثلاثة في سرير من أسرة الدار، لم يكن يعرف الاستقرار، وقد كانت آخر وظيفة التزم بها (عبد الفتاح) هي موزع أغذية للطلاب في مدارسهم، كان يحمل لهم البيض والحليب والساندوشات والفاكهة، وبعد ساعتين يبدأ دورة جديدة يجمع ما زاد من طعام.

---

[١] أدوين موير: بناء الرواية ، ترجمة : إبراهيم الصيرفي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ،١٣٩.

[٢] مصطفى اجماهيري: الشخصية في القصة القصيرة، الموقف الأدبي ، ص١٢٧ .

[٣] أحمد شريبط : تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧-١٩٨٥) ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٩٨، ٣٤ .

أحب (عبد الفتاح) عمله هذا وحرص عليه بصورة كبيرة تخوله للاستمرار، فقد شعر بمدى الجوع الذي يعانيه سكان الدار جراء الفقر وعدم عمل الآخرين، وتفضيل بعضهم الجوع ليرسل بعض المال لعائلته في القرى الفلسطينية، لقد ولى (عبد الفتاح) نفسه أباً لهؤلاء الجياع، وقد جمعت بينهم الغربة، والهم المشترك، والأرض الضائعة " كثير من الطلاب لا يحبون البيض، آخرون أو أخريات ينفرن من الحليب. آخرون كانوا لا يستسيغون الفاكهة أو الجبن! كان ما يعود به الأصفر حمولة ثمينة، يذهب إلى دار الجيش قبل أن يرجع بالصناديق فارغة إلى إدارة المطاعم المدرسية"[١].

شعر (عبد الفتاح) بدوره النضالي المتصل بالأرض وأهلها من أول لحظة؛ فبعد أن حرص على توفير الطعام للفقراء؛ أحس بشعور (أبو ليلى) وألمه، فقام بالبحث عن وظيفة له "لذلك بكى أبو ليلى ذلك البكاء الحارق حين أبلغه الأصفر أنه أصبح مزارعا وبستانيا، موظفا في التربية والتعليم"[٢].

لقد كان صديقا وفياً للجميع في دار الجيش: الوافدين أو المقيمين، العاملين أو العاطلين مرض (عبد الفتاح) أعتقد أنه مرضٌ عابر برد أو زكام وسرعان ما يزول، لكن اشتد مرضه ومحنته وأكتشف أن ما أصابه التهاب رئوي سيمنعه من استمرار عمله في دائرة المطاعم المدرسية، أنقطع عبد الفتاح عن عمله فجاع من في الدار "لم يدرك الأصفر كم هو مهم و ضروري إلا عندما مرض..أحس بهم جميعا وهم يتضورون أمامه ولا يملك لهم حلا، ولم يدركوا هم ما يعنيه بالنسبة لهم إلا عندما افتقدوه"[٣].

(عبد الفتاح) شخصية تحب الآخرين، ويبادلها الآخرون ذات الشعور، يحاول مساعدة الضعفاء والفقراء بشتى الصور التي يقدر عليها، يقف في وجه (يوسف أبو نصرة) إذا شرع في التهكم أو النيل من الآخرين، وعندما أدعى (محمود الشيص) العمل، بارك (عبد الفتاح) هذه الخطوة، وشرع في إقراضه المال والسجائر لحين الحصول على راتبه الشهري، وتحدى به الآخرين

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٥ .

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ٤١.

"يا يوسف لماذا تكسر مجاذيف الشيص. لماذا تستبعد أن يكون الشيص اشتغل، هل الشغل أمر عبقري واستثنائي، كلنا جئنا إلى الكويت لنعمل. لم نقطع آلاف الأميال لكي نعيش هذه العيشة النكدة، بلا إنتاج ولا عمل نعيل به أهلنا. يا يوسف خليك محضر خير، الشيص اشتغل وعليك أن تأخذ بيده وتشجعه، لا أن تحبطه"[١].

كان (عبد الفتاح) من المؤيدين لمشروع (صالح أبو سمكة) في مشروع بيع السمك، وقرر له روبية على كل قطعة سمك يأكلها، وسانده في بيع وجباته، ودعمه إلى أن فتح مطعما خاصا لبيع الأسماك، وصدق أيضا (عبد الكريم سمارة) عندما ادعى العمل. لم يكن (الأصفر الكبير) ساذجا، ولكنه حرص على عدم جرح مشاعر سكان دار الجيش، كيف يكون هو والاحتلال والفقر والظروف الصعبة سببا للنيل من صمودهم؟!

(عبد الفتاح) الشخصية الوحيدة التي لم يتح الروائي (ليوسف أبو نصرة) النيل منها، ناضل كثيراً بسكان الدار، حرص على توفير طعامهم، وتقاسم همومهم وأحزانهم، وساند الآخرين، ولم يتخل عن أحدهم "ظل عبد الفتاح الأصفر الأول على سكان دار الجيش الوافدين إلى الكويت الشرعيين وغير الشرعيين، كان أصغر سنا من يوسف أبو نصرة، غير أن يوسف لم يغفل ذات لحظة أن الأصفر الكبير يكاد يكون عميدهم، وأن ذلك امتياز يمنحه حق القرار، ووضع اللمسة أو الكلمة الأخير"[٢].

أعجب المهندس (ولي الدين) بعد زياراته لدار الجيش بشخصية (عبد الفتاح) وكاشفه بقضية تشكيل حركة تحرر وطني من أول أمره، وربما كان حلقة الوصل الخفية بين الدار والمهندس. فالمصادفة في ظهور المهندس في الدار عقب حادثة موت (أبو ليلى)، والقدر الذي رتب اللقاء بين (الشيص) عقب خروجه من الدار في رحلة نحو الضياع و(المهندس) هو (عبد الفتاح الأصفر) الذي كان له دور في تكوين حركة التحرر الوطني الفلسطيني.

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٥١.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٨٢.

في نهاية أحداث دار الجيش يظهر الدور الرئيس لشخصية (عبد الفتاح) فهو ذراع أساسي في حركة التحرر، ويكاشف (يوسف أبو نصرة) بالحقيقة "لا تذهب بعيدا ولا حتى قريبا .. سأضع لك الأمر في جملة واحدة، هل لديك الرغبة في أن تنضم إلينا..؟"[١]، ويضطلع أيضا بتجنيد أفراد جدد للعمل بجانبهم مع الحفاظ على السرية التامة.

تدرج (عبد الفتاح) في العمل النضالي، وأصبح مسئولا ومساعدا للمهندس (ولي الدين) في رسم الخطط، وإسناد المهام وتوزيعها على الآخرين، مستخدماً الخطاب المباشر المتسم بالبساطة والصدق المدلل على الإخلاص في العمل، فيكلف (الشيص) بمهمة داخل فلسطين "جميل جدا .. ستمكث ثلاثة أشهر، وقبل ذلك بوقت كاف يبلغك أبو نصرة بما عليك أن تفعله .. أعلم أن لديك أسئلة أخرى ولكنك تخجل من طرحها، بخاصة فيما يتعلق بمساهمتك في إعالة العائلة .. سيقرر لك يوسف حلا للمشكلة، وسنتولى الالتزام بما يقرره.."[٢].

المعبر

محمود عبد الدايم

هو أحد الرجال الفلسطينيين الذين قرروا الحياة بعيدا عن السياسة وجولاتها، والتضحية وفدائها، كيف لا وهو الولد الوحيد لوالديه بالإضافة إلى سبع بنات. اهتمت به أمه اهتماما بالغا، وجعلته يعيش بعيدا عن معتركات الحجارة، والمواجهات مع قوات المحتل الصهيوني، سخَّر حياته من أجل أسرته الصغيرة والدته التي كانت ترى الدنيا من خلال نور عينيه، تميز بالاستقامة والبعد عن المشاكل والعزوف عن القلاقل، عمل سائقاً لأحد الباصات داخل الحدود المحتلة "خمسة عشر عاماً وهو يعمل سائقاً لدى إحدى الشركات الكبرى لنقل الركاب. أتوبيسات عملاقة ومتوسطة. ومن كافة الأحجام. كان مضرب المثل لدى المسؤولين في الشركة فلم يسجل طوال السنوات مخالفة

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٠١.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٣٠ .

واحدة، أو حتى حادثاً بسيطاً، وكان صديقا للجميع، لم يلتفت للسياسة أو يشارك في مظاهرة أو انتفاضة، ولم يظهر عليه أي اهتمام آخر، غير اهتمامه بأسرته الصغيرة"[١].

عاش (محمود عبد الدايم) حياة بسيطة، أحبها بعمق كبير، لم يرد أي منغص يؤدي إلى إدخال القلق إلى طبيعته البسيطة، يعمل طوال الأسبوع بلا كلل أو ملل، ويغتنم فرصة يوم السبت حيث العطلة الرسمية لدى الكيان الغاصب، ليستريح من عناء العمل أو يجد فرصة لنزهة، أو مداعبة أطفاله، لقد عشق الحياة كما عشقها أي فلسطيني، ورسم الأحلام الوردية لعيشة هنية.

يهاتفه أحد الأصدقاء،ويدعوه إلى نزهة، بعد أسبوع عمل مضنٍ. يقرر الذهاب إلى حقل صديقه في منطقة شرق غزة، ركب سيارته الصغيرة، وانطلق من الشيخ رضوان[٢]إلى وجهته المقصودة من خلال المرور عبر شارع صلاح الدين فمثلث نتساريم[٣]، كان يعيش أروع الأوقات وترك المجال لمذياع سيارته ليطربه بأغنية تراثية تقول:

"قالت لي بريدك يا ولد عمي

تع ذوق العسل سايل على فمي

على مهلك عليّ ما بحمل الضمّي

على مهلك عليّ دنا حيلة أبوي وأمي"[٤]

يصل (محمود عبد الدايم) منطقة مفترق نتساريم التي كثيرا ما أخافت الفلسطينيين، وتركت فيهم جرحا غائراً، فعليه استشهد الأطفال والرجال والنساء، وعليه أُغتيل (محمد الدرة) الشهيد الفلسطيني الذي سرقته رصاصات الغدر من يد والده، ولمحمود أيضا كانت حكاية: "أوقف

---

[١] زياد عبد الفتاح:المعبر، مؤسسة دار الهلال، العدد ٦٤١، القاهرة، مصر، مايو ٢٠٠٢م، ١٠٧.

[٢] أحد أحياء مدينة غزة.

[٣] مستوطنة قطعت قطاع غزة من منتصفه وسلبت جزءا كبيرا من أراضيه، اندحرت منها القوات الصهيونية في عام ٢٠٠٥م.

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٦٢.

الأوتوبيانكا[١]،وأشرع نوافذها للصوت والريح. ضرب في داخله رعب زلزل روحه. الرصاص لا يصيب السيارة، وإنما يتجول حولها دون أن يلسعها. أدرك أن الموقف لا يحتمل خطأ أو مزاحا. فكر كيف يتصرف وبسرعة، فكل دقيقة تحمل موتا أو تؤدي إلى نجاة. لم يطل به الوقت، نزل من السيارة رافعا يديه، مشرعتين في اتساع لم تبلغه من قبل...استمر الرصاص منهمرا ... تعامل مع الموقف بجدية كاملة، أنزل يديه فك أزرار القميص وراح يخلعه قبل أن يتمكن الرصاص من التصرف، وعاد إلى رفع اليدين، لم يتوقف الرصاص... حتى كاد يخترق المجال المغناطيسي لأذنيه، فيكاد يصيب شحمتيها. جن جنونه فهبط بيديه إلى سرواله، وفي لمحة خاطفة كان السروال فيها خارج المشهد....لم يبق سوى لباسه الأخير"[٢].

اشتدت أزمته ولا زال الرصاص يلسع قفاه، كان الجنود يتهامسون، هل نقتله؟، أم هو تافه لا يستحق الموت؟، أم يتركوه لخوفه الذي سيقتله بعد هذا المشهد القاتل؟، لقد تسلى الجنود الصهاينة على الإنسان الفلسطيني، وأراد الروائي أن يثبت للعالم أن الصهاينة هم من يقتلون ويعذبون، لا يفرقون بين مقاتل ومسالم، ولا رجل وامرأة، ولا طفل صغير. لقد سجل (محمود عبد الدايم) في دفاتر أجهزة الأمن الصهيونية مثالاً للتعاون والانضباط والبعد عن السياسة والتخريب، رغم ذلك أصبح ضحية لتصرفاتهم الرعناء التي لا يقوم بها إلا محتل غاصب، مصيره إلى زوال.

سكت الرصاص، وقرر(محمود عبد الدايم) العودة من حيث أتى، لم يعد يشغله الغداء، ونسي أمر النزهة وأصدقاءه الذين ينتظرون "عندما وصل داره في الشيخ رضوان كان حاله يصعب على الكافر. وجهه أصفر في لون باهت، وركبتاه تصطكان ولا تكاد تحملانه..لم ينبس بكلمة واحدة، فلم يكن يملك قدرة على وصف، أو إعادة تمثيل مشهد يطل الرعب من كل خيط فيه"[٣].

تخلت شخصية (محمود) البسيطة عن براءاتها بعدما استبيحت كرامتها، وأصبحت أكثر تفاعلاً مع الحدث، وحاولت دفع الظلم الذي بدأ يدخل دائرتها القريبة، فلن يستطيع الفلسطيني نسيان أرضه وعرضه، ولا يستطيع بأية حال إنكار كرامته التي يحاول المحتل الصهيوني سلبها.

---

[١] نوع من السيارات، تتميز بصغر حجمها.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٦٤.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٦٦.

عامل ثاني، طور شخصية (محمود) ودفعها للانتقام، في تطور سريع وإيجابي في طريقة تفسير الواقع وفهمه، فعند مفترق نتساريم اقتربت الرصاصات من مجاله المغنطيسي ولسعت أذنيه، ولكنها تركته يعود من حيث أتى، هذه المرة يدخل الموت والاغتيال أرجاء داره ويستهدف عزيزاً عليه "في ذلك اليوم نهض محمود عبد الدايم عند الفجر، كي يلحق بعمله. كان يوم أسى طويلا ومشحونا بالحسرة والفقد. ذهب الصاروخ بمنزل شقيقته فأتى عليه وعلى جميع من فيه باستثناء طفل رضيع. شيّع في آن معا بعد صلاة الظهر شقيقته وزوجها وفتى في العاشرة وفتاة في الخامسة. بكى طويلا وحمد الله واستغفره، وأوصى زوجته بالرضيع خيرا فهو كل ما تبقى من العائلة الحبيبة"[١].

نجح الروائي (زياد عبد الفتاح) في تحويل المعاناة والألم الفلسطيني إلى رواية أدبية تقحم المتلقي بفصاحة لغتها ودقة معانيها إلى عالم الشخصيات، فيصبح المتلقي جزءاً لا ينفصل عن الوقائع، ويحاول هذا المتلقي الدخول ضمن عالم (المعبر) لملامسته التجربة الشعورية، والحقد الدفين الذي يخرج من زفرات وآهات السطور نحو العدو الصهيوني ، وتمييز في إيصال رسالتنا –نحن الفلسطينيون– لقد عشقنا الحياة، وأرادنا التمتع بكل دقيقة منها، لكن لم تتركونا نتنفس رحيق الحرية، قتلتم أطفالنا وذبحتم شيوخنا وحولتم قطاع غزة إلى سجن كبير مفتاحه بيد المحتل الصهيوني الغاصب.

يسير(محمود) نحو عمله، حاملاً في جعبته تحولاً نحو التضحية والفداء، مستحضراً صورة أشلاء عائلة أخته وزوجها وأطفالها الشهداء، ولا ينسى الطفل الرضيع الذي نجا من العائلة الذي سيعيش يتيماً دون والدين، ولا ينسى المشهد المرعب على مفترق نتساريم، لقد تحول (محمود عبد الدايم) إلى قنبلة انفجرت في وجه المحتل "أمامه على بعد مائة متر محطة انتظار للجنود، يقفون باسترخاء وملل وهم مدججون بأسلحتهم الرشاشة. بعضهم ينتظر الحافلات، وبعضهم مستعجل يشير إلى أية سيارة تنقله. راحت الصورة تتطابق مع الصورة. حضره الجنود وهم يطلقون عليه النار ويبتسمون، وحضرته المروحيات وهي تتوسد هواء البحر، تتوقف لتقصف وتشيع الموت، وتسقط صواريخها على رؤوس أهله وأحبته. أحس بالوحدة والوحشة والوجع والإحباط، إحباط غاص فيه

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٧.

عميقا وأفقده كل قدرة على السيطرة. دار عقله، طار صوابه هبط بكل ثقله على دواسة البنزين، فانطلق الأتوبيس بأقصى سرعته، وعند المحطة انحرف مهاجما الجنود! هل كان ما فعله صوابا؟ سؤال ظل معلقاً ينتظر إجابة لا تأتي"[١].

ثالثا/ الشخصية المقهورة:

"الله القاهر القهار. يقال: أخذهم قهرا، أي: من غير رضاهم، والقهر: الغلبة، والأخذ من فوق"[٢].

الشخصية المقهورة تعاني في العادة من اضطرابات نفسية متفاوتة الحدة حيث تعتمد حدتها على الشخصية الأساسية للمقهور ومدى تحمله وصلابته، هذه الاضطرابات النفسية قد تصل في البعض إلى الاكتئاب أو حتى إلى الاختلاط الذهني والغضب العارم بحيث لا يمكن السيطرة على انفعالات النفس ومطالبها.

والشخصية المقهورة حديثة الظهور نسبيا في الأعمال الأدبية الروائية، وارتبط ظهورها في الأعمال الفلسطينية، عقب الإحساس بحجم المؤامرة التي وقع فيها الفلسطينيون البسطاء فأصبح الظلم شعوراً يتقاسمه الجميع، فالمأساة جماعية، والألم لم يقتصر على فرد دون آخر، لذلك فالإنسان المقهور لا يختلف عن الآخرين، فيكون مثقفاً وواعياً ومحباً لوطنه، لديه الرغبة بتحسين وضعه والتفاعل مع المكونات الاجتماعية الأخرى، لكن المفارقة تكمن في اصطدامه بالواقع وعدم قدرته على التغيير، ويصبح في حالة يرثى لها من مجابهة النفس، أو الوقوف في وجه الهجمات السلبية التي تمارس ضده، قد يكون سبب هذا القهر خَلقيا لعاهة جسدية ولد معها المقهور فأصبح أسير لها، ولم يتغلب عليها، وأعتقد أن نظرات الآخرين له نابعة من احتقاره، أو الحزن على ما هو فيه، وقد يكون سبب هذا القهر خُلقيا مرتبطا بالنفس، كعدم القدرة على النجاح، أو ضياع فرص العمل منه، أو الفقر الذي يحول هذه الشخصية إلى متسولة، أو قد يضطر إلى النصب والاحتيال في سبيل رسم الصورة الأكمل لذاته في عينيه، أو في عيون جماعة أخرى.

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٩.

[٢] الخليل بن أحمد: معجم العين ١٢٧/٢ .

يعيش هذا المقهور في حالة من الخوف والترقب، فلا هو حر يستطيع أن يفعل ما يريد، ولا هو معاقب، ويشعر هذا المقهور بأنه مراقب في تصرفاته وحركاته وسكناته، إن أكل مع الآخرين؛ فإن عيونه تراقبهم خوفا من أن يترصده أحدهم، وإن أراد أن يبدئ ما يدور في نفسه صمت خوفا من افتراسه.

يكون مصير المقهور في غالب الأعمال الأدبية مأساوياً، فقد يرتد على عقبيه ويهرب بلا عودة، ولا يعرف أحد له مكان، ولا يحاول الاتصال بجماعته، وقد يسير في طريق الضياع والانجراف نحو الموبقات والعادات السلبية، فقد يتحول إلى سارق، أو مختلس، أو مجرم، وقد يتعدى الأمر بالهروب من الواقع إلى طريق إدمان الخمور والمخدرات.

لكن الشخصية المقهورة في أعمال (زياد عبد الفتاح) الروائية، خالفت الاعتقاد المسيطر عند علماء النفس، والمشتغلين في النقد.

ففي رواية (دار الجيش) تفاعلت شخصية (الشيص) مع الحدث وباقي الشخصيات طوال السرد، بشكل يدل على سلبيتها، وفي نهاية الخطاب السردي يتطرق الراوي إلى حدث فيصلي ينفي هذه السلبية بتحول الحدث لإثبات إيجابية الشخصية المقهورة، ونجاحها في التغلب على مخاوفها الذاتية وانطلاقها نحو النجاح.

دار الجيش

محمود الشيص

إحدى شخصيات دار الجيش، التي كان لها دور رائد في إمتاع المتلقي، لقدرة الراوي على الإقناع وتقديم الأدلة على ما يقول، لقد نجح الراوي في جذب المتلقي إلى داخل أحداثه، وشعر المتلقي بحقيقة هذه الشخصية الورقية المصنوعة في مساحة التخيل الخاصة (بزياد عبد الفتاح)، فهو فلسطيني آخر قادم للعمل، طامحاً للنجاح، ولكنه صدم بواقع نال منه، وكتب عليه القمع

والعذاب "محمود الشيص، أو محمود محمد محمود قبل أن يستقر لقب الشيص فيه، ذو وجه متسع تطل منه عينان سوداوان تغزلان بريقا يشع فطنة وبهما حول ظاهر"[١].

شكلت الظرف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المبنية على التناقض العامل الأكبر في ظهور شخصية (محمود الشيص) المقهورة في سياق رواية دار الجيش، ويلحظ الباحث أن هذا التناقض ينبع من محاور أربع:

- العامل الاقتصادي: فهو فقير لا يعمل مع أنه موجود في بلد النهضة والعمران "كان الشيص أحد السكان الملتبسين في دار الجيش. سجله يوسف أبو نصرة في يوميات دفتر الدار، بأنه خارج كل أمل أو توقع، فاستقر في خانة الديون الهالكة أو المعدومة، فلا يدفع ولن يدفع في يوم من الأيام"[٢].

- العامل الاجتماعي: شكل وجود الخال – والد محمود الشيص– في دار الجيش، سببا جديدا عزز شعور (محمود الشيص) بالقهر، فالعائلة والأب بالتحديد يشكل درعا حاميا لولده، ولا يتركه يسير نحو المجهول. كان والده بظروف مالية أفضل، ولديه عمل جيد، وراتب منتظم، رغم ذلك ترك (الشيص) يسير نحو قدره دون أن يقدم له الدعم اللازم "لم يكن محمود الشيص وحده في دار الجيش وإنما كان والده يسكن الدار نفسها..له سرير ومكان في الحجرة الوسطى الرحبة،وكان يعمل ويتلقى راتبا منتظما، لكنه لم يكن يلتفت إلى الشيص. ظل يحسبها..لو أنه يعين الشيص لافتقر كلاهما معا، ولما وجد ما يرسله إلى القبيلة الصاعدة في القرية..قلبه يتألم من أجل الشيص، ولكن عقله يعمل ببرود"[٣].

- العامل السياسي: فعلت الشعارات الكاذبة فعلها بالشيص، فعائلته هجرت إلى أراضي الضفة الغربية، وأصبحوا بلا مال أو مأوى بعد أن عاشوا برغد وكرامة، الأدهى من ذلك اصطدام الفلسطيني بواقع مرير فأصبح يحمي عدوه بدلا من أن

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٩.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٤٦.

يحمي نفسه، فبعد أن تجند الفلسطينيون في الجيش العربي المُلقى عليه أمل تحرير فلسطين، اكتشفوا أنّ "العرب كلهم انهزموا، أو قدموا مسرحية باهتة رديئة لحرب خططت لهم ولم يخوضوها...طال انتظارهم، والأمل المقهور راح يتقهقر، والخوف من المجهول ينمو مثل غول"[١].

- عقدة النقص: عانى (الشيص) من هذه العقدة أو العاهة الجسدية في شكله الخارجي، التي يعزى إليها عدم توفيقه في الحصول على عمل، فقد كان دائم النظر إلى نفسه، ومقارنة حاله بالآخرين الأسوياء الذين لا عيب فيهم، فقد كان بحول ظاهر، إضافة إلى عرج واضح للعيان، وكان دميم المنظر كما يصفه الراوي " قال يوسف أبو نصرة، الذي يعرف الشيص وأهله وذويه، لعبد الفتاح الأصفر: لا تكن أحمق وحاول أن تفهم الشيص أحول بالثلاثة، إنك تعرف أخته تلك التي هام بها علي الزيبق حبا، ملك عليه حياته! أنت نفسك نصحته... فكيف يا عبد الفتاح يكون أخوها الأكثر قبحا ودمامة وحولا"[٢].

ظل (الشيص) يعاني الحرمان، فلا طعام بعد مرض (عبد الفتاح الأصفر)، ولا سجائر تطفئ نار ولعه وشوقه إلى النيكوتين الذي يسري بدمه، ولا فرصة للنوم في سرير يتناوب عليه ثلاثة ممن يعملون ويدفعون، والهم الأكبر الخوف الذي يسكنه ويكبر داخله يوما بعد يوم من أن القادم سيكون أسوأ عليه "طال القهر بالشيص حتى حدود الأذى الجسدي! لا طعام ولا سجائر، ولا فرصة نوم سانحة أو مؤكدة..فكر في الانتحار، لكنه جبن وتراجع في آخر اللحظات. جاب أرض الكويت مربعا مربعا، وعرض نفسه على أعمال عديدة، حتى الوضيعة منها، ولم يحالفه الحظ"[٣].

يهرب (محمود الشيص) إلى الوهم والكذب للتهرب من واقعه الفقير وعدم قدرته على العمل وجمع المال، فاخترع مسرحية بائسة ادعى من خلالها الحصول على عمل في سنترال دائرة الأشغال العامة. فقد صادق سائق الشاحنة التي توصل العمال والمهندسين إلى عملهم، وأقنعه بأن

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٣٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٤٧.

يأتي لأخذه من الدار. صدق الجميع (الشيص) وباركوا له بمن فيهم والده، الذي أقرضه خمس روبيات[١]، وتبرع له بالنوم على سريره لكي يستيقظ مبكرا إلى عمله، إلا أن (يوسف أبو نصرة) يصر على كذب (الشيص) "قال يوسف أبو نصرة ذات ليلة من ليالي السمر فوق مصطبة الجيش... مثلما توقعت تماما، ومنذ البداية! قلت لكم إن الشيص لم يعمل وأنه يكذب كما يتنفس ولكنكم لم تنصتوا. إنكم جميعا أغبياء ومغفلون، شهر ونصف وهو يضحك على ذقونكم وأنتم تصدقون"[٢]، ويسوق لهم الدليل على ما يقول من حديثه مع سائق الشاحنة التي تقل (الشيص) "سألته إذا كان صاحبه يعمل لديهم. فأجاب جازما بأنه لا يعمل، وأنهما يذهبان معا إلى المقهى لتناول الفطور وشرب الشاي!"[٣].

بعد هذه الحادثة التي تلقاها سكان دار الجيش، وأشعرتهم بأنهم كانوا مغفلين، غادر (الشيص) دار الجيش، خرج من المرقاب[٤]، وانطلق كالسهم نحو الكويت، لم يعلم أحد أين مكث طوال خمسة شهور تقريبا، إلى أن عاد بعد هذه الفترة ليخبرهم بما دار معه، فقد عانى ظروفا صعبة أقرب إلى الانحراف والابتعاد عن السلوك الآدمي "كل شيء يهون أمام السجائر! تحملت الجوع والعطش والتعب من المشي والتسكع، ولكني لم أتحمل الحرمان من النيكوتين، مر بي رجل لم يلق التحية... كان يدخن دونما اكتراث سيجارة، لم يلبث أن ألقى بها على قارعة الطريق... انقضضت على بقية السيجارة فالتقطتها..."[٥].

أرسلت السماء رسولها المخلص إلى (الشيص) لإنقاذه من القهر الذي عاناه، وتخليصه من آلامه، شخص واحد هو الذي يستطيع إكمال المهمة، إنه المهندس (ولي الدين) الذي يظهر بلا مقدمات، ولا يتردد في مساعدة الفلسطينيين البسطاء والفقراء في غربتهم "عندما صحوت وتابعت تسكعي، إذا بي أقابل فجأة رجلا تعرفونه تماما، رجل غاب عنا وعن ذاكرتكم جميعا،، دقق بي

---

[١] الروبية الهندية: عملة الكويت في ذلك الوقت.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١١٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ١٢١.

[٤] المرقاب: الحي الذي تقع داخله دار الجيش.

[٥] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٧٠.

وقال وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح: أنت لم تنم الليلة...سأشتري لك علبة سجائر وأعطيك نقودا قليلة، وأصحبك إلى دار تنام فيها"[١].

لم يكتف المهندس بهذه المساعدة، بل أرسله إلى أحد معارفه الذي وجد له عملا في أحد المستشفيات، حيث حصل على وظيفة عامل بدالة، وبذلك فقد تحولت شخصية (الشيص) من شخصية مقهورة تعاني الجوع والحرمان، وتفترسها عيون (أبو نصرة) وتشفق عليها شخصية (عبد الفتاح)، ويتنكر له الأقارب قبل الأباعد، إلى شخصية إيجابية لها الحضور والتقدير في عيون الآخرين، بل تعدى الأمر ذلك فقد انضم إلى حركة التحرر الوطني، وعمل تحت قيادة (أبو نصرة) وكُلف بالعودة إلى الضفة لممارسة الكفاح الوطني: "اسمع لقد استقر الرأي على أن تمضى إلى الضفة، لتبدأ عملا آخر. لن أخوض في التفاصيل فسوف يشرحها لك بدقة الأخ يوسف أبو نصرة .. منذ الآن سيكون وحده مرجعيتك"[٢].

المعبر

عبد الحميد

تعد رواية (المعبر) من الأعمال التي سلطت الضوء على الجانب المأساوي من حياة الفلسطينيين وإذلالهم صباح ومساء على معابر خصصت للقمع، وللاعتقال والتهديد والابتزاز، وما يترتب على هذه الأعمال من قهر يصيب صاحبه بحالة هستيرية تدفعه للارتداد ومهاجمة الآخرين، أو النيل من الذات بعد الوصول إلى طريق مغلق يوحي باستحالة الحياة في ظل هذه الظروف القمعية، فتنقل شخصية (عبد الحميد) القهر الذي لطالما عانه الفلسطينيون وتحديدا في قطاع غزة، بألوانه وأنواعه التي تتراوح ما بين ظلم وقمع أو اضطهاد ممنهج تشنه آلة القتل الصهيونية.

(عبد الحميد) إحدى الشخصيات المتطورة والمتفاعلة مع الحدث بصورة مغايرة لتوقعات المتلقي، فهو رسام مبدع تمتع بإحساس مرهف، وذوق عالٍ، وأخلاق رفيعة، فقد حدثته نفسه للتمتع بالحياة بجمالها، والطبيعة بسحرها، والليالي بسكونها، والأيام بنورها، منى (عبد الحميد) نفسه

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٧٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٩.

بالفنون، وحلم بأن يصبح رساما مشهورا، يرسم أحاديث النفس، وجمال الكون، وأسرار الحياة. مع كل هذه الأماني والأحلام، كانت رصاصات ضابط صهيوني الأسرع لاغتيال (عبد الحميد) الإنسان.

يستذكر الراوي أثناء وقوفه في الباص المكتظ بأكوام بشرية أمام البوابة المصرية في معبر (رفح) المصري الفلسطيني كما هو مفترض، لكن اتفاقية (أوسلو) رأت أن السيادة لمجندة صهيونية ربما كانت من الفلاشا، وضابط مخابرات صهيوني يسعى لإسقاط المسافرين، واستغلال حاجتهم للسفر. فقد سكنت شخصية (عبد الحميد) في ذكريات الراوي، وعند اشتداد القهر والألم والمعاناة يرى هذا الراوي أن جميع أبناء الشعب الفلسطيني هم (عبد الحميد).

اعتمدت رواية (المعبر) على تقنية تيار الوعي في نقل الأحداث، فالمتلقي يقف مع الراوي على بوابة المعبر في انتظار صدور الأمر بالتحرك من مجندة تحكمت بحركات وسكنات المسافرين، ليقفز الراوي مسترجعا لحدث وقع في مقهى (ديليس) الكائن في مدينة غزة مستذكرا (عبد الحميد)، ثم لا يلبث أن يرى (أحمد) المذبوحة يده جراء حادث جرار زراعي، ثم يغوص في طيات ذاكرته من جديد ليسترجع قصة (محمود عبد الدايم) الذي تحول بفعل الضغط والقتل إلى بركان غضب ثائر سعى للانتقام من قتلة أخته وعائلتها الذين ترصدت بهم طائرات القتل الصهيوني، ثم يطير الراوي من جديد من باصه إلى القاهرة ليحادث زوجته، التي ترى أنه صار أسيرا لهواجسه ومخاوفه وينادي بعفوية كلنا (عبد الحميد)، ثم يعود الراوي مرة أخرى ليقف أمام الضابط الصهيوني في صالة المعبر، في إبداع يجذب المتلقي يقوم عل تكسير الزمن، وتمزيق الشخصية، وتقطيع المكان "هل يكون مصير أحمد مثل مصير عبد الحميد؟ لا فرق بين قتل وقتل، الرصاصة قاتلة ولكن ربما تصبح القسوة وعدم الاكتراث قتلا أكثر! تدهش لماذا يحضرك عبد الحميد ... جهاز الدماغ. مثل الحاسوب تضغط على زر فتستدعي ما تشاء ومن تشاء ... كيف ظهر عبد الحميد ولم تضغط على الزر؟ ربما القهر والمعاناة ركوب جزئية فوق أخرى، بعض

مشهد أو تشابه في لمحة خاطفة، ما يتراكم فيك لا تستطيع حصره، ويكون بعيدا أو غائبا ... وفجأة يرتفع حدث، صورة، ذكرى، تنفلت من مخزون الذاكرة"[١].

يبدأ الراوي باسترجاع قصة (عبد الحميد) الذي كان يعمل نادلا في مقهى (ديليس) المملوك للراوي، ويرى الباحث أن الروائي (زياد عبد الفتاح) يحاول التستر خلف الراوي، ولكنه لم يفلح في ذلك فعند قراءة السيرة الذاتية للكاتب، ومقارنتها برواية المعبر والعمل الأدبي للكاتب الموسوم (بورق حرير) نخلص إلى أن الكاتب(زياد عبد الفتاح) هو المالك الحقيقي لمقهى ديليس، وقد قابله الباحث للحصول على معلومات تتعلق بذات الكاتب في نفس المكان "التقيته كثيرا في مقهى ديليس في غزة. الّي أنشأ ديليس لم يكن موهوبا، ولكنه كان مسكونا بوضع توقيعه الخاص في المدينة التي نذرت نفسها للبحر ..."[٢].

رسم الراوي صورة رائعة لعبد الحميد، واستجلب بعديه: الخارجي المتمثل بهيئته وشكله الذي يحمل ملامح عربية مزجت بعراقة الأجداد وأصالة الأرض، أما البعد الثاني الخاص بالجانب النفسي المرتبط بالغضب من الظروف القاتمة التي سلبته حرية تقرير المصير، واغتالت إبداعه الفني، وقضت على محبوبته (مريم)[٣] التي ابتعد عنها بسبب السفر عنها، ومعشوقته (سيمون) الفرنسية "جميلا كان عبد الحميد، إنه شاب خجول مثل فتاة. طويل مثل زرافة، وصامت لم يختر صمته. وكان هو طفل يدرج يتخبط في متاهة حرمان وفقر مدقع، يتفقد بأصابعه كنزا، موهبة راحت ترتفع شيئا فشيئا على إيقاع الصمت المنذور فيه"[٤].

يبدأ (عبد الحميد) بحوار مع الراوي، يقوم من خلاله بسرد مشواره، حيث يسترجع الأحداث التي مرت به وأسهمت في تحولاته، وكان لها الأثر في رسم معالم طريقه فقد التحق بجمعية الشبان المسيحية، وهناك وجد من يأخذ بيده، ويشجعه على مواصلة مشواره الفني والإبداعي، إلى أن لاقت رسوماته الإعجاب والتقدير، وعلى إثرها أُختير لمنحة إلى فرنسا "كنت في باريس كما أخبرتك، كان

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧٤

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧٥.

[٣] الأخت الصغرى لعبد الحميد.

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧٥

المركز الثقافي في غزة ينظم دورات وزيارات لمن يعتقد أن لديهم الموهبة، وكنت أذهب إلى مرسم ملحق بجمعية الشبان المسيحية، وهناك صادفت من أخذ بيدي وشجعني على العمل الدوؤب لصقل موهبتي، وتطوير أدواتي"[١].

رأى (عبد الحميد) أن ما يحدث لا يستقيم والوضع الذي يمر به الفلسطينيون، والتناقضات لا زالت تلاحقه في كل اللحظات والأماكن، فكيف له أن ينتقل من قرية (المغراقة) الصغيرة المحاصرة، إلى باريس عاصمة التقدم والانفتاح والحضارة، وبدأت الأسئلة المقلقة بملاحقته هل سيصمد؟، أو هل يستطيع العيش في ظل الأجواء الجديدة؟، والسؤال الأصعب هل سيعود إلى قريته، أم ستكون مرحلة سيغادرها بلا أدنى تفكير "اجتمعت عليّ مشاعر متضاربة: ذهول وقلق وزهو وحيرة وخوف، وقلت وأنا في ذروة الانفعال ماذا يحدث يا عبد الحميد؟ من المغراقة القرية الضائعة التي لا ذكر لها على الخارطة، إلى باريس مدينة النور.. قبلة الثقافة والفنون، ماذا تفعل يا عبد الحميد وكيف تتعامل مع باريس، ومن يحدب عليك هناك"[٢].

انقضت مدة الشهور الثلاثة التي تغطيها المنحة إلى فرنسا "في باريس عشت حياتي طولا وعرضا. ذهبت إلى المتاحف والمسارح والمعارض. زرت اللوفر عشرات المرات، وتوقفت طويلا عند تماثيل الأدباء والشعراء والكتاب ..."[٣]، وأصبح بعدها أمام خيارين إما العودة إلى قريته المحاصرة، ولكنه فضل الخيار الثاني وقرر البقاء في باريس عن العودة، وبدأت الهواجس والمخاوف تطارده كيف سيتمكن من العيش وممارسة طقوسه الفنية "في تلك المرحلة كانت تتناوبني مشاعر مدمرة من الإحباط وعدم الرضى، فأمضي إلى رسوماتي أمزقها، أو ألقي بها إلى زاوية في الغرفة الصغيرة التي كان يشاركني فيها رسام من تونس اسمه المنصف السحباني"[٤].

شكل الفنانون العرب في باريس الدعم الكامل (لعبد الحميد) ولم يكتفوا بتوفير المسكن والمأكل، وقدموا له المساعدات المالية، وتعد الدعم للوصول إلى الدعم النفسي، فلقد رأوا في

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧٩.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨٠.

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨١.

الرسومات التي يمزقها شرارة فنية تشعل ثورة إبداعية "خفت أن أنام على الرصيف أو في أحدى الحدائق العامة، فتداهمني الشرطة، لجأت إلى صديق من لبنان اسمه يوسف الوكيل، كان يعمل رساما في الحي اللاتيني، يتصيد قوت يومه من تصوير السائحين الذين يؤمون ذلك الحي الشهير"[١].

اقترح (يوسف الوكيل) الرسام اللبناني على (عبد الحميد) مشاركته تصوير الآخرين ورسمهم في الحي اللاتيني، وقدم له كرسيين ومساحة على جانبه، لم تسر الأمور كما يرام، واقترح الصديق اللبناني على (عبد الحميد) عرض بعض الرسوم أمامه. نجحت الخطة وجاء الزبائن وبدأ بجمع الفرنكات الفرنسية، يسرد (عبد الحميد) إحدى الحوادث التي دارت بينه وبين زبون "وفي يوم لا أذكره، اقترب أحدهم من موقعي الذي أفرد فيه لوحاتي وأدواتي، كانت اللوحات تتراكم مع مرور الوقت. توقف عند بعضها بنظرة عابرة. أدركت أنها لا تهمه. أصبحت لدي خبرة التعرف على الزبائن من نظرة خاطفة.... قال وهو ينفث سحابة من سيجاره الضخم من نوع روميو وجيوليت تشرشل:

هل تبيعني هذه. أدفع لك فيها ألف فرنك.

قلت: هذه اللوحة ليست للبيع.

قال: أدفع ألفين.

كدت أغضب فالرجل لا يفهمني..... قاد يوسف المساومة وبقيت صامتا. وقبضنا في نهاية المطاف ستة آلاف ومائتي فرك!"[٢].

وبتتبع هذا الحوار يلحظ الباحث أثر الظروف الصعبة التي صنعت من شخصية (عبد الحميد) قوة تميل إلى العناد المبني على عدم إدراك الظروف وتحين الفرصة المناسبة، فهو فقير لا يملك ثمن طعامه، ولا يشارك أجرة المكان الذي يعيش فيه، وقادر على الرسم في كل زمان ومكان، واللوحة التي وقف أمامها الزبون ما هي إلا خاطرة ناتجة عن شطحة فنية، ويقوم بعرضها

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٧.

لاستجلاب الزبائن، إلا أنه رفض بيعها رغم المساومة والسعر المرتفع، إلى أن تدخل صديقه اللبناني وأنقذ الموقف. وهذا تنبؤ تقدمه الرواية لنهاية هذه الشخصية التي ترفض التنازل عن الأوطان.

تصادفت وحياة (عبد الحميد) فتاتان، كانتا على النقيض تماما كشخصية صاحبهما، فالأولى في غزة هي (مريم) الأخت الصغيرة، التي أحتفظ بها لذاته وجعلها في منطقة محرم على الآخرين الوصول إليها، فصورتها لا تغادر عقله وقلبه، وتحضر كلماتها في فرح وحزن (عبد الحميد). تذهب إلى مكان عمله في المقهى للبحث عنه عند انقطاع أخباره، ورغم حبه لعائلته وأخته إلا أنه يعيش في حالة من عدم الاستقرار بعد عودته من فرنسا، تمنعه دون أسباب للاستقرار في بيت العائلة "جئت أسألك عن عبد الحميد، متى رأيته آخر مرة ؟ ....منذ أسبوعين تقريبا، لماذا أنت مشغولة وقلقة.....لأنه لم يزرنا منذ شهر أو أكثر، المغراقة ليست بعيدة ففيم جفاؤه"[١].

الفتاة الثانية (سيمون) الفرنسية الجنسية، التي لاقاها في الحي اللاتيني، وقام برسمها، ولكنه وقعا أسيرا للإعجاب بها، ودارت بينهما علاقة حب، بعد أن عقد معها اتفاقا على رسمها في بيتها، توطدت بينهما علاقة العشق وخرجت عن عوالم القواعد المتعارف عليها، كانت (سيمون) متزوجة، وقد قدر لها أن تصاب بمرض نقص المناعة المعروف بالإيدز عن طريق زوجها. بعدها امتنعت عن رؤيته دون أن يعلم السبب، وعندما ذهب إلى بيتها أخبرته الخادمة أنها مسافرة. وأخيرا تصله رسالة من محبوبته (سيمون) تخبره بحقيقة الأمر، وعدم سفرها، وعدم اتصالها به خوفا عليه، وأملا أن تبقى صورة (سيمون) المشرقة في خياله. فيطير إلى المستشفى لرؤيتها، ويصادف زوجها الذي يخبره: "عبد الحميد لا تذهب إليها. فات الأوان وهي الآن في ثلاجة المستشفى بانتظار الدفن غدا. إنها ترغب في حضورك لحظة الدفن. كان هذا آخر رجاء لها"[٢] قضى هذا المرض عليها، وترك (عبد الحميد) وحيدا، بعدها قرر الرحيل. حزم أمتعته وعاد من حيث أتى.

(عبد الحميد) الشخصية القلقة الصامتة، أدمنت الخمر، ورأت فيه والسيجارة المهرب من الواقع، والانطواء على الذات الوسيلة الفضلى لعدم التفكير بالواقع الذي سلبه الحرية بكافة صورها،

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١١١.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٥٨.

والقدر الذي فرق بينه وبين محبوبته الفتاة الفرنسية (سيمون) التي تعرف عليها ورسمها مصادفة، وعشقها أكثر من روحه "مهلا لا ترثي لحالي فأنا أملك مائتي فرانك، هما أجرة الطريق وثمن زجاجة نبيذ"[١]، ويقول في موقف آخر: "وسكرت. بعضنا عندما يسكر يصبح شرسا وربما عدوانيا، أخوك عبد الحميد ليس من ذلك الصنف، فعندما أشرب يعمني هدوء وصمت وأغرق في حزن عميق"[٢].

لا يزال الراوي يبحث عن (عبد الحميد) وعندما يجده، معتمدا على تقنية الاسترجاع يحدثه بأمر زيارة (مريم) وبحثها عنه، فيفيده بأنه تطوع للعمل في الهلال الأحمر الفلسطيني، في تناقض غريب لا ينسجم مع شخصية (عبد الحميد) الفنان الذي تعالى على تطلعاته وحسه المرهف وتقدم لإسعاف المصابين، ونقل الشهداء "دمرت حسه المرهف صور الشهداء والمصابين بجروح خطيرة وإعاقات، فطلق الرسم، وبما أنه لا يعرف مهنة المواجهة، فقد انتسب لفرق الإنقاذ وإسعاف المصابين، ولو كانوا في حالة موت سريري. عبد الحميد لا يعرف القتل ولا يتقن ذبح دجاجة، فليمض إلى ما يعتقد أنه قادر عليه"[٣].

يشتعل (عبد الحميد) شوقا إلى (مريم) وإلى (المغراقة)[٤]، ويقرر الذهاب إلي قريته وعائلته، لا يردعه الليل، ولا الخطر المحدق، ولا قوات المحتل الصهيوني الذي يتربص بكل ما هو فلسطيني متحرك. فيستعين بأحد ضباط الإسعاف الذي يوصله إلى مشارف قريته، وهناك تُوجه له رصاصات قاتلة اغتالت أحلام الفلسطيني الحالم بالأمل، والمقهور من عدم قدرته للوصول إلى أدنى حقوقه الإنسانية، قتلوه بوحشية ونالوا من براءته ولكونه عشق الرسم فقد سلبوه أعز ما يملك إمعانا في قهره "كسروا أصابع يده اليمنى، الوسطى والإبهام والسبابة. انتفض وثار. بصق وشتم بكل اللغات. لم يكن الضابط في حاجة إلى استفزاز أو تبرير ليقتل، فقد استسهل القتل منذ زمن

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٣٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٦٠.

[٤] المغراقة: قرية تقع إلى الجنوب من مدينة غزة.

بعيد .... أشهر مسدسه، صوبه دون اكتراث، وأطلق رصاصتين فقط: واحدة للقلب أصابته في سويدائه، وأخرى في منتصف الدماغ"[1].

رابعا/ الشخصية المُهجرة:

مرت الحياة الإنسانية بعدة كوارث أسهمت في تغيير معالم الكرة الأرضية وسكانها، من هذه الكوارث ما هو من صنع الطبيعة، ولكن الأدهى والأمر هو من هذه الكوارث الحروب التي صنعتها أيدي البشرية، فالحربين العالميتين الأولى والثانية كانتا المصيبة الأعظم في التاريخ الحديث لما صنعتاه من أعداد قتلى وجرحى قدرت بالملايين.

خلفت هذه الحروب حالة من الفوضى امتدت إلى كافة أرجاء الكوكب المأهول ببني الإنسان، ومن مخلفات الحرب العالمية الثانية أنها قسمت الدول الكبرى إلى دول استعمارية، والدول الصغيرة الضعيفة إلى دول محتلة.

تحول الوطن العربي إلى مستعمرة كبيرة للدول الاستعمارية الكبرى، فجزء وقع تحت الاستعمار الفرنسي، وجزء نحت الاستعمار البريطاني، وآخر تحت سلطة الاستعمار البريطاني. وقد قدمت هذه الشعوب سيل جارفا من التضحيات والشهداء لنيل حريتها واستقلالها وسعت لتكوين الدول المستقلة تحت السيادة الوطنية الخالية من التدخلات الأجنبية وجعلت شعوبها المقرر لمستقبله، والراسم لتطلعاته.

فنالت شعوب الأرض حريتها، وانتهت حروب الاحتلال والاغتصاب، وأصبحت الدول المُحتلة رمزا للسلام، لكن الأمر يختلف مع فلسطين، التي لا تزال تحت الاحتلال والاستعمار، الذي جاء نتيجة لمؤامرة عظمى تشاركت فيها بريطانيا ممتثلة بوزير خارجيتها (بلفور) ومندوبها السامي، وما قدموه من وعود لعصابات الصهاينة، وساهموا في قتل الفلسطينيين لإقامة دولة مستقلة لليهود في الأراضي الفلسطينية، نتج عن هذه المؤامرة ضياع فلسطين، وهجرة أهلها، وتوزيعهم على مخيمات الشتات الفلسطينية، والدول العربية والفلسطينية.

---

[1] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٦٥.

أمسى الفلسطينيون شعبا بلا أرض، وأصبح الفلسطيني رمزا للحرية المنتهكة في كل زمان ومكان. ساهمت الأعمال الأدبية في تكوين رسالة سامية، تنقل المعاناة جراء التشريد، والألم من فقد الأحبة، والحرمان من الوطن، والشوق للأرض المسلوبة.

تميز الروائيون الفلسطينيون في قدرتهم على الإبداع وتصوير أدق اللحظات بواسطة أدب راقٍ، يستخدم لغة الخيال المرتكزة على قص واقعي، مستمد من قصة شهيد، أو لاجئ، أو مشرد وجريح. وبرع (زياد عبد الفتاح) في رسم لوحاته الروائية التي حملت المتلقي على بساط سحري يخترق الزمان والمكان، يحمله إلى جبال طولكرم، من سماء بحر يافا، فيلمس المتلقي في هذه الرحلة نوارس غزة، ويداعب نسيم بيت المقدس. ويجوب القارئ ساحات فرنسا في رواية (المعبر)، ورحلة وصول الكويت إلى أبواب الحضارة والرقي في رواية (دار الجيش)، ويقف على ميناء صيدا اللبناني، وميناء فولوس اليوناني، ويخترق عباب البحر والجو وصولا إلى تونس في رواية (ما علينا). ثم يرسم الروائي رحلته الحقيقية، وما واكبها من صعوبات وتحديات برفقة الشهداء القادة ياسر عرفات (أبو عمار)، وخليل الوزير (أبو جهاد) في تأسيس الشق الإعلامي لمنظمة التحرير الفلسطيني (وكالة وفا).

يلحظ الباحث أن أغلب أحداث الأعمال الأدبية الخاصة بالروائي (زياد عبد الفتاح) تدور على أرض غير فلسطينية، بشخوص في أغلبها فلسطينية، وعندما استحضر غزة في رواية (المعبر) فإنه رسم معابرها، والحرية المسلوبة لأهلها، وأجواءها المنتهكة، ليوصل للجميع أن فلسطين محتلة وأهلها مهجرون وموزعون في دول العالم، والجزء العائد بعد (أوسلو) لا زال مهجرا ومنزوع الحرية والإرادة.

ما علينا

يفتتح زياد عبد الفتاح رواية (ما علينا) بقولين:الأول "أطويل طريقنا أم يطول؟ أحمد أبو الطيب المتنبي"[١]، والقول الثاني "مطار أثينا يوزعنا في المطارات. محمود درويش"[٢]، لقد أبدع

---

[١]زياد عبد الفتاح: ما علينا،ط٢، مطبعة الهاني الثقافية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٤م، ص ٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢.

الشاعران بقولهما، فهذه الكلمات القليلة عبرت عن حال المهجر الفلسطيني بأقصر الطرق وأدقها، وأبدعها.

تُعبر رواية (ما علينا) عن حالة الفلسطيني المهجر، بعد حصار بيروت، وما رافق ذلك من أحداث قتل، وتدمير وتخريب. فقد تحالف الأباعد والأقارب على بيروت وأهلها، وقامت قوات الاحتلال الصهيوني بفرض حصار خانق استمر زهاء الشهرين، استهدف الكيان الغاصب فيه كل ما هو فلسطيني عربي، أو يقرب قليلا من الفلسطينيين، رافقت الرواية شخوص مثل (نزار البطل) الذي عاش رحلة هجرة خاض خلالها عباب البحر المتوسط بعد خروجه، و(شيلان) ذات الأصول غير العربية، والمتعاطفة مع القضية الفلسطينية، وكذلك (عودة اليوسفي) الذي ترفض الدول نزوله في مطاراتها، ولا زال أسيرا لصالات (الترانزيت)، وتبقى المعاناة مستمرة، فاللاجئ يضطر للجوء مرات ومرات، وتستمر معاناة التشرد، فلقد هجر الآباء من أرضهم عام النكبة ١٩٤٨م، ونزح أهلونا مرة ثانية في عام ١٩٦٧م، وتحول المناضل إلى مطارد، وأصبح الفلسطيني ممنوعا من الإقامة في بعض الدول العربية كما حدث عقب الحرب الكويتية العراقية، ومما تسبب ذلك من ويلات للأسر المطرودة، ويخرج (نزار البطل) بطل رواية (ما علينا) من بيروت ليستقر في تونس، ويخرج الفلسطينيون من بيوتهم المدمرة عقب الاعتداء الغاصب على قطاع غزة في حرب طالت الأخضر واليابس في عام ٢٠٠٨م، وتعود الكرة في عام ٢٠١٤م، فيهجر الفلسطينيون من بيت حانون، وبيت لاهيا، والشجاعية ورفح، ولا زالوا يبحثون عن بيوت تأويهم، فأصبحت الخيمة مكان إقامة العائلات المنكوبة من جديد، ففي كل زمان ومكان هناك فلسطيني مهجر ينتظر العودة، ويستمر الأمل...

نزار البطل

يعايش (نزار البطل) اللجوء والتشرد معا، فقد ساقته الأقدار ليكون فلسطينيا مشردا من وطنه، وتعاجله المصائب والأحزان فلا يلبث أن يقع في معضلة جديدة عقب حصار بيروت، لتبدأ رحلة جديدة من المعاناة والألم يخرج بمقتضاها الفلسطينيون من لبنان ليتفرقوا في أنحاء عدة، ويخرج أغلبهم إلى تونس.

تمثل شخصية (نزار البطل) أنموذجا للهجرة الجديدة، فبعد صدور الأوامر للخروج من بيروت، يبدأ بوضع الخطة التي تحفظ حقه بالخروج برفقة عائلته الصغيرة المكونة من زوجته وطفلته الصغيرة التي لا تتعدى الثلاث سنوات، ويحاول تحسس الأخطار المحدقة لتجنب الوقوع فيها، ويستعيد شريط الذكريات الذي يستحضر شخصية (نزار البطل) في لحظات الشدة واليأس، ويحاول الوصول إلى سبب يفرق بينه وبين بيروت "هل هي الحاسة السادسة؟ تلك التي تحملك في ومض اللحظة وانكسار الثواني إلى نجاة لا تصدق، إلى حياة كاملة مضافة! هل طردته بيروت لأنه استعصى عليها فلم يكن شهيدها؟ أم أنها تعاقبه على جرأته أو وقاحته، إذ لم يذعن لمشيئتها وما امتثل لقانونها، قانون العاشقة التي ترى إلى العشق توحدا أبديا لا يشبعه سوى الفناء الذي يفوق التفاني، فيكون الكل في واحد والواحد في كل؟!"[١].

يخرج (نزار البطل) وتبدأ رحلة الهجرة الجديدة إلى المجهول، يقف نزار في أحد فنادق دمشق في انتظار موعد مع الموفد لبحث انضمام (نزار) إليهم[٢]، ويشرد الذهن المليء بشتى أصناف القلق، وتأتيه فكرة التعرض إلى اغتيال في دمشق "خطرت له فكرة ماجنة! ماذا لو أنه وهو ينتظر الموفد في بهو الفندق تعرض إلى اغتيال؟! هو افتراض مجنون .. فهو في دمشق، وهو آمن بحدود معينة"[٣].

هذه الأفكار تؤكد على شعور الخوف والقلق مع كونه غير مبرر في هذه اللحظة التي يستدعي فيها (نزار) فكرة الموت والاغتيال، لأنه ابتعد عن مركز الخوف والخطر الكامن في بيروت، ولكن شخصية (نزار) المهجرة عن أرضها لا تشعر بالأمن والأمان، فالفلسطيني مستهدف في كل زمان ومكان، ولا يدخر الصهاينة جهدا للوصول إلى كل ما هو فلسطيني حر.

بدأ (نزار البطل) رحلة الهجرة بلا إعداد أو تخطيط مسبق، لذلك يسعى الروائي إلى توصيف حالة الضياع التي عانتها شخصيات رواية (ما علينا) فالهجرة قسرية، والرحلة بحرية، والسفر بحرا أصعب أنواع الترحال حيث يصبح البحر كالوحش الذي يبلع راكبيه تدرجيا إلى أن

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٣.

[٢] بعد الحصار، تشكلت بعض الحركات التي انشقت عن فتح، مثل فتح الانتفاضة.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٤.

تختفي السفينة بمن عليها عن العيون، لقد أكد (نزار البطل) على حجم المأساة من خلال عدم إدراكه للوجهة التي يقصدها، يجب عليه المغادرة، وسيغادر مسلوبا للإرادة والقدرة "كيف يبلغها بأنه راحل إلى لا مكان وأي مكان؟ ... فهو لا يريد أن يفكر في المصير القريب القادم. كل الأفكار والأسئلة مؤجلة حتى مساء اليوم التالي عندما تطلق الباخرة صافرتها وتبدأ الرحلة"[١].

يشير الروائي (زياد عبد الفتاح) أن الفلسطيني المهجر عشق الحياة وأحبها وحاول الوصول إلى طريق الحياة الكريم، لكن المحتل فرض معادلة جديدة تقوم على أساس الحرمان والاستعباد، حاول (نزار البطل) الحصول على حياة كريمة، لكن هجر أكثر من مرة، وعندما بدأت رحلته من دمشق إلى طرطوس للسفر عبر مينائها البحري ينسى بعضا من همومه ويسبح في فضاء الطبيعة "توقفوا في حمص، وفي مطعم الأمير أكلوا واستراحوا، وامتنعوا عن التفكير.. ترى لو أسعفه الوقت وراحة البال، عمن كان يسأل في حمص؟ عن مقام الصحابي خالد بن الوليد، أم عن آثار الشاعر العاشق العبثي ديك الجن؟... لم يسأل إلا عن طريق طرطوس"[٢].

وقد وظُف التناص التاريخي في العبارة السابقة والتناص هو: "حضور النصوص الغائبة التي تتناص مع النص المقروء، وهذا أمر يحدث في أثناء القراءة بتلقائية غير مقصودة، وقد لا يحدث، فهذه النصوص تمر عفوياً بذاكرة القارئ العادي دون قصد منه لاستحضارها بعكس تداخل النصوص الذي يتصف بالقصدية التي تمكنه من ممارسة وظيفة نقدية لتأويل التناص الموجود في النص".[٣]

ويعرفه آخرون بأنه "علاقة بين نصين أو أكثر، يدور حوار وجدال، وقد يتفق النص اللاحق مع النص السابق، وقد يعارضه، بحيث يرفد أحدهما الآخر بطرق مختلفة، سواء أكان هذا الرفد من حيث الفكرة، أم من حيث الأسلوب".[٤]

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٨.

[٣] محمد حسن حماد : تداخل النصوص في الرواية العربية، القاهرة، الهيئة العربية العامة للكتاب،.ط ١ ،١٩٩٧ ص١٧ .

[٤] محمد أيوب :الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ط١، سندباد للنشر ، ٢٠٠١، ١٨٦.

وقد استحضر الكاتب أسماء ارتبطت بالتاريخ، وتجدر الإشارة إلى أن (نزار البطل) اختار البحث عن رمزين لها علاقة بالشخصية الفلسطينية، (فخالد بن الوليد) رجل البطولة والشجاعة والمعارك الحربية، ولم يدخل معركة إلا وكان المنتصر فيها، أما (ديك الجن)[١] فهو شاعر شامي، عاش في العصر العباسي، جمع بين حسن المظهر، وجمال الشعر، وحب الحياة ولهوها، وكذلك الفلسطيني رغم هجرته لا ينسى حب الأوطان والتضحية من أجلها، ولا ينسى أنه عاشق للحياة الكريمة.

يحاول (نزار البطل) الصمود في وجه الخروج من بيروت، من خلال الابتعاد عن التفكير في الأمر بطريقة سلبية، إلا أن التحدي أكبر مما كان يتوقع، والذكريات الكئيبة لا زالت تلاحقه في كل لحظة من هجرة، وتشرد، وهوية مفقودة، واحتلال يتربص به في كل وقت وحين. لا يفلح في اختيار مكان يتوجه إليه، فالبوصلة الوحيدة التي يملكها بوصلة فلسطين الضائعة، وما سواها سواء في منظوره "اختار أول سفينة. يذكر أنه نجا دائما في اللحظة الأخيرة، لأنه بحاسة شم تضاهي حاسة الكلب. لذلك اختار أية سفينة وأول سفينة، تفضي إلى أي مكان، جزيرة أو وطن... المكان ليس شرطا، ما دامت الأماكن كلها تقود إلى لا مكان".[٢]

وقد استخدم الكاتب تقنية المونولوج الداخلي وكثيراً ما يلجأ الإنسان إلى مناجاة ذاته والتحاور معها، كما قد تفجر حادثة معينة ينابيع الذكريات فتبدأ في التدفق من خلال الذاكرة فيما يعرف بتيار الوعي، وكثيراً ما اختلط الأمر على القارئ، بحيث لا يستطيع التمييز بين المونولوج وتيار الوعي، فالمونولوج في رأي جيرمي هوثورن غالباً ما يتضمن استخدام اللغة بشكل أساسي، لأن حديث الفرد إلى ذاته يفترض وعياً معيناً يدور في ذهن ذلك الشخص.[٣]

---

[١] أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم الكلبي الملقب ديك الجن، الشاعر المشهور؛ وهو من شعراء الدولة العباسية، ولم يفارق الشام، وكان يتشيع تشيعاً حسناً، وله مراثٍ في الحسين، رضي الله عنه. وكان ماجناً خليعاً عاكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورثه، وشعره في غاية الجودة (وفيات الأعيان ٣/١٨٤).

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٩.

[٣] انظر:جيرمي هورثون، مدخل لدراسة الرواية ، ترجمة : غازي درويش عطا ، بغداد ،وزارة الثقافة ، ١٩٩٦، ص٦٥.

والمونولوج دائماً يرتبط بالحالة النفسية الراهنة للشخصية، وما يشغلها من هموم الحياة وما يعتريها من تفاؤل وأمل، أو من إحباط ويأس، ولكن المونولوج يفقد من خصوصيته إذا وصل الأمر بالشخصية إلى مناجاة الذات بصوت مسموع.

وقد اعتمد الكاتب على المونولوج الداخلي الذي يحاول من خلاله الكشف عنت المكنونات الداخلية التي يعيشها (نزار البطل) محاولا تشخيص التجربة الشعورية للمهاجر الفلسطيني، وإيجاد خطوط شفافة تسري في نفس المتلقي تدخله إلى عالم (ما علينا) الخاص بمعاناة الفلسطيني، فلا أرض محتلة إلا هي،ولا شعب مهجر إلا شعبها "خطر له وهو يستدعي الملح بعمق رئتيه: لماذا البحر دائما هو السطح الذي يمشي عليه الفلسطيني في تراجيديا المكان، هل هي مصادفة أو قدر؟!".[١]

يحاول الروائي (زياد عبد الفتاح) إيصال المعاناة ولحظات الألم الذي تعيشها شخصية (نزار البطل) الذي جعل منه رمزا لكل فلسطيني أخرج من أرضع عنوة، من خلال التركيز على مشهد الخروج من بيروت نحو المجهول، هذا المجهول الذي يتكرر مع الفلسطيني دائما.

اعتمد على التوصيف الدقيق، مستخدما كاميرا ورقية تلتقط الحركات والسكنات وحوارات النفس وأحاديثها الداخلية، بجانب نقل المشهد بشفافية تامة تعكس الإحباط واليأس، مع الأمل الممزوج بالحسرة، والتساؤل إلى متى سيستمر هذا الحال "خرجوا بحرا .. السفن يونانية وفوقها إلى جانب أعلامها، أعلام فلسطينية. سافروا بأسلحتهم الفردية. مضوا دون أمتعتهم: فقط حقائب وأوراقهم، وما خف من الملابس مما تتسع له حقيبة اليد. رحلة تتجدد في الزمان.. تتكرر بصورة مختلفة، لكنها هذه المرة ليست مثل كل الرحلات ... هي رحلة أخرى شاقة وباهظة ودامية لكنها تستحق!.هل هي رحلة العودة؟!".[٢]

يصعد (نزار البطل) إلى السفينة المتجهة إلى فولوس اليونانية، ويستمر في تأملاته المغرقة التي يسعى من خلالها إلى الهروب من واقعه، ويعطيه البحر بسكونه واتساع إشراقه أمل نحو

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٣٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٣٥.

طريق الحرية، لكن سرعان ما يتغير الحال بليلة صعبة تصاحبها الرياح العاتية والبرق والرعد اللذان يستلانه نحو ذكريات حصار بيروت وقصفها .

بعد ليلة عاصفة يصعد إلى سطح السفينة ويلتقي (سامي نصير) الفلسطيني الجنسية، والذي يعمل سائق شاحنة تتنقل ما بين عمان الأردنية وفولوس اليونانية حاملا البضائع في رحلته بين المدينتين، وتتوطد أواصل الصداقة بينهما، ويكشف له (سامي نصير) عن همومه وحبه الذي وصل لحد العشق بعد أن ارتبط بفتاة يونانية، وعزم على خطبتها، ولكن تقع المشكلة الأكبر فأمها يهودية.

يدور بين الفلسطينيين حوار يكسر ما بينهما من حواجز ويجعل منهما صديقين قدراً، فكل منهما يبحث عن صديق يواسي غربته، ويتخذه رفيقا لسفره

"...أنا أيضا من فلسطين .. من الضفة .. من عنبتا. اسمي سامي نصير.

صمت ليتلقى ردا على تعريفه بنفسه. وأنا من الضفة كذلك من طولكرم. اسمي نزار البطل .. لا تقلق .. غالبا لا تعبر الأسماء عن مسميتاها.

نحن أبناء منطقة واحدة إذا عنبتا في منتصف المسافة بين نابلس وطولكرم.

نعم، وهي قرية جميلة أتذكرها الآن مثل الحلم ...".[١]

كما اعتمد الكاتب على تقنية التذكر والاسترجاع وهو مصطلح روائي حديث، يعني : الرجوع بالذاكرة إلى الوراء، البعيد أو القريب وقد أُخذ هذا المصطلح من معجم المخرجين السينمائيين، حيث بعد إتمام تصوير المشاهد، يقع تركيب المصورات فيمارس عليها التقديم والتأخير، دون أن يكون بعض ذلك نشازاً، طالما يظل الإطار الفني لعرض القصة محترما.[٢]

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٤١.

[٢] عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٩٥، ٢١.

ويعني أن " يترك الراوي مستوى القص الأول ليعود إلى بعض الأحداث الماضية، ويرويها في لحظة لاحقة لحدوثها. والماضي يتميز أيضا بمستويات مختلفة متفاوتة من ماضٍ بعيد وقريب، ومن ذلك نشأت أنواع مختلفة من الاسترجاع:

- استرجاع خارجي : يعود إلى ما قبل بداية الرواية.
- استرجاع داخلي : يعود إلى ماضٍ لاحقٍ لبداية الرواية قد تأخر تقديمه في النص.
- استرجاع مزجي : وهو ما يجمع بين النوعين "[١].

وعملية الاسترجاع تعيد الزمن السردي إلى حوادث سابقة حيث تحدد هذه الاسترجاع مقاصد جمالية وبنائية وفنية حددتها فاطمة الحاجي بما يلي:

- ملء الفجوات التي خّلفها السرد وراءه كما تساعد على فهم مسار الأحداث.
- تقديم شخصية جديدة دخلت عالم الرواية.
- اختفاء شخصية، ثم عودتها للظهور من جديد لسد الفراغ الذي حصل في القصة أو العودة إلى أحداث سبقت إثارتها برسم التكرار الذي يفيد التذكر، أو حتى لتغيير دلالة بعض الأحداث الماضية[٢].

يتذكر (نزار البطل) الأحداث التي مر بها الفلسطينيون أثناء حصار بيروت، فبعد سؤاله عن سبب إنجابه طفلة واحدة، تبدأ الشخصية بسرد يعبر عن المكنونات الداخلية في داخلها، ومخاوفها التي وصلت لحد التوقف عن الإنجاب خوفا من الفجيعة جراء فقد فلذة الكبد، في محاولة لجذب المتلقي و الاستيلاء عليه وتحويله إلى متعاطف. لقد عزف الروائي على وتر حساس يمثل الشعور المشترك للإنسانية. إنه حب الأبناء المقدم على كل متاع الحياة، فالقضية الحاضرة هي القتل، لذلك لن ينجب الفلسطيني لأنه مهجر يخاف عل أبنائه من الموت، "لأننا لا نريد أكثر. ثم لأننا كنا في بيروت، الطفلة ولدت في زمن القصف والقتل على الهوية، وفي وقت صار فيه زرع سيارة مفخخة، في شارع سكني، أو بناية تعج بالقاطنين فيها، لعبة القتل المحببة. هل تدري؟! كنت

---

[١] سيزا قاسم: بناء الرواية الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٤م ،٤٠ .

[٢] انظر: فاطمة الحاجي: الزمن في الرواية الليبية، ط ١، الدار الجماهيرية، ٢٠٠٠م ،٩٣ .

أخاف أن أبعث بها إلى الحضانة. فتعود وفي صدرها رصاصة قناص، أو تتناثر أشلاء في انفجار عشوائي. أليس هذا سببا كافيا؟!"[١].

يستقر (نزار) في مدينة فولوس اليونانية أياما قصيرة، ثم يقرر الذهاب و الاستقرار في البلد الأقرب إلى وطنه، ولأنه عاشق للبحر قرر التوجه و الاستقرار في مدينة (الإسكندرية) برفقة زوجته المصرية، وابنته الحاصلة على جواز عراقي ويستوقف أمر الجوازات ضابط الجوازات اليوناني "تونسي يتزوج من مصرية، أمر لا غرابة فيه. لكن كيف يتفق أن يلدا طفلة عراقية، لماذا هي ليست تونسية، أو حتى مصرية"[٢] كاد الأمر أن يوقعه في كارثة لأنه يحمل وابنته جوازي سفر مزورين، لكنه تصرف بحنكة المهجر الذي تعود الترحال و التنقل عبر الموانئ و المطارات "الأمر بسيط سيدي، فقد ولدت في العراق فأخذت جنسية البلد الذي ولدت فيه"[٣] و سُمح له بالمرور.

وما إن وصل عبر السفينة البحرية إلى مدينة (الإسكندرية) إذ وقع في كم كبير من المشاكل، فاسمه على قوائم ترقب الوصول، وابنته تُمنع من النزول من السفينة، والزوجة تنطلق لإنقاذ الموقف، وتجرى الاتصالات ما بين القاهرة ومقر شرطة الجوازات، ويتحرك الضباط الذين يصفون الأمر بأنه خارج صلاحيتهم، وهم بحاجة إلى موافقة سلطات أعلى منهم مرتبة، وتشتعل النيران في قلب (نزار) ألما من فراق طفلته وزوجته، أخذ قرارا سريعا يقضي ببقاء زوجته في مصر، وتسمح السلطات المصرية للطفلة بالنزول برفقة والدتها، ويطلبون من (نزار) العودة على نفس المركب التي آتى عليها، وعندما يناقش مصيره ويصر على الدخول، يوجه له الضابط الأعلى رتبة رسالة تهديد "لا داعي للانفعال، ولا نريدك أن تبصرنا بما نفعله، يكفي أننا لا نرغب في إيذائك، في احتجازك أو التحقيق معك أياما تتمدد، وقد تتجدد..لقد فضلنا أن نعالج الأمور بهدوء وبساطة، فلا أنت قدمت ولا نحن عالمون. الأفضل ألا تكون هناك قضية، أو حتى مجرد موضوع"[٤].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٤٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٦٩.

[٣] السابق.

[٤] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٩٣.

وبعقد مقارنة بين (نزار البطل) المهجر من أرضه فلسطين، والخارج رغم إرادته من بيروت، والذي يقف خائفا من محاولة اغتيال في دمشق، وحال الفلسطيني اليوم، نصل إلى أن المعاناة واحدة رغم اختلاف الزمان، فاتحاد المكان ولد رمزية متناغمة من الألم المصحوب بالقهر المختص بالفلسطيني.

فمصر تغلق معبرها في وجه الجرحى والمعذبين والمحاصرين في غزة، وهي ذاتها التي تطرد(نزار البطل) من أرضها وتحاول إنكاره، من خلال الادعاء بعدم رؤيته، مع تناقض بين الفعل الحقيقي والادعاءات الكاذبة في المواقف "يا أخ نزار، أنت ذكي، وتدرك ما أعني تماما.. ولا داعي لأن نتشاطر على بعضنا! أنت تعرف بأن جواز سفرك التونسي مزور ولأنك أخ عزيز وخارج من بيروت، ولأننا نحبكم ونتعاطف معكم، فإننا ارتأينا أن نغض الطرف، فلا أنت تقدمت بجواز سفرك، ولا نحن رأيناه أو رأيناك"[١].

وسوريا تذبح الآن تحت نداء الحرية المنشودة. تذبح نساؤها من العصابات الإجرامية تارة، وتذبحها الحاجة والجوع تارة أخرى، والقتل أصبح عملة سهلة التداول في أسواق دمشق.

ولبنان غرقت في تجاذبات سياسية لا زالت تدفعها نحو الهواية، فبرغم خروج الفلسطينيين بعد حصار بيروت، إلا أن يد المحتل الصهيوني وعملائه لا زالت تعيث خرابا ودمارا في بيروت وضواحيها.... وتستمر معاناة الفلسطيني في كل أرض وفي كل بحر وفي كل سماء.

يعود (نزار البطل) على الباخرة نفسها ويقف حائرا أما ضابط الجوازات اليوناني الذي يتساءل مستغربا من عدم السماح له بدخول الأراضي المصرية "عربي يذهب إلى بلد عربي، غير مطلوب، لكنه غير مرغوب فيه، ويعاد على الباخرة نفسها ليظهر في أثينا من جديد!!معادلة سريالية بالغة التعقيد"[٢].

بعد رحلة الألم والمعاناة والعودة على متن السفينة إلى ميناء فولوس اليوناني، يصل إلى مطار أثينا وقد قرر اللحاق برفاقه الذين خرجوا إلى تونس، ويجلس في مطار أثينا منتظرا موعد

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٩٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا،١٠٣.

رحلته التي تأخرت، وتستهويه بعض التفاصيل ويتأمل في وجوه المسافرين، إلا أن حالة من الغضب والمشادات الكلامية وقعت بين مندوب الشركة المصرية للطيران، وبعض المسافرين أغلبهم من جنسية مصرية الذين سيضطرون للبقاء في المطار لحين وصول طائرة أخرى تقلهم، ويبحث عن سبب الأزمة فيعلم أن أزمة دبلوماسية بين القاهرة وطرابلس الليبية تحيل دون السفر المباشر بين البلدين لذلك لابد من محطة تبديل بين المطارين.

يستوقفه أيضا مظهر رجل يطلبه أمن المطار وسرعان ما يعود دون خوفه ويتجه نحو الركن الخاص الذي صنعه لنفسه داخل المطار، ويتضح بعد حديث يسرد من خلاله (عودة اليوسفي) سبب استدعائه أنه فلسطيني، عايش الهجرة والنكبة، وتوجه للعمل في الخليج العربي دون الحصول على فيزا، كان دخوله وتنقله سهلا، لكن المشكلة الأكبر أن لا عودة (لعودة اليوسفي) ولا زالت مطارات العالم تلفظه وتمنعه من دخول أراضيها، تعرض للسب والشتم والضرب في المطارات العربية، ولم تسمح له المطارات الأوربية بدخولها، ولا زال يتنقل بين المطارات و الطائرات "إن اسم عودة اليوسفي ليس موجودا في السجلات أو بين الأسماء المسموح لها بالدخول. كما أن أسمه ليس على قائمة الممنوعين. أضاف الشرطي أنهم بعثوا برقية إلى الجهات المختصة صاحبة القرار، وأنهم تلقوا الرد سريعا فلا داعي لدخول عودة البلاد ويمكنه أن يعود من حيث أتى..لكن المشكلة أن الطائرة أصبحت فوق المدرج، ولا يمكن العودة بها ثانية"[١].

يصل (نزار البطل) إلى تونس، وفي المطار يلمح (شيلان) التي تألم لأنه لم يخبرها بأمر سفره، وشاهد أيضا صاحبه (مرعي يونس) الذي حضر برفقة الموفد في دمشق، ويلفت انتباهه (سامي نصير وسيرينا) اللذان جمع بينهما الحب رغم اختلاف الدين، الجميع حضر إلى تونس ما عدا (عودة اليوسفي) في إشارة إلى عدم انتهاء معاناة الفلسطيني المهجر من أرضه "وعندما كانت السيارة تبتعد بهما عن المطار، حانت من وليد التفاتة إلى صاحبه فلم يتكلم .. بل راح يراقب دمعتين صافيتين تتشكلان رويدا رويدا في عيني صديق الحميم .. القديم"[٢].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٦٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا،٢٠٦.

عودة اليوسفي

يشكل (عودة اليوسفي) أنموذجا آخر للفلسطيني المهجر المعبأ بكم كبير من القهر والألم والتحامل على نفسه والآخرين، يتساءل عن أسباب معاناته، هل لهويته الفلسطينية سبب في طرده من مطارات العالم؟، أم هناك مؤامرة يد خفية تحاول النيل منه؟، أم المؤامرة أكبر من ذلك؟.

يتقاسم (عودة اليوسفي) بطولة أحداث الخطاب الروائي (ما علينا) مع (نزار البطل) وقد جمعتهما المأساة الواحدة المتمثلة بالهجرة من وطنهما فلسطين، وإنكار الدول لهما، فكل منهما يخرج عنوة من بلد استقر وعاش فيها فترة من الزمن، خرج (نزار) من بيروت قسرا، وأخرج (عودة) من إحدى الدول العربية عنوة.

تبدأ رحلة الهجرة بالنكبة الفلسطينية التي تركت عائلة (عودة اليوسفي) بلا رزق يعيلهم فالأرض سُلبت، ورب الأسرة المعيل الوحيد لها مات قهرا، فقررت والدته أخذ أبنائها والهجرة حيث أخوها، ولكن مر بظروف تكللها الفقر والحرمان فعقد العزم على هجرة جديدة "لم تكن الهجرة صعبة. كانت سهلة تماما وسلسة. كنت صغيرا جدا، طفلا، ولم أفهم. بعدها عندما ذقنا المرارة والحرمان زمنا فهمت. وحين كبرت وتزوجت وأنجبت، اكتشف أن المأزق يكبر في كل يوم، فلا علاج له، إلا بهجرة أخرى".[١]

هاجر هربا من الموت جوعا، ولاقى في هجرته الجديدة ألوانا من العذاب. شارف على الموت بعد أن قطع صحراء شاسعة، استمر في السير ثلاثة أيام، وأربع ليالي حتى وصل إلى بغيته، ورأى أول بئر نفط، وبدأت رحلته بالعمل الهانئ البعيد عن المنغصات والمشاكل، وأصبح مظهرا مألوفا لا أحد يسأله عن إقامته أو جواز سفره.

عانى (عودة اليوسفي) من مشكلة لم يجد لها حلا، وعندما يحاول التفكير بها يصل إلى طريق مسدود، تتبع هذه المشكلة من عدم وجود دولة ينتمي إليها، وتهتم بشؤونه. فقد حصل على وثيقة تنقل بها في عديد من البلاد والموانئ، لكن يشترط البلد المانح للوثيقة الحصول على تأشيرة

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا،١٣٥.

للعودة إليه تمهيدا لوصوله إلى فلسطين، وهذا يتنافى مع كل قوانين الكرة الأرضية التي تمنح دولها تأشيرة لدخولها، لكن لا مشكلة في العودة، إلا الفلسطيني، المحروم من العودة.

يحاول الروائي (زياد عبد الفتاح) تسليط الضوء على هذه المشكلة، التي تمنع الفلسطينيين من العودة إلى قطاع غزة أو الضفة الغربية عقب نزوحهم أو هجرتهم إلى دول أخرى، وما تمخض عن هذه الإجراءات القمعية التي مارسها المحتل ضد الفلسطينيين، ولم يفصح عن اسم البلد التي عمل بها (عودة) أو البلد التي صدرت عنها وثيقته، ليوصل رسالة استنكار مفادها لم يجدر أن تكونوا أنتم و القدر على الفلسطينيين المهجرين من بلادهم "لا يمكنك إبراز وثيقة في بلد تسللت إليه، لكن المشكلة ليست في البلد وإنما في دولة الإصدار، التي تشترط على كل حامل وثيقة، أن يتقدم بطلب للحصول على تأشيرة دخول مسبقة! شرط لا يكون إلا مع الفلسطيني الذي يخرج، فلا يعود بدون[١] إذن مسبق، وإن كان يحمل وثيقة البلد!! تقدمت للحصول على تأشيرة للدخول وأنا مطمئن إلى العودة لأكون بين أهلي في أي وقت أشاء بعد أسابيع رفضت السلطات طلبي، دون أن تشير إلى سبب محدد!"[٢].

يستذكر (نزار البطل) شخصيات رواية (رجال في الشمس) لغسان كنفاني، ويستدعي (أبو الخيزران) محاولا خلق عالمين، في استدعاء للمتلقي وجعله يشعر بأحداث حقيقية تدور في مطار أثينا قد تتقاطع مع أحداث روائية خيالية تعبر عن المعاناة المستمرة في كل مكان وزمان، ويستخدم الروائي التناص الأدبي لاستحضار النية للثورة و التحرر من الظلم المستبد، فأبو الخيزران تسبب بقتل المهاجرين الفلسطينيين عندما نقلهم بواسطة خزان الماء، ومن ثم ألقاهم على قارعة الطريق، والدول العربية تقتل الفلسطينيين بقهرهم وطردهم ومنعهم من دخول أراضيهم.

"قاطعه نزار البطل سائلا:

ألم يعثر عليك أبو الخيزران؟ أولم يعثر عليك غسان كنفاني؟!

من أبو الخيزران هذا؟

---

[١] الأصح: دون.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٣٦.

لا عليك تابع، أرجوك .."[1].

يُلقى القبض على (عودة اليوسفي)، ويخبره رجل المباحث أن أمر الترحيل قد صدر بحقه، ويجب عليه مغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة، ويترك له حرية اختيار البلد الذي يود الذهاب إليه، ويصبح العالم صغيرا جدا، ويتلعثم في الاختيار، إلى أن جمع قوة عقله وصفاء ذهنه وقرر اختيار إحدى الدول العربية التي لا تفرق بين العرب، وتعاملهم بألفة وسماحة، بعد أن أيقن استحالة العودة إلى ربوع وطنه، وركب الطائرة إلى البلد العربية السعيدة التي وقع عليها الاختيار، وعاش لحظات من القلق القاتل إلى أن وصل مطار البلد العربي.

طلب منه موظف الجوازات الاستقرار في ركن من المطار، ويطير (عودة) من خلال أحلامه، ويحلق في فضاء الأمل "جاء من يقطع خواطري، ويطلبني، ليقتادني إلى أحد الغرف الداخلية، ثم جردوني من كل ما معي. نقودي وجواز سفري. وخاتم عرسي، وخاتما آخر وجيها ومحترما، ورثته عن المرحوم والدي. وابتدأوا التحقيق! ماذا جئت تفعل؟ اعترف. هل تدربت على استعمال السلاح، وأين؟ هل تنتمي إلى تنظيم، أو فصيل، أو حركة؟..... لم يقتنعوا. اتهموني بالتهرب والخداع، وهددوني قائلين: إنهم إذا لم أعترف، فسيلقون بي إلى مكان لا يصله الطير..... صحت من الألم وهو يصفعني فجأة بجبروت وقسوة .. اعترف يا صعلوك! اعترف وإلا كسرت رأسك!."[2].

يصمد (عودة) في وجه غارة الضرب والتعذيب، ويحاول الاعتراف، ولكن لا يوجد ما يعترف عليه، ويخرج من غرفة التعذيب إلى صالة (الترانزيت) في انتظار ترحيله من البلد العربي السعيد – كما يتخيل –، بعد أن سرق رجال الجوازات أمواله ومتعلقاته الشخصية، وخاتمه الذي ورثه عن والده، وحصل على تذكرة سفر توصله إلى مطار أثينا، الذي سينقله إلى بلد الفلسطينيين

---

[1] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٣٧.

[2] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٤٦.

(تونس): "جاء أحدهم ليبلغني بأن علي أن استعد للمغادرة، على الطائرة المسافرة للفلسطينيين. كانت الطائرة التي حملتني يونانية محطتها الأخيرة أثينا"[١].

وصل إلى مطار أثينا، وطُلب منه البقاء في الطائرة، ريثما يتم فحص أمره، ويذهب إليه ضابط أمن بزي مدني، يخاف (عودة) فآخر مرة رأى فيها رجل أمن بزي مدني انتهت بضرب وإهانة لازالت آثارهما على وجهه، لم يُدخله اليونانيون أراضيهم، ولم يحققوا معه، فالقوانين واضحة، (عودة اليوسفي) لا يملك فيزا ولن يدخل البلاد "القوانين في بلادنا، تقضي بأن تعود إلى البلد الذي أتيت منه، أو أي بلد آخر يقبلك. شرط أن يكون لديك تذكرة سفر أو ما يعادل ثمن التذكرة"[٢].

كان (عودة اليوسفي) مضطرب البال والخاطر، ورأى أن الحديث مع (نزار البطل) الذي يشاركه في همومه، فكلاهما فلسطيني يستطيع تفهم معاناة الآخر، ويستمر(عودة) مدليا بشهادته على واقع مرير عاش تفاصيله بنفسه.

يعتمد(عودة) على تقنية الاسترجاع في رواية الحدث. فبعد وصوله إلى نقطة لا رجعة فيها، وأصبح أسيرا لصالة (الترانزيت) في مطار أثينا لأن السلطات لم تسمح له بدخول أراضيها. يأتي الفرج بعد انقضاء ثلاثة أيام يُحمل (عودة) في الطائرة المتجهة إلى البلد العربي "فرحت كثيرا وقلت جاء الفرج، عندما تقدمت من شرطة الجوازات فلم ينتفض الشرطي! وإنما استمهلني برهة، كي يراجع على اسمي في الجوازات ما دمت لا أحمل تأشيرة دخول"[٣].

يحاول الروائي توصيف حال المطارات العربية، و تقديم صورة حرفية لشتى ألوان العذاب التي يعاني منها المسافرون جراء القوانين والأحكام التي لا ضرورة منها سوى عقاب وإذلال المواطنين العرب، (عودة) ممنوع للمرة الثالثة من دخول البلد العربي الثاني، والمصريون القادمون من ليبيا بحاجة إلى محطة بديلة فوجود أزمة بين البلدين منع وصول الطائرات المصرية إلى المطارات الليبية والعكس أيضا، يصور(عودة) هذه المعاناة في المطار العربي الثاني "خلال الأيام الثلاثة رأيت العجب! أقول لك أحيانا هانت علي مصيبتي وبلواي. رأيت كثيرين، يرابطون أمام

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٤٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٥٩.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٦٣.

مكتب تأشيرات الدخول. بعضهم دخل بعد ساعات. بعضهم بعد يوم وبعض يوم، بعضهم يطردون أو يعادون على الطائرة نفسها، التي أقلتهم. نساء ورجال وأطفال ومن كل الأعمار"[١].

ثلاثة أيام قضاها(عودة اليوسفي) في صالة (الترانزيت)، و حصل على بعض الأموال من رجال وعدوا بمساعدته، ساهمت الأموال البسيطة في سد رمقه وتزويده بالطعام والسجائر والقهوة التي لطالما أحبها. اقتربت ساعة الرحيل من البلد العربي الثاني، أتت الطائرة اليونانية التي سيعود على متنها إلى أثينا بعد أن لفظه مطار آخر "في الطائرة كادت تنشب مشادة بين القبطان ورجال. القبطان يعلن أنه لا يستطيع العودة على أثينا، وعلى متن طائرته هذا العودة. ورجال الأمن يتمسكون بمنطقهم ويقننون قرارهم.....أخيرا أذعن القبطان، وأقلعت بنا الطائرة"[٢].

نال (عودة اليوسفي) حظا من اسمه، فبعد أن سُمي (عودة) أملا بعودة إلى فلسطين المنكوبة، أصبح رمزا للعودة من المطارات. أصبح مصدرا للإحراج، ومثارا لإزعاج السلطات "قال عودة: عدت إلى أثينا مرة أخرى، وذهبت من أثينا مرة أخرى. محطتي البديلة، تعيدني في كل مرة، إلى محطتي الأصلية! كلما ابتعدت قدفوني إليها من جديد. وكلما رجعت، رأيت الحيرة على الوجوه، إلى أين يذهبون بي؟!"[٣].

شعر (عودة) بارتياح حذر، وصورت نفسه أن الحل قريب جدا، بعد أن قررت السلطات اليونانية إعادته من البلد العربي الذي استقر فيه خمس سنوات، وجاء منه. تهبط الطائرة حاملة على متنها (عودة اليوسفي). ينتظر الركاب السماح لهم بالنزول، ولكن تطول المدة، إلى أن تعلن المضيفة " ليهبط جميع الركاب من الطائرة باستثناء عودة. أين عودة .. عودة اليوسفي؟ يرجى منه التكرم بالتقدم، ليتعرف عليه أحد أفراد طاقم الطائرة"[٤].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٦٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٦٨.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٧٣.

[٤] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٧٥.

يصعد شرطيان إلى الطائرة، ويحتجزان (عودة) بقمرة القيادة، ولا يسمحا[١] له بمغادرة الطائرة "عودة ممنوع من الهبوط من الطائرة. ممنوع أن يتنفس خارجها. ممنوع أن يلوث أجواء بلدنا"[٢].

استقر (عودة) في مطار أثينا سبعة عشر يوما، متنقلا بين الطائرات والمطارات، فكر بالانتحار، لكن استقرت هواجسه، وحاول التعايش مع الوضع حتى يتم الوصول إلى حل لمشكلته. أصبح أحد المظاهر الملفتة للنظر في المطار، فقد أوجد لنفسه ركنا خاصا، وحرص على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المحددة "أضربوا عن استدعائي إلا للسفر، الذي لا بد أن أعود لهم منه ثانية وثالثة وعاشرة.. لا تنس يا سيدي أن اسمي عودة!! كثير من الشرطيين كانوا يأتون للحديث معي، في أوقات فراغهم. أثرتُ فيهم فضولا وأسئلة، لم يكن من الممكن وردودها على أذهانهم: أين فلسطين؟ ولماذا لا تعود إليها؟ و...."[٣].

تستمر معاناة الفلسطيني المهجر من أرضه، والمسلوب الحرية والإرادة، (فعودة) أنموذج للمعاناة التي نتجت عن ضياع فلسطين، والمؤامرات التي حكيت عليها، حاول الكاتب تسليط الضوء على الدول العربية التي تشترك في حصار الإنسان الفلسطيني، وقهره.

يغادر (نزار البطل) مطار أثينا متوجها إلى تونس بعد محاولات فاشلة لإيجاد حل لمشكلة المهجر الفلسطيني (عودة اليوسفي) ليؤكد على استمرارية التهجر، الذي لا ينتهي إلا بزوال الاحتلال، وحصول الفلسطينيين على حقوقهم المسلوبة.

دار الجيش

أبو ليلى

شخصية بسيطة غير متطورة، تفاعلت مع الحدث بصورة محدودة، سجلت حضورا في أحداث (دار الجيش)، لكن لم تشكل حجرا في صنع القرار. ساندت شخصية أبو ليلى باقي

---

[١] الأصح: يسمحان.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٧٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٩٤.

الشخصيات الفاعلة، ابتعد (أبو ليلى) عن تعقيدات الأمور، وخالف (يوسف أبو نصرة) في آرائه الصادمة، وساند (محمود الشيص) ووقف بجانب (عبد الكريم سمارة) في أزمتهما.

مثل (أبو ليلى) الجيل الأول في (دار الجيش)، فهو فلاح بسيط عاصر المخطط البريطاني لاستنزاف فلسطين، وتمهيد دخول جماعات المشردين من اليهود إلى الأراضي الفلسطينية، وما نتج عن ذلك من تهجير الرجال والنساء والأطفال نحو مخيمات اللجوء، بعد سلبهم أراضيهم وبيوتهم.

بلغ (أبو ليلى) حالة يرثى لها من الفقر والحرمان، فقد أخرج من أرضه وبيته وطرد خارج الحدود المؤقتة، وخسر مهنته التي كان يعتاش من ورائها، كان يحلم ببيته وأرضه، لا ينسى عندما أتى الجنود لاحتلال أرضه. فحصهما الضابط و أصدر أوامره بطردهم "زبالة وعالة علينا ..لا نريد زبالة هنا"[١] وبدأت حكاية التهجير.

يسترجع (أبو ليلى) الأحداث ففي أول مرة حاول فيها التسلل لأرضه كانت برفقة زوجته وابنته (ليلى) التي ولدت بعيدة عن بيت والدها فألقي القبض عليهم "كانت ليلى رضيعا حين اقتادوهم إلى الحاكم العسكري الذي قرر طردهم على الفور من جديد".[٢]

عانى (أبو ليلى) من البؤس فهو عامل زراعي يعمل بأجرة لا تسد جوعه وعائلته. لم يدخل اليأس إلى قلبه وقرر التسلل مرة أخرى "فما إن اقترب وخطا أول خطوة، حتى فوجئ بالرصاص يطرز الأرض من حواليه، انبطح على الأرض وراح يزحف عائدا إلى حيث ينتظره مصيره البائس"[٣].

كان في الخمسين من عمره، يقيم في (دار الجيش)، وصل إليها بعد هجرة جديدة من اللجوء داخل فلسطين، إلى اللجوء خارجها أملا في الحصول على بعض المال الذي يساعده في تنفيذ طموحاته في تربية (ليلى) وتعليمها.

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤.

[٣] السابق.

لم يتح له مظهره وسنه العمل لذلك عانى من الجوع مدة من الزمن فهو "لا يفهم في شيء غير الفلاحة، وهو بدين إلى الحد الذي يصعب تقديمه لعمل، فكل الأعمال تحتاج إلى خفة ونشاط. كان يلف حول كرشه الضخم ديماية مخططة تحيط به من أقصاه إلى أقصاه، فيبدو مثل برميل عتيق يكاد إذا دفعته يتدحرج"[١].

شعر الموجودون في (دار الجيش) بالحرمان الذي يعانيه (أبو ليلى) وفقر عائلته التي لم تجد ما يسد جوعها، فسارع (عبد الفتاح الأصفر) إلى مساعدته وتوفير فرصة عمل له، تناسب مع مؤهلاته غير الموجود منها سوى علمه بأمور الزراعة. قرر مدير التربية تعيينه بستانيا في إحدى المدارس التي اشتهرت باهتمامها بالزراعة "عندما بلغ الخبر (دار الجيش) وكان أول من تلقاه أبو ليلى، فإنه فرح فرحا عظيما، وانخرط في بكاء حار، فيما احتفل الذين تصادف وجودهم بالمناسبة كل على طريقته"[٢].

نشأت بينه وبين (أبو يعقوب) آذن المدرسة صلة صداقة، فقد حاول (أبو ليلى) الحفاظ على رزقه وإرضاء الجميع، والقيام بما يطلب منه، ولم يتردد في مساعدة الآخرين فقد فاتح صديقه (أبو يعقوب) بأمر كفالة (صالح محمد صالح) وأقنعه بفكرته التي أوصلت (صالح) إلى أن يصبح صاحب عمل يدر عليه القدر الوفير من المال، وتمكن في النهاية من استقدام عائلته إلى الكويت.

بقي (أبو ليلى) وفيا لمأساته، فبرغم هجرته الأولى عقب النكبة، وهجرته الثانية إلى الكويت من شدة الفقر، لم ينس داره، فقد حرص في آخر مرة أخرج فيها على إحكام إغلاق الباب، وحمل مفتاحه معه، بل أخذه معه إلى الكويت " ظل أبو ليلى الأعلى تعبيرا عن الحالة .. عندما طردوه آخر مرة وأيقن أن لا عودة اكتفى بأن يحمل معه مفتاح الدار التي اغتصبت .. كان يفرج عن كربه و النكبة التي أصابته، بأن يمد يده إلى جيبه ويخرج مفتاحه يتفقده ويتحسس ملمسه ...".[٣]

عاش (أبو ليلى) حياة لا يمكن أبدا وصفها بالسعيدة، فهو مهجر من أرضه مسلوب الإرادة، وطاردته لعنة الفقر، وحلم بأن يرى ليلى تكبر وتتعلم وتصبح طبيبة أطفال، لكن القدر

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٢٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٧٨.

عاجله فمات في الكويت، ودفن فيها، ولم يقدر على العودة إلى داره التي احتفظ بمفتاحها: "نادى على أبو ليلى، فلم يرد، هزه فلم يهتز، حركه فلم يتحرك. وضع أذنه فوق صدره العالي ليسمع دقات قلبه فردد الصمت صداه. كانوا قد وصلوا جميعا ليتبينوا أنه قد فات الأوان .. مات أبو ليلى".[١]

خامسا/ شخصية المرأة:

المرأة النصف الآخر للرجل, والشق المكمل لبناء الجماعات , نالت قسطا وافرا من الحرية الفكرية والعقلية والاجتماعية , وقد هاجم بعضهم[٢]هذا الواقع, ووصف المرأة بالكائن المنزوع الحرية والإرادة, ولا يسمح لها بإبداء الآراء وقول كلمة لا. لكن هذا التصور غير دقيق في توصيفه, فالمجتمع الفلسطيني يمتاز بمحافظته وتقديسه للمرأة ووضعها في مكانة عالية ورفيعة, فهي العفيفة في خدرها والكريمة في حسبها ونسبها.

وقد نشأت المرأة الفلسطينية في مجتمع "بني جزء أساسي من تاريخه الحديث على الصراع ضد الاستعمار والصهيونية، لذلك كان لا بد وأن تحتل قضية تحرير الوطن وقضايا الديمقراطية، المساحة الأكبر في النضال من أجل بناء مجتمع فلسطيني قائم على أسس العدالة والمساواة لجميع أبنائه رجالاً ونساء" [٣].

اعتمد المجتمع الفلسطيني على الزراعة في سواده الأعظم, وكانت المرأة سندا وعونا لزوجها وأولادها في كافة الأعمال، وخاصة الزراعة وقطف الثمار.

وقد ساد فلسطين إبان الانتداب البريطاني حالة من تراجع الثقافة, ومستوى التعليم، وتراجع مستوى الدخل, وحجم الضرائب, والحروب, والفقر, ومحاولات الهجرة نحو فلسطين التي قامت بها

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤٧.

[٢] انظر: سلمى خضراء الجيوسي, موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ص٣٢٦. مريم سليم وأخريات, المرأة العربية بين ثقل الواقع والتطلعات التحرر, ط١, بيروت ١٩٩٩م.

[٣] مي الصايغ: "المرأة العربية– الواقع والتطلعات" مجلة النهج. دمشق العدد /٤١/ لعام ١٩٩٥ ص١٠٠.

عصابات الاحتلال الصهيوني, أثَر ذلك سلبا وأدى إلى تراجع أعداد الطالبات الملتحقات بالمدارس[١].

بدأ نضال المرأة السياسي في فترة متقدمة نسبيا, وشاركت في المظاهرات والاحتجاجات ضد إقامة وطن قومي لليهود عقب وعد (بلفور) المشئوم وما ساقه ذلك من ويلات دفعت الفلسطينيين للخروج نحو مخيمات اللجوء، وقد خسروا أرضهم ومالهم وبيوتهم.

وكان من الطبيعي في ظل تلك الأوضاع الصعبة التي عاشتها المرأة الفلسطينية بعد النكبة، ألا تنفصل قضية تحررها عن القضية الوطنية، وقد تميزت ظروف المرأة الفلسطينية، سواء داخل الوطن أو خارجه، بخصوصية معينة، تبعاً لحركة الواقع الفلسطيني، والعربي عموماً، والتحولات الطارئة على مسار القضية المركزية

ومن الجدير ذكره أن الفلسطيني قد عاش في الشتات " ظروفاً استثنائية في ميداني السياسة والتعليم. ففي السياسة كانوا خاضعين لأمزجة الأنظمة العربية، ومواقفها المتذبذبة من القضية... أما في التعليم، فلم يتلق الفلسطينيون تعليماً موحد المناهج والأساليب، فهم تابعون لأنظمة التعليم السائدة في الأقطار العربية التي استقروا فيها"[٢].

"وكان لذلك كله أثره الواضح في الشخصية الفلسطينية، ولا سيما شخصية المرأة، بالإضافة لتأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وتعدد الاتجاهات الفكرية، وتباين أنماط الحياة اليومية بين هذا البلد أو ذاك، مما كان له أبلغ الأثر في التجمعات الفلسطينية، وفي وعي المرأة، ودرجة تجاوبها مع المستجدات"[٣] .

---

[١] انظر: زكي العيلة, المرأة في الرواية الفلسطينية, مركز أوغريت الثقافي للنشر والترجمة, رام الله, فلسطين, ٢٠٠٣م , ص٧-٨.

[٢] أحمد أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني (١٩٥٠- ١٩٧٥) ، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص٩-١٠.

[٣] حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية ١٩٦٥-١٩٨٥ ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨، ١٧.

أمام هذه التحديات الصعبة وجدت الزوجة نفسها بلا زوج ووقفت الفتاة عاجزة بلا أب, وأصبحت العائلات عرضة لانتهاك الفقر والجوع "تلك المسؤوليات التي دفعت المرأة تحت ضغط الضرورات أن تزاول أعمالا كانت تأنفها سلطة العائلات قبلا, فالفتاة التي كانت تحرمها التقاليد من العمل اضطرتها الحاجة الاقتصادية إلى كسر حدود التقاليد والخروج إلى العمل خارج البيت"[١].

عقب هذه التطورات واعتراف الفلسطينيين أنهم كانوا عرضة للجهل والغباء والسذاجة والطيبة المفرطة ," كنا جهلة وأناس طيبين ولم نقدر ما يدبر لنا"[٢]، تحولت بوصلة الفلسطيني نحو التعليم فأصبح أكثر حرصا على إلحاق الفتيات بالمدارس والمراكز الثقافية والكليات المتوسطة, وقد طرقت المرأة مجال العمل التطوعي في مساعدة الآخرين ونقل الماء وتطبيب المصابين "لعبت المرأة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة دورا هاما في مقاومة الاحتلال, وتنظيم الأنشطة الاجتماعية التي استهدفت تخفيف الأضرار الناتجة عن ممارسات الاحتلال"[٣].

حافظت المرأة على زوجها في ظل غيابه الذي يكد لتوفير لقمة العيش لأسرته, وعملت على تربية أبنائها وإعدادهم لتحمل واجباتهم, وغرست في قلوبهم عشق الأرض, ودست في عقولهم ذكريات فلسطين المسلوبة.

شكلت المرأة عمود الارتكاز الأول للرجل الفلسطيني الذي خلع من أرضه وأصبح عرضة للانكسار, فهي أم الشهيد, وأخت الأسير وزوجة المعتقل, والأدب الروائي زاخر بهذه النماذج المشرفة[٤].

دار الجيش

تكاد تخلو رواية (دار الجيش) من النماذج النسائية الفلسطينية, فالشخوص في غربة, وفي أول خروجهم من أرض فلسطين يعانون الفقر والحرمان، أغلبهم لا زال أعزبا لم يتزوج والمتزوج

---

[١] انظر: زكي العيلة, المرأة في الرواية الفلسطينية، ٢٢ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٦٤.

[٣] انظر: زكي العيلة, المرأة في الرواية الفلسطينية ،٢٣ .

[٤] انظر: عكا والرحيل " إلياس الخوري والآثار الكاملة " غسان كنفاني, البكاء على صدر الحبيب " رشاد أبو شاور, صراخ في ليل طويل " جبرا إبراهيم جبرا " .

منهم ترك زوجته لترعى الأولاد كما في شخصية (أبو ليلى) الذي ترك (ليلى) وزوجته في قريته. و(صالح محمد صالح) ترك زوجته خلفه في القرية، ولكنه استقدم عائلته بعد تحسن أحواله واستقرارها، أملا بأن يحظى أولاده بحياة رغيدة وفرصة للتعلم أفضل.

تقاسمت زوجة (صالح محمد صالح) هموم زوجها وحاولت تقديم الدعم المعنوي له عندما دخله اليأس عندما رأى اقتراب اليهود من بيته واستيلاؤهم على أرضه, "قالت: لا تقهر قلبك, الله عليه العوض. لن يطول الأمر فسيهب العرب لنجدتنا, لسنا وحدنا يا صالح ... العرب والله معنا"[١].

لقد تمتعت هذه الزوجة بالحب والتضحية لزوجها, ولكنها لم تفهم الواقع والمصيبة التي ستقع، حالها كحال بقية الفلسطينيين الذين اعتمدوا على العرب, واعتبروا أن الهجرة لن تطول، لقد قدمت في خطابها لفظ العرب على لفظ الجلالة (الله) لتدلل على سذاجتها، وقلة تحصيلها, ولتؤكد عدم فهم الأمر الحاصل على حقيقته.

وعندما قرر (صالح) السفر إلى الكويت سعيا وراء رزق عياله , لم تناقشه في الأمر فهي المتلقية للأوامر والمنفذة لها, ثقةً منها أن زوجها يضحي ويفعل الصواب من أجلهم، وتسارع إلى مساعدته " رهنت زوجته خزانة عرسها وباعت سوارين هما آخر ما تبقى لها من مهرها".[٢]

مثلت الأم الصابرة المحتسبة ظهورا واضحا في شخصية (عبد الكريم سمارة) فبعد انقطاع أخباره، وعدم إرسال المال لهم رغم علمه المسبق بحالة الفقر التي تعانيه العائلة ممثلة بالأب والأم وأخته زينب, لا زالت هذه الأم الفلسطينية العظيمة تنهج له بالدعاء ولم تنسه في أي لحظة.

يعتمد الرواي على تقنية الرسالة في استرجاع الحدث، والتراسل هو استفادة النص الروائي من الرسائل التي تقوم بها الشخصيات، و إرسالها لبعضها البعض بغرض التواصل فيما بينها ويرى الباحث أن الرسائل بكلمات مزدوجة الصوت، شأنها شأن الردود في الحوار، موجهة إلى إنسان محدد، تأخذ في اعتباره ردود فعله المحتملة وجوابه المتوقع.

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٦ .

كما يلجا الكاتب إلى استخدام تقنية الرسالة لتوضيح الجوانب الخفية من الشخصيات ومواقفها من الحدث.

ويرى محمد نجم أن للرسائل والمذكرات أهمية بارزة "إذ تتيح للكاتب التعبير عن الأحاسيس والعواطف التي تمور في نفوس الشخصيات بحرية كما أنها تساعد على التنبؤ والاستشراف بالنتائج قبل وقوعها"[١]، وهي لون تكنيكي يحتاج إلى موهبة قصصية كبيرة عند الكاتب، وقد نجح الروائي في استخدام الرسالة كتقنية سردية مكنته من إغناء النص، وهذا ما يظهر بوضوح في رسالة الأم لابنها:

"قالت في رسالتها التي أملتها على أخته زينب إنهم بعدما فقدوا الأمل وطلبوا العوض فيه من الله, جاءتهم رسالته تحدث زينب: كانت الوالدة تصلي عندما حضرت الرسالة, كانت تدعو له بالتوفيق, ولم يلتفت لهم. لم تنسه يوما ولا غفلت عن الدعاء له"[٢].

يحذر الكاتب من مغبة الانفتاح, وآثار الاختلاط السلبية التي تنعكس أثارها على المجتمع, ويحاول إرسال رسالة مفادها قد تنعكس الحرية الزائدة إلى مصيبة تستهدف صاحبها وتمتد عواقبها على الأسرة والمجتمع مستحضرا نهاية التهور الذي قامت به (رجاء) المرأة الجريئة دون العادة.

في رواية (دار الجيش) يستذكر(نزار الأصفر) صديقته أثناء الدراسة المتوسطة (رجاء) "كانوا سبع فتيات وثمانية رجال, الفتيات جميعهن من مدينة نابلس العريقة ومن عائلات معروفة بتحررها الاجتماعي, أما الرجال فكانوا من طولكرم أو القرى القريبة"[٣].

تميزت (رجاء) بالجمال فهي بيضاء ورقيقة وجذابة فوق ذلك كانت وقحة فعندما ضبطها (نزار) تنظر إليه لم تخجل ولم تخفض بصرها, تمتعت بقدر كبير من الجرأة مكنتها من مصارحته "أحبك أيها المجنون وإذا لم تستجب فتحبني مثلما أحبك فإنني سوف أقتلك, ليس هذا مزاحا وإنما

---

[١] علي عودة : الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ،المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، رام الله –فلسطين، ط١، ٢٠٠٣م ، ص١٠٦ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش, ٢٠٢ .

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش, ٢٠٩ ,

سأقتلك فعلا. إنك لا تدري ماذا يمكن للمرأة أن تفعل عندما تحب! القتل يصبح إجراءً بسيطا وساذجا: أكثر سأدمرك , وأنسفك , هل تفهم"[١].

شكلت هذه الشخصية أنموذجا للمرأة العاشقة والمتهورة بتصرفاتها, تمتعت بقدر كبير من الدلال, ومقدار كبير من الحرية دفعها إلى الجنون والتخبط, ومحاولة إشباع نزعتها الفردية التي تتميز بانعدام المسئولية الأخلاقية مبدية استعدادا تاما لفعل الموبقات والآثام كما فعلت مع (نزار) بعدما أقنعته بالمبيت عندهم مزينة له الأمر "اسمع .. بعد غد الخميس, أهلي مسافرون إلى تركيا غدا, لن يبقى في البيت سواي وأخي حسن صديقك, وزميلك في سنوات الدراسة, تعال إلينا نسهر معا وتنام عندنا .... سأمهد للأمر مع حسن , ولن تشعر بالغربة أو الحرج, فأنت تعلم كم هو منفتح وحضاري"[٢].

(نزار) فكر في الأمر أكثر من مرة, وأعاد التفكير, ماذا تفعل هذه المجنونة؟!. ولكن غلّب الغريزة على العقل واستضافه حسن في بيتهم وتسامروا وقام إلى نومه، "سعت إليه بعطرها الصريح, وثوب نومها الشفيف وكامل زينتها وأناقتها وابتسامتها الواسعة التي تملؤه وتشيع فيه! ذعر وانتفض, وخاف حتى كاد يموت رعبا ... "[٣].

أراد الراوي أن يقدم نهاية مأساوية لقصة حب غير شريفة تشارك فيها طرفان امتازا بالجنون المنافي للتقاليد والعادات الفلسطينية, فبعد أن استهوى الأمر (نزار الأصفر) وغياب عقله عمل على توفير مكان يجمعه (برجاء) التي أتت حسب الترتيب المعد مسبقا .

ويكتشف سكان القرية هذا الأمر, هرب(نزار الأصفر) تاركا حبيبته (رجاء) وحيدة، "أطلق ساقيه للريح .. كان مستعدا لأن يركض ويركض ويظل يركض حتى يصل إلى طولكرم وليس إلى ساحة السيارات وحسب ... وكانت رجاء تتراءى له وهم يحيطون بها ويحاصرونها"[٤].

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ص ٢١٥ .

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ص٢١٧ .

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ص٢٢١ .

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ص٢٢٩ .

أما (رجاء) فقد وقعت في يد جمهرة الناس ونعتها كبيرهم بالعاهرة, وطلب اسم أبوها, واسمها "في تلك اللحظات الكارثية تفر المعاني من كل عقل, كنت أريد أن أتخلص من موقف يجلب لي ولأهلي ولكل من أعرف ولا أعرف العار .... إنني لم أجد في ذاكرتي اسما واحدا يخطر لي سوى اسم أقرب وأعز وأغلى صديقة لي وطفاء ... "[1].

كُشفت كذبتها, وخسرت صديقتها, وكسرت والدها, وعاشت في بؤس دفعها إلى التفكير في الانتحار, فقد وصفت بالعهر, والكذب, والغدر, وانتحال شخصية الآخرين .

من المفارقات العجيبة في رواية (دار الجيش), منح الرواي شعور راحة الضمير (لنزار), والإيماء إلى المتلقي بعدم توقف الحياة, فعجلة الحياة تستمر والأحداث المؤلمة والخاطئة يجب أن تصحح المسار, ويجب على الشخوص مواصلة دربهم: "قالت أخته عندما كان يسرد لها خلاصه الروحي: أعرف منذ سنين أنها تزوجت أول من صادفته وتقدم لها ... وقد أنجبت ثلاثا. زوجها مهندس ... قال لأخته بانتعاش وجذل: الآن فقط أعود إلى روحي .... لا عذاب ولا معاناة ولا تأنيب ضمير ..."[2].

المعبر

لعبت المرأة دورا هاما في روايات (زياد عبد الفتاح)، وتحضر في رواية المعبر أيضا التي يستدعي فيها الكاتب صور عدة من معاناة الشعب الفلسطيني، الذي قتلته المعابر ألما وسطوة، فطبقا لاتفاقية (أوسلو) التي يستحضرها الكاتب في روايته أكثر من مرة في سياق السرد، فإن الرقابة على معابر فلسطين، أو غزة التي يمثلها السارد بمعبر رفح، ومحفوظة، والمطاحن، ونتساريم، تعكس حالة من السخط والنقمة والاستغراب على المفاوض الذي جعل جندي من الفلاشا، أو جندية لا يتعدى عمرها العشرون عاما تتحكم بآلاف الفلسطينيين، وبإشارة منها تعلن الأمل باجتياز المعبر، أو انقطاعه بأمر آخر يعلن إغلاق المعبر "يلعن أبو أسلو التي أوصلتنا إلى

---

[1] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣٣.

[2] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٥٨.

هذه الحال .. قال سلام قال، أي سلام هذا الذي يحولنا أغنام، ويوثق أقدامنا وأيدينا و يشل ألسنتنا"[١].

ويرى أنه مخدوع في معبر فلسطيني، يفصل بين أرض فلسطينية عربية، وأرض مصرية عربية، فيستعجب من دس الصهيوني أنفه في هذا المعبر، وتحكمه في حركات المسافرين والعابرين "تدخل المعبر من ناحية رفح، تبدأ رحلة انتهاك عقلك وروحك وإنسانيتك، وتدخلك مشاعر تضعك وجها لوجه أمام ممارسة عملية، تلخص على نحو فاضح فكرة اعتبارك أقل شأنا، تقف في مواجهة الأعلى، هل هذا ما تعلموه وتربوا ونشأوا عليه؟!"[٢].

المواطنون الفلسطينيون لا يسافرون إلا لضرورة حاسمة، فمن خلال حديث الراوي مع الشخوص يتضح أن المسافرين، إما مريض لا يجد علاجا له، ويعقد آماله على سفر يجلب له الشفاء، أو عامل يريد اللحاق بوظيفته خائفا ضياع إقامته، أو أم ستشارك في حفل زواج ابنتها بعد أن منعت من مرافقتها في المرة السابقة "متى يفرجون عنا؟ منذ أربعة أيام وأنا أحاول الوصول إلى رفح، ابنتي تتزوج اليوم، كيف يمكن أن لا أكون بجانبها، ألا يكفي أن والدها مطارد ولا يستطيع عبور الحدود! يا إلهي كم الحياة قاسية، ولماذا يفعل الله كل هذا بنا!"[٣].

يرسم الراوي صورة جديدة تدل على حجم الألم و المعاناة التي وصل إليها الفلسطينيون، بفعل المحتل، والاتفاقات المشئومة التي صاغها الاحتلال بما يضمن مصالحه، وفرض هيمنته على القطاع، محاولا تركيعه في كل لحظة، مراقبا كل حركة شاردة، استعان الراوي بصورة المرأة الأم لأنها الأقرب على الشعور بمعاناة ابنها (أحمد) المصاب أثر قطع يده أثناء عمله في أحد الحقول واعتداء المحراث الكبير على يده، فيضطر إلى السفر إلى جمهورية مصر العربية، أملا في الحصول على العلاج اللازم "لا أحد يعرف الألم مثل الأم، قلبها لا يمكن إدراك ما فيه. مشهدها وهي تراهم يدعونه برفق، فوق المقعد بشرائحه الخشبية القاسية، يطلق مع كل مرحلة شهقة ألم، بأنين لا يرتفع إلى صراخ، لا يمكن تصويره. كانت مذبوحة و مدماة وقلبها مخلّع. أخرجها الوجع

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر،٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٧١.

عن طورها فرفعت بصرها إلى السماء العارية. كانت الظهيرة صبت كل طاقة شمسها فوق الرؤوس.تخيلتها و غضبها يختلط بوجعها يمتزج بقهرها، تود لو تنشب أظافرها بأديم السماء."[١].

الفلسطيني مقهور ومظلوم، لكن هناك بعض السلبيات التي لا يمكن إغفالها و السكوت عنها، بل يجب الوقوف عليها، وإيصال رسالة تدعو إلى أهمية العلاج في مثل هذه الحالة الناذرة، فتاجرة الشنطة، أنموذج على النقيض من الأم التي ينفطر قلبها على ألم ولدها "هذه امرأة بدينة تلتف بثوب أسود فضفاض رأيتها من قبل! لست متأكدا، ولكنها كانت في ساحة المعبر المصري منكبة على حشر السجائر في الحقائب بعد أن أفرغتها من صناديقها، لم تكن وحدها وإنما عشرات يقمن بنفس العمل"[٢] فيبرر أحد الشخصيات في رواية (المعبر) هذا السلوك بدافع الفقر الناتج عن انتفاضة الأقصى، لكن يرفض الراوي هذا التبرير للمرأة الفلسطينية الشريفة.

هذه بعض الرتوش التي أصابت المرأة في رواية (المعبر) التي وظفت تقنية تيار الوعي والتداعي بصورة كبيرة، فالكلام يخرج من المرسل دفعة واحدة، فبينما يكون(عبد الحميد) في باريس، ينتقل الروائي للحديث عن (محمود عبد الدايم) الفاقد لأخته وزوجها وأبنائها، ثم يربط بين (أحمد) الطفل المصاب في المعبر، والدكتور (رضا) المصري جار الراوي في القاهرة الذي جعلت منه المفارقات العجيبة الطبيب الذي يعالج (أحمد) و يعيد ربط يده المقطوعة.

مريم

شكلت المرأة ذراع الحماية للرجل الفلسطيني، تمثل (مريم) أنموذجا جديدا للحب والتعلق والمساندة، ولكن هذا الحب من نوع جديد (فمريم) ليست الزوجة، وليست الحبيبة، إنها الأخت التي ارتبط بها (عبد الحميد) فكانت الأغلى، والحاضرة في كل حركة أو سكنة، حاضرة في باريس التي سافر إليها (عبد الحميد)، وحاضرة في غزة والمغراقة، احتلت مريم السواد الأعظم من ذاكرة (عبد الحميد)، فقد حنت عليه بعطفها وحبها، وجعلها في منطقة محرمة الوصول إليها محفوف بالمخاطر والمكاره "لا يا صاحبي.. مريم لا تنفع خطبتها، فهي هناك في المغراقة لا تغادرها، منذورة للأرض،

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٧٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٥٤.

لا حياة لها خارجها. مريم تصغرني و لكنها بعمر أبي وأمي. تتابعني و تتعبعني وتجعلني في كل لحظة أتساءل، إذا كان هذا العمل أو ذاك يعجبها. هي بوصلتي وميزاني الدقيق الذي يحكم روحي"[١].

شخصية (مريم) مثال للفتاة الفلسطينية، الحاصلة على نوع خاص من التربية، الممزوجة بالتحدي والإصرار على مواصلة المشوار، أكسبتها البيئة القروية صلفا وطبعا فلسطينيا انعكس على تعلقها بأخيها (عبد الحميد)، ازدانت علاقتها بأخيها بالتحرر والمودة التي أوصلتها لإملاء النصائح له، ويتقبلها بقلب رضي، لكنها الفتاة الملتزمة خارج حدود بيتها، لا تتجاوز حدودها وتحافظ على قوتها وعدم انكسارها، فتحاول التعايش بجانب محتل استقر قرب قريتها المغراقة رفضا للخنوع والذل "ممشوقة القد بعينين سوداوين حالمتين، وبريق أخاذ يكسب شخصيتها الوادعة قدرة مخبوءة، تحدث بوعي وصلابة. كانت وهي تقف بجلبابها المكتمل طولا حتى القدمين بلون زيت الزيتون الصافي، وخمارها الأسود يحيط بشعرها دون تزمت، تشبه حورية قادمة من أساطير الإغريق"[٢].

(يوسف الوكيل) اللبناني الجنسية، يلعب دورا هاما في إسناد (عبد الحميد) وتحفيزه عندما أوشك على الانهيار وسط حالة من الضعف، وعدم توفر المال، والتشرد. يقوم يوسف بالعبث برسوم(عبد الحميد) فيعثر على لوحة (مريم) المرسومة بأدق التفاصيل والملفتة للنظر، فيعرض على صديقه (عبد الحميد) عرض هذه اللوحة الرائعة لجذب الزبائن وسط الحي اللاتيني، فيفجر فيه حالة من الغضب التي تتولد بلا إرادة، فمريم خط أحمر يمنع الاقتراب منه، أو حتى التفكير بالوصول إليه "إلا في مريم .. قد لا تفهم ذلك. ربما لم تمر بحالة تشبه، لذلك يصعب عليك موافقتي، أو حتى فهمي..في مريم ليس هناك مزاح.... شكرا لأنك فهمتني، فمريم ليست للعرض ما حييت"[٣].

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٣.

[٢] زياد عبد الفتاح:المعبر، ١١٠.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٤.

لقد حظيت (مريم) بمكانة عالية عند (عبد الحميد) وجمعت بينهما أواصر الأخوة البعيدة عن ضغائن الحياة، وتفرعاتها القاسية. عندما قرر(عبد الحميد) السفر إلى باريس، كانت (مريم) مثالا للمرأة الفلسطينية المساندة لأخيها في مشاريعه وتطلعاته، ولكن لم تنس تقديم بعض النصائح الدالة على مدى الترابط الفلسطيني.

اعتمد الكاتب على تقنية تيار الوعي وهي ما " تتراوح بين الحاضر والماضي. يواجه إنسان ما حادثا معينا، أو يشاهد منظرا مثيرا، فتنبعث في ذهنه ذكرى حادثة قديمة وقعت قبل زمن قد يكون طويلا أو قصيرا، فتطفو الحادثة القديمة على سطح الوعي الذي يبدأ في استرجاع هذه الحادثة بتفاصيلها، مما يرسخ علاقة وطيدة بين تيار الوعي والاسترجاع بنوعيه، الداخلي، أو الخارجي"[١].

ويعبر التيار الواعي عن المشاعر والمكبوتات داخل الإنسان، ويتذكر لحظات من حياته الشخصية فيختلط الحاضر بالماضي من خلال حديث النفس .

ويعد التيار الواعي من تقنيات السرد الحديثة "ومن الملاحظ أن والاس مارتن عد تيار الوعي من تقنيات السرد، وساوى بين العبارات الدالة على تيار الوعي أو المناجاة وبين المشهد الذي يذكر فيه السارد تفاصيل الأحداث، كما أنه جعل تدخل الراوي بكلماته الخاصة أحد تقنيات السرد، ومن المؤكد أن تيار الوعي يعد من أهم طرق السرد في الرواية الحديثة، فهو يكشف لنا باطن الشخصية، وما يسعدها وما يؤرقها"[٢].

"ويدرج بعض النقاد تحت طريقة تيار الوعي ألواناً عديدة منها المناجاة والحوار الداخلي والتداعي الحر"[٣].

---

[١] محمد أيوب: الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ط١، سندباد للنشر والتوزيع، ٢٠٠١ ، ١٨٤ .

[٢] محمد أيوب: الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ١٥١.

[٣] علي عودة: الفن الروائي عند جبرا خليل جبرا ، ط٣ ، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣م ، ٩٨.

ينجح الروائي(زياد عبد الفتاح) في تصوير أدق لحظات شخوصه، ففي وسط لحظة حساسة يعجب فيها (عبد الحميد) بفتاة فرنسية، تطرق (مريم) ذاكرته قافزة من المغراقة في قطاع غزة المنتهك إلى باريس رمز الحضارة و التحرر. تستخدم (مريم) لغة بسيطة عامية في محاولة من الروائي لتقريب شخوصه من المتلقين "كانت مريم التي تدس أنفها الجميل في كل شؤوني الصغيرة و الكبيرة قالت لي قبل أن آتي إلى باريس: يا عبد الحميد إوع تروح و متجيش. احذر يا عبد الحميد من المرأة بخاصة المرأة في باريس".[١]

جرت العادة، والواقع أن تقع مسؤولية المرأة بغض النظر عن سنها، وبغض النظر عن صلة القرابة سواء أكانت زوجة، أو أما، أو أختا على كاهلي الرجل، لكن أراد الراوي إيصال رسالة مفادها أن غزة المقهورة، وفلسطين المأسورة تسير ضد قوانين الكون المعروفة، (مريم) الأخت الصغرى، تنشغل ألما وشوقا لأخيها المنقطع عنهم منذ شهر، فتهب باحثة عنه لتصل مقر عمله المتمثل في مقهى (ديليس) الواقع في مدينة غزة فيدور حوار بينها وبين الراوي مالك المقهى:

" تفضلي مريم ادُخلي فهذا المقهى يؤمه كثيرون، فتيات ونساء وشباب ومن كل جيل.

ردت بحزم: لا أدخل فلم أعتد الجلوس على أي مقهى، جئت أسألك عن عبد الحميد متى رأيته آخر مرة.

منذ أسبوعين لماذا أنت مشغولة وقلقة.

لأنه لم يزرنا منذ شهر أو أكثر، المغراقة ليست بعيدة، ففيم جفاؤه. هل هو بخير؟

وقلت بسرعة: بخير! نعم بخير وألف خير...اطمئني وأعدك أن أفتش عنه، وأدفعه لزيارتكم بأسرع ما يكون.

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٣.

قالت و عيناها تدوران بحركة متفحصة: شكرا، أشكرك كثيرا، لا بد أن أعود قبل أن يتأخر الوقت، أنت تعرف الظروف، كم هي صعبة وخطرة، بخاصة في محيط المغراقة، يجب ألا أدخلها في العتمة فالخطر يصبح مضاعفا"[١].

تؤكد مريم في مواقفها على حبها لأخيها، وأن جمال الدنيا ينبع من صفحة وجهه البيضاء، فهو رسام مبدع، بعقلية خاصة ربما يعجز الآخرون عن فهما أو تفسير إبداعه وتعاملاته مع الآخرين، لذلك تحرص دوما على إيصال صوتها الكاشف عن حبها لأخيها الأكبر "عبد الحميد كل حياتي، أخي وأهلي جميعا، أحس ضياعا ووحشة قاتلة دونه. هو فنان أصيل لكن الكثيرين يسيئون فهمه، ولا يدركون موهبته"[٢].

وعندما يستشهد (عبد الحميد) في رحلة عودته نحو المغراقة التي عاد إليها من أجل (مريم) "ثلاثة أعوام في باريس. اشتقت لمريم أكاد أموت شوقا، ولا تنفع الرسائل النادرة التي كنا نتبادلها"[٣]، بعد أن نالت منه رصاصتين[٤]، من ضابط صهيوني استهواه القتل، واستوقفه تعذيب الآخرين. هبت (مريم) من نومها دون سابق إنذار، وشعرت كأن قلبها قد انفطر "صرخت مريم، أفاقت من نومها مذعورة، وهي تصرخ: عبد الحميد. هرع إليها والدها الذي كان يتهيأ لصلاة الفجر بكأس ماء وهو يردد .. خير .. خير يا مريم اللهم اجعله خيرا.."[٥].

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر،١١١.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١١١.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٠.

[٤] الأصح: رصاصتان.

[٥] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٦٥.

الفصل الثاني

شخصية العربي

أولا/ الشخصية الفاعلة:

الشخص الفاعل هو الذي "يتميز بقدرته على صنع الأحداث والمشاركة في تطورها واغتنام الفرص لكي يسهم في تشكيل حركة الحياة، والتأثير فيمن حوله من الشخصيات واتخاذ مواقف إيجابية في انفعالاته ومشاعره، ومواقفه من الآخرين"[١] .

وهم أيضاً شخصيات طغى على سلوكهم عنصر الكفاح والمقاومة وأفعالهم تؤكد على مواقفهم الثابتة والصلبة "فهم الذين يصنعون الأحداث وينتهزون الفرص ويؤثرون فيمن حولهم من الناس، وتتخذ عواطفهم وانفعالاتهم في معظم الأحيان طابع العمل".[٢]

ولعل ما يكسبه سمة الفاعلية هو "حركته البناءة نحو تغيير مواقفه مجتازاً ما يعترضه من عقبات وقد كثرت نماذج استجابته لما في واقع المجتمع من أحداث، وما توفر لدى الروائيين من تفاعل هذا الواقع".[٣]

ويبدو لي أن بعض روايات (زياد عبد الفتاح) قد حظيت بحضور هذا النمط، فنلمح الشخصية الفاعلة تساهم مساهمة فعالة في المجتمع الروائي ولها دور في التغير البناء في سلوكه رغم الآلام والصعوبات التي يتعرض لها، ولا يغير من مواقفه ومبادئه بل ويبقى ثابتاً عليها متمسكاً بها حتى النهاية.

دار الجيش

دار هذا المسرح بعيدا عن فلسطين في فترة ما بعد النكبة، و وقعت أحداثها في معظمها داخل الدار التي تحمل عنوان هذه الرواية، وكانت الكويت الساحة التي لعبت عليها الشخصيات، وقد نجح الراوي في صياغة أدوار شخوصه بدقة متناهية، فالجيل الذي عايش النكبة أمثال (أبو ليلى، وصالح أبو سمكة) عبارة عن شخوص غير متعلمة ساذجة التفكير، كان الفقر المحفز الأول لهجرتهم نحو الكويت سعيا لتحصيل لقمة العيش، بينما الجيل المتوسط في هذه الدار وهو جيل ما

---

[١] أحمد عثمان: بناء الرواية، مكتبة الشباب، مصر، ١٢٠.

[٢] داوود غطاشة، ورائد حسين: قضايا النقد العربي، مكتبة دار الثقافة، عمان، ط٢، ١٩٩١م ، ١٢٧.

[٣] يوسف نوفل: قضايا النقد القصصي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م، ٥١.

بعد النكبة، أي أنه هجر من أرضه لكن لم يكن قد لمس الدوائر والمؤامرات التي تزامنت ونكبة عام ١٩٤٨م، وكان حينها حديث السن لم يتسع إدراكه بعد أمثال (عبد الفتاح الأصفر، و صبحي العمري)، شكل هذا الجيل المتوسط تطورا في طريقة التفكير وتناول الأحداث، وقدم محاولات للانفتاح على السياسة وفهم طرائقها، لكنه قوبل بصد ممن هم أكبر سنا داخل الدار بذريعة أنهم أغراب يخافون التهجير وخسران لقمة عيشهم.

بينما الجيل الثالث الذي احتوته (دار الجيش) جيل الثورة والتحرر من القيود. استحضر هؤلاء الحقيقة وقرروا أن فلسطين قد ضاعت ويجب البدء الفعلي في الخطوات التنفذية للنهوض بالهمم وتجنيد الأفراد في (حركة تحرر وطني) تسعى لإنقاذ القضية، وإستعادة الأرض المسلوبة، وقد مثل هذا الجيل (المهندس ولي الدين) الذي ربما يكون رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، الرئيس الراحل (ياسر عرفات) الذي عمل مهندسا في الكويت في نفس فترة وقوع الحدث في الرواية، وأيضا (نزار الأصفر) الذي عاش في مخيمات اللجوء، وتلقى ألوانا أوسع من المعرفة والتعليم، وتعلق بأرض لم يطأها.

عاش الفلسطينيون في دول الشتات العربي، ومخيمات اللجوء في الداخل والخارج، وأتيحت لهم فرصة أكبر للانفتاح على الثقافات العربية، وفهم واقعها، وكما الفلسطينيون منهم الشخصية الفاعلة التي ضحت بالكثير من أجل حرية الأوطان، ومنهم المتخاذل الذي أرتد على عقبيه، ومنهم المستسلم الذي خضع وسلم بواقعه. أيضا فالعرب في دول الشتات انقسموا إلى قسمين فمنهم الشخصية المساندة التي فهمت الفلسطيني وسعت لتقديم يد المساعدة له، ومنهم أيضا الشخصية المحبطة التي هاجمت الفلسطيني وسعت للنيل من صموده ووضع العقبات في طريقه، لأسباب تعلقت ببيئتهم، أو تركيبتهم الفسيولوجية، أو عدم قدرتهم على العطاء.

كانت الكويت في فترة وقوع الأحداث في (دار الجيش) تعيش مرحلة من الانبعاث والتحرر من جديد، فهي الواقعة تحت الانتداب البريطاني تبدأ في التخلص من الاستعمار، ونبذ الروبية الهندية العملة التي فرضها المستعمرون، وإيجاد الدينار الكويتي العملة الجديدة، وهي على سباق مع الحضارة للالتحاق بركبها.

ترك هذا الاستعمار أثرا سلبيا على التعاطف مع القضية الفلسطينية ومساندتها، وبعد زواله وجد الكويتيون أنفسهم أمام تحدي البناء والتعمير، الذي همش معاناة الفلسطينيين من عيونهم، رغم ذلك فقد نجح الإصرار والتحدي في إعادة قضية ضياع فلسطين إلى واجهة الحدث من جديد، و بدأ المساندون العرب بالالتفاف حول الفلسطيني المهجر من أرضه وتقديم الدعم والمساندة له.

بو يعقوب/ رواية دار الجيش:

إحدى الشخصيات التي أبدعها (زياد عبد الفتاح) في روايته. فجعله شخصية تجمع بين عادات البداوة العريقة، والانفتاح على الحضارة الجديد. أقترب سكان دار الجيش منه، وجعلوه أداة تطوع الظروف لخدمتهم، فعندما انتهى عقد (صالح أبو سمكة) وأصبح بلا عمل، أقترح سكان الدار على (أبي سمكة) الانتقال إلى مهنة بيع السمك، وقد حالفه الحظ وتوسعت أعماله، وأصبح بحاجة إلى فتح دكان. وحسب القوانين المعمول بها، (فصالح) بحاجة إلى كفيل.

بادر (أبو ليلى) الذي يعمل بستانيا في مدرسة آذنها (بو يعقوب) إلى سؤال زميله المساعدة، فقبل ذلك (بو يعقوب) بشرط الحصول على ربع ربح المشروع "قال أبو ليلى مفتتحا جلسة السمر فوق المصطبة في (دار الجيش): لدي أخبار مهمة وسارة .. أبو يعقوب أبلغني اليوم أنه سيكون على استعداد ليكون كفيلا لصالح أبو سمكة، ولن يتقاضى نظير ذلك سوى الربع".[١]

أحب هذا الرجل البسيط الحياة بكافة تفاصيلها، وأدرك أن عليه مقابلة الفتح الحضاري القادم، وأستطاع الجمع بين تقاليد البداوة والحضارة الجديدة، لكنه انفتاحه على المدنية تأخر كثيرا، فعلى الرغم من ثروته المالية الهائلة لم يكن يؤمن للبنوك، وجمع ماله في عبوات خاصة أحتفظ بها بسرية، وعلى الرغم من أمواله وثروته الهائلة كان يعمل أذنا في أحدى المدارس التي يعمل فيها ولده (يعقوب) ناظرا لها، وقد أثار هذا الأمر الغريب حفيظة سكان (دار الجيش) الفلسطينيين، فكيف يعمل (بو يعقوب) الكبير السن وصاحب المال أذنا في مدرسة و الأدهى من ذلك أن ناظر المدرسة ابنه البكر، ويعبر (أبو ليلى) عن دهشته عندما علم بذلك، الأمر الذي نفاه أحد المدرسين "ما العيب في ذلك؟ هنا الروابط الأسرية وثيقة ودقيقة ومدير المدرسة هذا لا يجرؤ على أن يخالف

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٨٨.

والده في أمر لا يراه أبوه"[١] هذا الأمر يعزز فكرة الفقر السائد والمعاناة الشديدة التي تحتم العمل على الجميع قبل الثورة البترولية والعمرانية التي أرخت ظلالها على الكويت والدول الخليجية كافة.

يقدم (نزار الأصفر) الذي يعمل مدرسا للتربية الفنية في ذات المدرسة توصفا دقيقا (لأبي يعقوب) "كان مثالا فذا للأعرابي الذي يتوقف مستقبلا رياح الحداثة بحذر، يخرج من الخيمة إلى الدار الحوش، قبل أن تستقر فروعه في شقق وفيلات أشبه بالقصور. أما هو فظل يحمل غبار الصحراء ورملها الأصفر، والشمس وهي تلوح الوجه، وتترك بصماتها فوق الملامح".[٢]

أعجب (نزار الأصفر) بهذه الشخصية المكافحة، والرافضة الخضوع لإرادة الآخرين، ودارت بينهما العديد من الحوارات والنقاشات التي تعززت بعد اللوحة التي رسمها (نزار) ولفتت نظر (بو يعقوب) أثناء مروره في مرسم المدرسة "هذا بو يعقوب يضحك كما يضحك من كل قلبه! وضحك طويلا ضحكا طفوليا سعيدا"[٣]. طلب (بو يعقوب) الصورة وقدم العروض المالية (لنزار) الذي قدمها له بلا مقابل.

بات الآن (بو يعقوب) أكثر قربا من سكان (دار الجيش)، وأستمع إلى أحاديثهم عن بلادهم، وقصص ترحيلهم من أرضهم، واشتياقهم إلى الأهل والأبناء، هذا الأمر بدأ ينعكس على نظرته المتعاطفة مع الفلسطينيين. فعندما يقرر احتياجه إلى مساعدٍ ينظم أموره المالية وشئونه الخاصة، فإنه يترك الجميع ويلجأ إلى (نزار الأصفر) الذي يرشح (عبد الكريم سمارة) لهذه المهمة.

يلامس (بو يعقوب) علي يدي مساعده الجديد (عبد الكريم سمارة) مدى الحرمان والقهر الذي يتكبده الفلسطينيون جراء نكبتهم وتشردهم، ويستحضر الروائي هذه المعاناة ليضعها أمام (بو يعقوب) على شكل رسالة موجهة من (زينب) إلى أخيها (عبد الكريم) تشكو فيها شظف العيش، وشدة الفقر، فصرح (بو يعقوب) بمساندته المباشرة ودعمه الكامل لهذه العائلة المثابرة التي تحاول الوقوف أمام القهر والظلم، بل قدم النصائح (لعبد الكريم) يستحثه فيها على مساندة عائلته وعدم التخلي عن أمه "اقرأ لي رسالة زينب مرة ثانية. كم هي عظيمة أمك وصابرة يا عبد الكريم، لا

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٨٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣٣.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٣٥.

تأخذك الحياة فتنساها والعائلة، ما تفعله من أجلهم يضعك في نظري في موقع أعلى. يا عبد الكريم خذ هذا المبلغ وابعثه لهم تعويضا عن الشهور الماضية، فلقد قصرت في حقهم! خذ.. خذ ولا تتردد، الله هو الذي هداني وألهمني فلا ترفض هديته".[١]

أصبح (بو يعقوب) الأب والمُعتمد الذي أستند عليه (عبد الكريم) في أحزانه وأفراحه، وتفربا من بعضهما لدرجة أن أصبح (عبد الكريم) بمثابة الابن، وعندما لاحظ (بو يعقوب) التغول الذي مارسه ولده (ماجد) ضد (عبد الكريم) فإن "أبو يعقوب استخرج له بطاقة إقامة، وبذلك أصبحت إقامته شرعية تماما. وإن له الآن ربا يرعاه ويحميه".[٢]

راقب (بو يعقوب) علاقة الحب المتبادل بين ابنته الصغرى (حصة) و(عبد الكريم سمارة) رغم علمه المسبق بالفروق الطبقية بين عائلة (بو يعقوب) التي تنتمي إلى مجتمع يقدس التقاليد والعادات التي تمنع الزواج من أجنبي لا يملك مقومات مالية أو اجتماعية تكسر هذه القيود، لكنه يرى في (عبد الكريم) الرجل المناسب، والكفء الذي يحفظ (حصة) من بعده، ولذلك قرر الإسراع في مكاشفة ابنته (حصة) بأمر حبها، وسارع إلى البدء بإجراءات تزوجيهما خوفا من الفتك بهما من أبنائه ويخاطب فتاته مباركا هذا الزوج بعد أن تصدى للجميع "لن تجدي مثل عبد الكريم سمارة رجلا شهما ومخلصا وذكيا .. لذلك أبارك يا ابنتي زواجكما، وأتمنى لكما السعادة، وإنني إذ أرحل مطمئنا .. بقيت خطوة واحدة أن أعقد فرانكما بنفسي .. وأريدك فقط أن تقولي لي إنك قبلتِ. وسأضع كل من يشاء ولا يشاء أمام الأمر الواقع الذي ارتضاه بو يعقوب".[٣]

إزاء هذا التطور الخطير والتحدي غير المسبوق لا بد من حماية (عبد الكريم سمارة) من خطر سحب الإقامة والتهجير الذي لا بد أن يبادر أبنائه إلى العمل عليه لإفشال خطة أبيهم، وسعى (بو يعقوب) أيضا لمواجهة هذا الخطر القائم على رجل وجد فيه أعلى مراتب الوفاء والصدق والتقدير، فكانت إضافة مشرقة تجسد معنى المساندة للفلسطيني المهاجر من أرضه والباحث عن الرزق والحنان،فقد أصبح (عبد الكريم سمارة) في هذه اللحظة مواطنا بجنسية كويتية

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٠٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٨٨.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٠٥.

تساويه مع الكويتيين، وتعطيه ذات حقوقهم. يسترجع (بو يعقوب) ما دار في مشواره إلى (الداخلية)، ويخبر (عبد الكريم) "تعال يا ولدي .. ولا تتكلم .. أنا أحدث وأنت تسمع حتى أفرغ فلا تقاطعني .. قبل أيام ذهبنا معا إلى الداخلية، وانتظرتني طويلا. هل تعرف ماذا كنت أفعل؟ قابلت الشيخ طال عمره .. تحدث إليه، قلت له بو يعقوب له طلب واحد لن يتكرر في يوم من الأيام، فهل تعطيه وعدا أن تحقق له طلبه. وقلت له بو يعقوب بسيط طال عمرك وله فلوس لا يعرف لها عدا، ولذا فهو لا يطلب درهما أو جاها، أو وظيفة لأحد..... ما أطلبه يتعلق بشخص شاب شهم ونزيه، اسمه عبد الكريم سمارة. أريد له الجنسية فهو ولدي من غير صلبي، ويعلم الله أنني أحببته وأعجبت بذكائه وشهامته، وأريد أن أقدم له خدمة تحميه من تشرد ولجوء ثالث ورابع".[١]

لا يزال (بو يعقوب) الرجل الشهم، والوفي، والكريم بطبعه، يواصل عطاءه رغم ابتعاده عن الاحتكاك المباشر بسكان (دار الجيش) التي شكلتها طبيعة عمله، وانتقاله إلى قصر في مدينة (السالمية) الكويتية المشرفة على شاطئ البحر، فقدم المساعدة إلى (صالح أبو سمكة) من جديد، فمدد كفالته على دكان الأسماك الجديد ولكن هذه المرة لم يأخذ ربع الربح، فقد توسعت أفكار هذا الرجل البسيط، وزاد حبا للفئة القليلة التي تقاسي التشرد والبعد عن الأوطان "تريد الحق، أنت من علمني هذا الدرس .. لا ليس أنت وإنما أختك زينب التي كتبت لك ما أملته عليها الوالدة .. لقد اكتشفت عندما قرأت الرسالة أننا نعيش في عالم آخر، وأننا لا نريد سوى مصالحنا، وأننا شيئا شيئا نصبح عبيدا لثرواتنا، ولا نصحو غلا بعد فوات الأوان! لذلك اطمئن ومعك صالح بو سمكة، فله الكفالة دون مشاركة او نسبة".[٢]

لم يعطِ (زياد عبد الفتاح) الأمل كثيرا للفلسطينيين، ويذكرهم دائما بوطنهم المسلوب الذي لا بد من العمل على استعادته وتحقيق الحرية داخل فلسطين لذاتهم وللآخرين، فجعل نهاية شخصية (بو يعقوب) الطيبة و المساندة الموت، وترك (صالح أبو سمكة) يواجه مصيره بالموت قهرا بعد أن طالبه (ماجد) ابن (بو يعقوب) بنصف الربح مقابل استمرار الكفالة، وأيضا ترك الكاتب نهاية مفتوحة للأحداث الدائرة بين (حصة وعبد الكريم سمارة) من طرف، وباقي أخوتها من طرف

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٨٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٦٩.

مغاير، بعد زواجهما الذي ختم به (بو يعقوب) حياته بعد موته بمرض السرطان "عندما وصلوا كان بو يعقوب غائبا عن كل وعي؟ استدعوا الطبيب .. كان طبيب آخر غير الذي يعرفه عبد الكريم. قرر على الفور أن حالة الرجل سيئة وأن عليهم نقله إلى المستشفى في الحال..... ولكن عليهم أن يعلموا بكل أسف أن حالته متأخرة".[١]

مهند السوري/ رواية دار الجيش:

تعد شخصية (مهند الميداني) أو (مهند السوري) من الشخصيات النامية. تفاعلت إيجابيا مع الحدث، وأسهمت في تحول النظرة الفلسطينية نحو العمل المسلح، إذ قدم خبرته العسكرية حيث عمله في فترة سابقة في الجيش العربي السوري، وقد انتقل للعمل في الكويت بعد انتهاء خدمته العسكرية، وتعرضه لبعض المشاكل السياسية الملفقة التي زجت به إلى غياهب السجون والمعتقلات.

يبدأ حضور شخصية (مهند الميداني) في رواية (دار الجيش) بالتوازي مع ظهور شخصية (نزار الأصفر) القادم من ضواحي (طولكرم) الفلسطينية. شكل اقتراب السن، وعشق السجائر، وإدمان الشطرنج، والمواظبة على الذهاب إلى المقهى المجاور للسكن في دولة الكويت، والأفكار المتقاربة القائمة على قاعدة الثقافة والتعليم، عوامل ربط بين هاتين الشخصيتين.

رسم (زياد عبد الفتاح) صورة غير كاملة، قائمة على اقتطاع الشخصية، فلم يلتفت إلى واقعه الاجتماعي، ومزق الشخصية الجسدية، فهو "مهند السوري القصير النحيل البطيء الحركة أساسا، يصمت يستغرق في تأمل عميق"[٢] فقط هذه الملامح الظاهرة والتي اهتم بها الكاتب، ولم يلتفت إلى سواها، وعندما أراد الكاتب إبراز الصورة الداخلية لشخصيته فوصفه على أنه "شخصية قلقة، وبمزاج عصبي حاد، وعلى الرغم من الهدوء الظاهري الذي يحيط به، والذي يحاول جاهدا أن يبدو عليه في أصعب الظروف .. لا لم يكن قلقا وحسب، وإنما كان مؤهلا لوسوسة تضرب فيه

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣١٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١١٢.

شيئا فشيئا."[١]، وبذلك افلح الكاتب في إدخال المتلقي عالمه الروائي، وجعله يعيش قلقا قائما على محاولة التنبؤ بسر وساوس شخصية (مهند السوري)، ويشعر المتلقي بحالة من الرضا عندما يكتشف خلال السرد أن (مهند السوري) تعرض لموجات من الاضطراب النفسي القائم على القهر من أبناء جلدته بعد اعتباره خارجا على القانون عقب خدمته في الجيش السوري، وخاف أفراد المخابرات من تقديم خبراته في مجال صناعة المتفجرات إلى جماعات غيرهم، فلفقوا له التهم، واختطفوه "في المعتقل تركوني أياما طويلة، أسابيع وشهورا لم يسألني أحد، ولا حتى سؤال عابر! من الزنزانة إلى استراحة قصيرة أكون فيها لوحدي، ثم إلى الزنزانة من جديد. كانت الأيام والانتظار والأسئلة والتوقعات، تضرب في داخلي، تهزني وتثير أعصابي حتى الجنون. لا أحد يقدر الضرر الذي يصيبك إلا أنت، الذي في قلب الحالة! وحدك ...."."[٢]

ظهر (مهند الميداني) في سياق السرد الروائي على مصطبة (دار الجيش)، بعد زيارة قصيرة أصطحبه فيها صديقه (نزار الأصفر)، أثارت هذه الدار وقصصها حالة من الإعجاب في نفسه، وأراد الإطلاع والاقتراب من هؤلاء المهجرين الذين تعاضدوا وتمسكوا وحاولوا الصمود في وجه هجمات الأيام "لأول مرة أصادف مثل داركم دار الجيش، حدثني عنها نزار كثيرا، وأحببتكم وأحببت داركم قبل أن أراكم. رجوته أن يصطحبني معه في أول زيارة وهأنذا بينكم. لم يختلف انطباعي، بل على العكس، رأيتكم أكثر إثارة وإمتاعا... والأهم أعلى حرصا على بعضكم البعض".[٣]

أثار (مهند) بواقع مواطنته السورية روح التعاضد المنظم الذي يحتاج إلى مرجعية حكومية، أو منظمة وطنية، تشكل مرجعا لهؤلاء الفلسطينيين الناظرين إلى المستقبل بأمل مشوب بالكثير من الحذر والخوف وخاصة بما يتعلق بكونهم لاجئين خرجوا من أوطانهم، ونازحين أقاموا في بلاد غير بلادهم قد يتعرضون للطرد والإبعاد بحسب إرادة الحاكم، أجرى الكاتب هذا خطابه على لسان (نزار الأصفر) لأنه الأقرب من صديقه إلى سكان الدار، ويقاسمهم هموم الوطن المسلوب "هذا صديقي

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ١١٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٣١٦.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ١٨٩.

مهند الميداني الدمشقي يسألني نفس الأسئلة، نسأل بعضنا بعضا، يقول: نحن نملك مرجعية ثابتة ومستقرة، ففي النهاية لنا دمشق وسورية والميدان. أما أنتم فلا مرجعية لكم سوى ما تقدمونه من مرجعية للفكر والتوحد والاندماج، وفي الأساس التذكر والاختزان....".[١]

يكتشف (نزار الأصفر) المدفوع من أخيه (عبد الفتاح) طبيعة عمل زميله (مهند) في الجيش السوري، وينقل هذه المعلومات دون دراية بحاجة أخيه إلى هذه المعلومة، وأيضا يجيب (مهند السوري) على هذا السؤال معتبرا أن صديقه ربما يكون مدفوعا بالثرثرة أو الفضول أثناء لعب دور شطرنج، لأن أحدا لم يكن عالما بنية تأسيس حركة تحرر وطني تسعى لانتشال الفلسطينيين ونقلهم إلى التفكير الراقي بأوطانهم المسلوبة "كنت في كلية الهندسة، تخصصت في العلوم والكيمياء، وعندما كانوا يدرسون ملفي الذاتي قرروا أنني أقرب إلى التعامل مع المتفجرات، وكل ما يتعلق بالكيمياء. فأوفدوني بعد تدريبات شاقة إلى بلدان مختلفة أتابع فيها تطورات تلك العلوم".[٢]

يتقدم (خليل الزعيم) زميل (نزار) في العمل إلى مرسم المدرسة المكان المحبب (لنزار) ويرسل الرسالة المنتظرة لإشراكه في حركة التحرر الوطني التي يسمع بها ولا يعلم عنها شيئا، ولكن الرسالة تضمنت مهمة يجب عليه تنفيذها، وهذه المهمة تتعلق بصديقه (مهند السوري) وتجنيده للعمل في المنظمة التي تسعى لتحرير فلسطين، ويشكل حضور شخصية (مهند) الخبير في المجال العسكري، إلى أشكال العمل السياسي، والاجتماعي، والإعلامي، والكفاح المسلح التي تسعى حركة التحرر الوطني إلى تبنيه في المستقبل القريب لانطلاقها، وعندما يبادر (نزار) بسؤال صديقه (مهند السوري) الانضمام إليهم "قال الميداني فجأة: اسمع لماذا لا تجمعني بالرجل الذي بعث بك..؟ أريد مناقشته شخصيا قبل أن أقرر. هذا هو شرطي. مهند الميداني لا يقبل على مغامرة دون أن يفهم .. هل تعلم لو لم تكن القضية قضيتي، كنت اعتبرت ما تدعونني له جنونا. لكنها القضية ولكنها أنتم"[٣] لقد تضمن هذا الرد موافقة مبدئية، أبداها (مهند) للانخراط مع

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٨٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٩٥.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣١٥.

الفلسطينيين في كفاحهم، لأنه لا يمثل الشخصية العربية المساندة فقط، بل اعتبر نفسه جزءا منهم، واعتبر قضية فلسطين قضيته.

تتضمن مهمة (مهند الميداني) الانتقال إلى المخيمات الفلسطينية المنتشرة في الأراضي العربية، وخاصة في لبنان وسوريا والأردن وتدريب الفلسطينيين على استخدام الصواعق والمتفجرات، وقد أبدى مهند موافقته وأجتمع مع المسئول العسكري (خليل الزعيم) الذي أطلعه على مهمته السرية "قال خليل الزعيم: سعيد بمعرفتك يا أخ مهند، حدثني عنك الأستاذ نزار. شرح لي الحالة تماما. معك حق فالأمر في غاية الصعوبة في مخيم اليرموك في دمشق .. لن تأمن أنت ولا حتى نحن من المخاطر .. ما رأيك لو تقضي إجازة قصيرة في عمان, وجودك هناك كسائح لا يثير الشبهات. سنخترع لك خالة في مخيم الوحدات، ستكون خالة حانية، ذكية ولبقة ودافئة. سيأتيك أربعة كل على انفراد تدربهم على تركيب، وتفكيك المتفجرات واستخدام الصواعق.....إننا نقدر وضعك تماما، لذا فإن ما بيننا سيظل سرا خالصا لا يخترق".[١]

أبدى (مهند السوري) الاستعداد الكامل للقيام بكل الأعمال الموكلة إليه، وتصرف كجندي يتلقى التعليمات من قائده العسكري الأعلى رتبة في جيش منظم، وكان فرحا بعمله الجديد الذي سيتضمن قضية سعى جاهدا لخدمتها، وعلمه المسبق بسرية الأمر الذي لن يخلف له المشاكل والهموم " قال الميداني: انتهى الأمر لا أسئلة لدي، وإنني جاهز لأي عمل أكلف به. السوريون كلهم يتوقون لبذل أرواحهم من أجل فلسطين. لو ترك الأمر لهم لاختاروا –ولو زحفا– المضي إلى الأرض الحبيبة المقدسة".[٢]

يوسف الوكيل/ رواية المعبر:

إحدى الشخصيات التي تفاعلت مع الحدث بصورة لا يمكن وصفها بالممتدة أو الكبيرة، ولكن كان لها الأثر بالبارز في تقديم الدعم المباشر (لعبد الحميد) وإرساء قواعده، لقد كانت هذه الشخصية ثابتة غير متطورة ولكنها امتازت على طول الحدث بالحس الطيب، والتعاطف المباشر

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣٢٢.

مع الفلسطينيين، حيث قدم (يوسف) الدعم الكامل المتمثل بالمسكن، والمأكل، وأيضا التدخل في لحظات التأزم التي وصلت إليها شخصية (عبد الحميد) بهدف السيطرة عليها. لم يكن ليوسف حضور داخل رواية(المعبر) إلا من خلا التفاعل مع شخصية (عبد الحميد)، فلم يستعرض الروائي (زياد عبد الفتاح) الجوانب المعتمة من شخصيته، سوى الجانب المتعلق بنقاط الإلقاء مع (عبد الحميد) المتمثلة بالأصول العربية، والاهتمامات الفنية المشتركة.

ظهر (يوسف الوكيل) في الثلث الأول من رواية (المعبر) حيث انتهت فترة الإقامة الرسمية (لعبد الحميد) الذي وجد نفسه أمام خيارين إما النوم على الرصيف، أو البحث عن بديل يوفر له مكانا يستريح فيه، حتى يستطيع التفكير بحل يوصله لطريق النجاة من لحظة التأزم التي يمر بها، وتقدم الرواية وصفا مختصرا لهذه الشخصية العربية المساندة على لسان (عبد الحميد) "لجأت إلى صديق من لبنان اسمه يوسف الوكيل، كان يعمل رساما في الحي اللاتيني، يتصيد قوت يومه من تصوير السائحين الذين يؤمون ذلك الحي الشهير، فيدفعون في رسوماته بضع عشرات أو مئات من الفرنكات".[١]

يقدم (يوسف الوكيل) الاستضافة الكريمة لزائر المساء الذي داهم خلوته وقاسم عشاءه، لقد وجد (عبد الحميد) في صديقه (يوسف) الشخص المناسب الذي سيساعده في أزمته ولن يبخل في تقديم الدعم الكامل له المتمثل بالدعم العاطفي الإنساني، والعطف المادي. يحاول (يوسف) إخراج زميله وصديقه من حالة التأزم النفسي والاقتصادي، بأن يعرض عليه فرصة للعمل "لماذا لا تأتي معي غدا بعد الظهر فنبدأ عملنا جنبا إلى جنب، نرسم السائحين ونتقاضى أجرنا؟ بعضهم يا عبد الحميد عاشق لذاته أكثر من نرسيس، وعندما تصوره ويرضى عن صورته، يُغدق عليك".[٢]

وعندما يتردد (عبد الحميد) فإن (يوسف الوكيل) الذي سيصبح صديقا يتقاسمه المشرب، والمأكل، والمكان، بل يشاطره أفراح وأحزانه، يقدم له كرسيان، ويقدم له مساحة يقف عليها بجانبه في الحي اللاتيني، ويحاول تحفيز (عبد الحميد) بشتى الصور للتغلب على همومه، والذي لا يكفي الدافع المالي لإغرائه، ويقدم له أيضا بعض النصائح، ويعلم أن (عبد الحميد) شخص رقيق بحس

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨٤.

مرهف، فيقدم له صورة حقيقة لما قد يحدث، مهيئا دواخله "هي مهنة ممتعة، على الرغم من أنك تحس بشيء من الضآلة، وأنت ترى العابرين يتوقفون ليتفحصوا رسومك، وليقرروا إذا كانوا يجلسون أمامك. في تلك اللحظات تود أن تنشق الأرض وتبلعك....عل الرغم من ذلك هي تجربة فريدة ومثيرة، فأنت تتفرج على الناس، تستمتع وأنت تتأملهم وتقرأ ما في دواخلهم، أنماط من البشر: جنسيات وأعمار و....."[١]، لقد أمتازت لغة الحوار التي خاطب (يوسف الوكيل) صديقه، بالسهولة، البعيدة عن التعقيد، مما يعكس جوا من الحب والتعاطف والتماسك، والشعور الإيجابي الذي ساد كلاهما تجاه الآخر.

لا يقتنع (يوسف الوكيل) بنتيجة وقوف صديقه (عبد الحميد) في الحي اللاتيني لثلاثة أيام متتالية بلا نتيجة، ولا حتى زبون واحد يقف على مقربة منه، وهو يعلم مدى براعة صديقه وقوة أقلامه ودقة ألوانه، لذلك يقرر (يوسف) البحث في لوحات صديقه، ويجد أن كل منها أدق وأجمل من أختها في محاولة لعرض هذه اللوحات أمام (عبد الحميد) وجذب الزبائن المتجولين في الحي اللاتيني "جهز نفسك بسرعة واحمل هذه اللوحات معك، يجب أن تعرضها عرضا حسنا أمام العابرين والسياح في الحي اللاتيني فهي التي تقدمك لهم ..."[٢]، وتنجح الخطة "ولم تمض ساعة أو أقل حتى أقبل سائحان من الألمان. شابان تشابكت أيديهما، ويلبسان الجينز. توقفا قليلا يتأملان الرسوم، ثم طلبا رسما يجمعهما على نفس وقفتهما..... كانت حصيلة اليوم ثلاثمائة وعشرين فرنكا، فلقد استحسن الزبون الأخير الرسم فأكرمني بعشرين فرنكا زيادة على المائة المتفق عليها".[٣]

يتدخل (يوسف الوكيل) في اللحظات الصعبة التي يخشى فيها على (عبد الحميد) من ذاته، واللحظة التي تطغى فيها الذات الفنية على الحالة النفسية، فعندما رفض صديقه بيع أحد اللوحات التي رسمها في أحد شطحاته الفنية والقادر على رسم ما هو أجمل منها وأروع، أقحم (يوسف) نفسه في الحوار الدائر بين (عبد الحميد) – المفلس ماليا– وزبونه " كان صاحبي اللبناني يتابع الحوار مدهوشا. صاح بالعربية: ولا عبد الحميد شو بك، بعها، وأرسم غيرها. يا عزيزي هذا

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٨٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٤.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٥.

مبلغ فلكي للوحة عذراء، لم تأخذ حقها من الرتوش. سوف نبيع أتركه لي"[١]، ويتدخل (يوسف) مرة أخرى عندما يعجب (عبد الحميد) (بسيمون) الفرنسية التي لم يراها من قبل، ولكن تملكه شعور الإعجاب الشديد بها فيرفض أخذ الأجرة إلى أن يتدخل (يوسف) متدخلا بلهجته اللبنانية التي تكسر الحواجز، وتجعل (عبد الحميد) يقف حائرا ومتلقيا للأوامر "ولو يا عبد الحميد نحن في باريز، والعالم هون مش مثل هونيك، خذ الأجر يا عبد الحميد وبلا هبل".[٢]

لقد توحد كل من (يوسف الوكيل) وصديقه الفلسطيني (عبد الحميد) وتشاركا الهم الواحد، المتمثل بسوء الحال، وقلة المال، والغربة من البلاد العربية، والمهنة الفنية المشتركة. داهمهما الخريف بسرعة، وقل عدد السائحين المتجولين في الحي اللاتيني، وبذلك انعدمت فرصة البقاء في الشارع لجمع قوتهما. لقد توحد المصير فقررا البحث عن عمل جديد يعينهما على إكمال مشوارهما وغربتهما، يستعرض (عبد الحميد) هذه الأحداث، معتمدا على الاسترجاع عند حديثه مع الراوي في مقهى ديليس قائلا: "بدأ الخريف يهاجمنا في الحي اللاتيني فجأة وعلى فترات متقطعة في اليوم الواحد، وبدأنا نعد أنا وصديقي اللبناني يوسف الوكيل، للبيات الشتوي. كان علينا أن نفكر في عمل خارج المرسم يبقي علينا رمقنا طوال موسم الشتاء الطويل. ظللنا نؤجل حتى لم يعد في ساحة الحي اللاتيني غيري وصاحبي ورسام يجلس بعيدا...."."[٣]

يسجل (يوسف الوكيل) الشخصية المساندة، ذات الأصول العربية حضوره الأخير في رواية (المعبر) في تقديمه الدعم النفسي المباشر لصديقه الفلسطيني (عبد الحميد) وذلك عندما أعتقد الأخير أن صديقته الفرنسية (سيمون) قد تخلت عنه، فسار هائما في حالة هستيرية، ولا زال يطرق بابها يوميا ويقابل بالصدود، إلى أن ترسل له رسالة توضح له حقيقة الأمر وأصابتها بمرض نقص المناعة المكتسبة، يصف (عبد الحميد) لحظة عودته إلى سكنه بعد المشاركة في جنازة صديقته "عندما عدت إلى الأستوديو كان صاحبي اللبناني قد أعد غداء وشرابا. كان يحس ما

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١١٤.

بداخلي ويحاول التخفيف عني، شربت كثيرا....."[1]، لقد ترك الكاتب فرصة للمتلقي لرسم نهاية المشهد، فلم يلتفت إلى اللحظات التي سبقت قرار (عبد الحميد) عندما أزمع السفر، وكذلك لم يسجل لحظات الوداع الأخيرة، فقد أصبح المتلقي جزءا من الرواية يكمل المشاهد المقطوعة ويجمعها، ويحاول توقع الأحداث الأخرى.

لقد أسهمت الشخصيات ذات الأصول العربية في رسم مسار الشخصية الفلسطينية في أعمال (زياد عبد الفتاح) الروائية، وذلك من خلال تقديم الدعم المباشر وغير المباشر في المسرح غير الفلسطيني الموزع في الدول العربية، وغير العربية.

ومن خلال ما تقدم نستطيع القول إن الشخصية الفاعلة (الإيجابية) في روايات (زياد عبد الفتاح) كان لها بروزاً واضحاً وقدرة كبيرة على المشاركة الإيجابية والانحياز نحو الحياة بعيداً عن الحياد والتقوقع، كما كان لهم دوراً بارزاً وواضحاً في التأثير على الشخصيات الأخرى حولها كما وتميزت بسمو أخلاقها، ورفعة عطاءها، واستمرارية المواقف التي تحاول من خلالها بسط يد المساعدة للآخرين في كل وقت وحين.

ثانيا/الشخصيات المُحبطة:

تشكل الشخصيات المحبطة حضورا محدودا في فضاء أعمال (زياد عبد الفتاح) الروائية، تمثل هذا الحضور بالصورة الأكبر في رجال الأمن وضباط الجوازات التي تعاملت الشخصيات الفلسطينية وإياها في مشوارها القائم على السفر والترحال والتهجير.

ماجد ولد بو يعقوب/ رواية دار الجيش:

شخصية واحدة برزت في رواية (دار الجيش)، مثلت هذه الشخصية الجيل الجديد حامل فكر التمرد على العادات والتقاليد والأعراف، لقد كان (ماجد) الولد الأصغر (لبو يعقوب) سببا في موت (صالح محمد صالح) المشهور (بصالح أبو سمكة) عندما طالبه بنصف أرباحه جزاء عن كفالة والده (بو يعقوب) المجانية طوال الفترة السابقة. كما صرح بالتهديد المباشر أيضا بحق (عبد

[1] زياد عبد الفتاح: المعبر،١٥٨.

الكريم سمارة) الذي أصبح لاحقا زوجا (لحصة) بنت (بو يعقوب) بعد حصوله على الجنسية الكويتية.

لم يظهر (ماجد) على مصطبة (دار الجيش)، ولم يتصل اتصالا مباشرا بالفلسطيني المقهور والمطرود من داره وقريته، ولم يقف في أرجاء الكويت الفقيرة، حيث ولد في فترة الانتعاش الاقتصادي الخليجي، ولم يطّلع على حالة الفقر السائدة قبل اكتشاف النفط، الذي ارتقى بعائلته، ونقلها كما أغلب أهل الكويت من الخيمة إلى ربوع المدنية.

لقد أصاب الخلط – ربما بسبب انقطاع الكتابة – اسم هذه الشخصية، فتارة هو جاسم في أول ظهور الشخصية فأولاد (بو يعقوب) "كانوا خمسة، أربعة موظفين بينهم مدير المدرسة، أما الخامس بعقلية مختلفة: لا يؤمن بالوظيفة أية وظيفة مهما علت، فهي تقضي على كل طموح وتبعت في النفوس الكسل. لذلك كان جاسم الذي طالما اشتبك مع والده في نقاش لا يفضي إلى نتيجة".[١]

لقد سلطت رواية (دار الجيش) أضواءها الرئيسة على شخصية (بو يعقوب) وألقت هذه الأضواء ببعض ظلالها على الشخصيات المساندة، مثل أولاده، الذي ظهر منهم ابنه الأكبر (يعقوب) الذي يعمل مديرا في نفس مدرسة والده الآذن، ثم الابن الخامس (ماجد) أما الأبناء الثلاثة الآخرين، فلم يسجل أحدا منهم أي ظهور على هامش أحداث الرواية، ولكن هذا الابن الأخير هو ذاته (جاسم) الذي لم يظهر في سياق السرد إلا في مشهد واحد، ثم أستأنف حضوره تحت اسم (ماجد)، وقد اتحدا في طريقة التفكير والمسار، مما يؤكد على الخلل الواقع ويساند الرأي الذي ذهب إليه الباحث.

وأصاب السهو هذه الشخصية مرة أخرى عندما عبر الكاتب عن النجاح الذي تمتع به (ماجد)، فاستخدم خطأً اسم (يعقوب) – مدير المدرسة – "نمت أعمال يعقوب بوتيرة أسرع مما توقع الكل، وأولهم أبو يعقوب. لم تمض سوى سنة وعدة شهور حتى بدأت ملامح أبنية المجمع السكني تصعد، معبرة عن روح وثابة وهمة عالية.....لم ينتبه أحد إلى ذلك النهوض الذي بدأ

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٠٤.

يخرج عن مساره ومحوره ماجد بو يعقوب! كان ماجد طموحا يراقب نمو إمبراطورية المال التي أصبح أبو يعقوب ترسا لا لزوم له فيها!".[١]

يتنبأ المتلقي بالدور السلبي الذي سيمارسه (ماجد) على سياق السرد الروائي القادم، فهو شخصية متعجرفة، حاد الطباع، ثائر على عادات والده ومتحديا إياه، ويصف الراوي هذا النجاح الممزوج بسوء الطبع، والكبرياء المصطنع، بعبارته "كان ماجد طموحا يراقب نمو إمبراطورية المال التي أصبح أبو يعقوب ترسا لا لزوم له فيها!"[٢]، فقد أرادت هذه الشخصية التخلص من سبب نجاحها، والمصدر الأساسي لدعمه المتمثلة بوالده، فقط لأن (بو يعقوب) شخص محافظ يخشى أن يخالط ماله شيء من الحرام.

راقب (ماجد) الحالة الإيجابية والقائمة على الحب الممزوج بالاحترام المتبادل بين والده (بو يعقوب) ومساعده (عبد الكريم سمارة)، ولكن لم يكن معجبا بهذه المكانة التي وصل إليها (عبد الكريم)، و وصل به الأمر إلى حد كراهيته والنظر إليه باحتقار كيف لا وهو خادمهم من وجهة نظره، فهو شخص لا يعترف بالأخلاق السامية والعاطفة الصادقة، لذلك أنكر وجود (عبد الكريم) داخل بيت (بو يعقوب) الذي يعد أمواله، فدار هذا الحوار بين (ماجد) و (عبد الكريم) والذي يعكس حالة الحقد والكراهية التي وصل لها (ماجد)

"وين بو يعقوب؟

في الداخل ذهب لشأن من شئونه.

ويش تسوي هنانا إنت؟

انتظره. طلب مني الانتظار هنا، ولم أغادر مكاني.

كاد الحوار أن يتدهور، وكان مقدرا له أن يتطور بسرعة، فيمضي إلى أزمة أو مأزق، لولا أن دخل أبو يعقوب، الذي قرأ نذير العاصفة ...قال: هلا ماجد كنت أعد البيزات ما قدرت...

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣٨.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣٨.

حسب ماجد أن بو يعقوب يعرّض به، ولقد كان بالفعل يقوم بذلك، لكن الذي آذاه أنه يفعلها قدام عبد الكريم سمارة... هذا الوغد الصفيق! هكذا حدث نفسه قبل أن يغادر مغتاظا متجاهلا تماما وجوده".[١]

راقب (بو يعقوب) بحذر مشوب بالخوف الحالة التي وصل إليها ولده الأصغر (ماجد) فهو حديث سن، وطائش، ومندفع، وزيادة على ذلك فقد قتله الغرور وحب الذات، ويعبر (بو يعقوب) عن قلقه "ما يقلقني .. أنه لا يكبر على رجحان عقل واتزان، وإنما على صلف وغرور ونمو قوة .. الذي يكبر على هذا يصعب تقويمه ورده إلى صوابه".[٢]

هذه المعالم الأخلاقية التي كست صاحبها دفعت (ماجد) لارتكاب أول حماقاته المباشرة، ضد الإنسان الفلسطيني رمز القهر والحرمان، لم يراعِ حرمة لأرضه المنهوبة، ولا لعائلته المنكوبة، ولا لفقره المدقع، وحاجته الآخرين. فلقد أضفى (أبو يعقوب) عطفه وكرمه على (صالح أبو سمكة) بأن منحه كفالة لتجارته المربحة في مجال الأسماك، ورسمت هذه الكفالة الأمل لهذه الشخصية التي عايشت شظف الحياة، ورفضت الركوع أمام الفقر والحرمان، ولكن سارعه سعار (ماجد ولد بو يعقوب) "أرسل ماجد إلى أبو[٣] سمكة من يبلّغه بأن عليه أن يدفع نصف أرباحه، منذ اللحظة التي أنشأ فيها مطعم السمك لأول مرة وحتى التي هو فيها! وقال الموفد بأنه إذا لم يدفع خلال عشرة أيام فسوف يقوم السيد ماجد بإغلاق المسمكة وبيعها بالمزاد"[٤]، دفع هذا الخبر (صالح أبو سمكة) إلى حد الجنون، وأدخله في حالة نفسية معقدة، واضطراب أصابه بحالة هستيرية قتلته فجأة أثناء قيادته سيارته في سوق السمك.

أما الحماقة الثانية التي أرتكبها (ماجد) ضد الفلسطيني المعذب، تكللت بوقوفه في وجه زواج أخته (حصة) من (عبد الكريم سمارة) بحجة أنه أجنبي لا يملك جاهاً أو مالاً يرتقي به إلى تلك المنزلة التي تؤهله لمناسبة عائلته ذات الحسب والنسب والمال، لقد تحدى قرار والده، وموافقة

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش ٢٤٢-٢٤٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤٤.

[٣] الأصح (أبي) ولكن جاء السرد بلغة فصحى أقرب إلى العامية.

[٤] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٩٤.

أخته، وأعلن حربه التي سيتوجها بطرد (عبد الكريم) من الأراضي الكويتية. رفع صوته في وجه (بو يعقوب) قائلا: "هذا الرجل مارق مأفون يعمل أجيرا عندنا! ماذا نقول لأهل الدّيرة! لم نجد بينهم من نزوجها له فعقدنا قرانها على أينبي؟! بو يعقوب يا والدي أعقلها تماما. كيف أقنعك ذلك الصعلوك بأنه أهل للزواج بشقيقتنا."[١]

تتكر (ماجد) للفلسطينيين، وتتكر له (زياد عبد الفتاح) كاتب رواية (دار الجيش)، فبمجرد عقد مقارنة بين نهاية كل من (بو يعقوب) و ولده (ماجد) نلحظ تعاطفا من المتلقي مع شخصية الوالد وموازرة من الشخصيات الأخرى له عندما أصيب بمرض عضال أتعبه وأوصله إلى حالة هي أقرب إلى الموت، وعند البحث عن نهاية شخصية (ماجد) لا يلحظ الباحث أية إشارة أو علامة تلمح إلى النهاية التي وصل إليها (ماجد)، وكأن الكاتب أراد أن يقنع المتلقي بعدم الجدوى في الحديث عن هذه النماذج السلبية، ويجب إنكارها جزاءً على أفعالها.

رجال الأمن وضباط الجوازات/ رواية ما علينا:

سادت الأجواء السوداوية المشحونة بموجات من الكراهية الممزوجة برفض الواقع المسيطر على حركة الشخوص المتفاعلة مع شخصية رجال الأمن المتمركزة في الموانئ والمطارات والمعابر العربية، فالشخوص الفلسطينية تقبع تحت نير التهجير ومع ذلك يتسلط عليها ضباط المباحث تارة، ورجال الأمن أخرى، وليس انتهاءً بـ "الشاويس البدين ذو الشاربين الكثين، المتمردين على منابتهما".[٢]

يمثل (نزار البطل) معاناة كل الفلسطينيين في كافة أرجاء المعمورة، فقد اصطدم بواقع أنه بلا وطن بعد أن طُرد عنوة وسلبت أرضه، وأصبح بلا جنسية تحميه، فلجأ إلى حمل الوثيقة التي تعطيه حق المغادرة دون الرجوع إلى البلد المصدر لهذه الوثيقة، ولجأ للتحايل على الأمر فاستخدم عددا من الجوازات المزورة له ولابنته الصغيرة.

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣١٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٧٥.

وعندما جاء القرار بالرحيل عن بيروت، خرج (نزار) إلى اليونان، وقرر منها التوجه إلى الإسكندرية المصرية للتخلص من ذكريات الحصار المجنونة في بيروت، ونسيان واقعه وأحلام صابرا وشاتيلا التي تلاحقه في كل وقت وحين، وعندما وصل إلى صالة القادمين استقبله الضابط بحديث جافٍ وسأله :

"من أين أنت؟

من أثينا.

أعرف، قبل ذلك.

من دمشق، وقبلها من بيروت.

أنت تونسي؟

من أصل فلسطيني، ذلك مدون على الاستمارة، وكذلك عملي، وسبب الزيارة".[١]

لقد حمل هذا الحوار كافة أشكال الصلف المعروفة، وزيادة على ذلك حملت نوعا من الجفاء الذي يتنافى مع التقاليد القائمة على الدم العربي المشترك. لقد رفض هذا الضابط ختم جوازه، ودفع بالجواز إلى الشاويش بجانبه لفحص اسمه ضمن قوائم ترقب الوصول، رغم سماح هذا الضابط لأصحاب الجوازات الأجنبية بالمرور "في بطن السفينة كان الشاويش لا يزال يقلب صفحات مجلده العتيقة بأناة .. يرفع إبهامه إلى شفتيه يبلله بريقه، قبل أن يهوي به على الصفحات التالية. هاهو يعثر على ضالته. توقف قليلا قبل أن يتناول ورقة صغيرة ليكتب فوقها ملاحظات استغرقته وقتا بدا له دهرا، قبل أن يدفع بالورقة إلى الضابط."[٢]

في هذه اللحظة يرتفع صوت الضابط معلنا السماح لزوجة (نزار) بالهبوط، وعدم السماح له وابنته الصغيرة بالهبوط من السفينة، متعمدا التفريق بين أركان العائلة الفلسطينية التي حاولت مقاومة الظروف، ولكن كان المؤامرة أكبر مما يتوقعون، وألتفت إليه قائلا: "سوف تنظر الإدارة في

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٧٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٨٠.

أمركما. انتهى دوري وسيقوم غيري بمتابعة الإجراءات. أما أنت فبإمكانك أن تغادري السفينة، وقتما تشائين".[١]

يحاول (نزار) اكتساب التعاطف، وتحصيل الدقائق التي تمكنه من حل مشكلته، لكن عندما يصل الأمر إلى نقطة قد تدفع الحوار إلى حالة ضبابية، يرتد (نزار) بالزمن عكسيا، مسترجعا ما دار في الشعبة السياسية عندما طلب منه الضابط بلهجة تحمل التهديد أن يمسك الأوراق ويكتب ماضيه وكل شيء يعرفه أو لا يعرفه، وعندما أقتنع بإمكانية النقاش والسؤال عن سبب توقيفه "رأى الضابط على حال من الغضب لم يشهد مثله في حياته. اتسعت عيناه وجحظتا وراح يرتفع بالثورة شيئا وشيئا في سرعة البرق. بدا غير مصدق حيث كان يتمتم وهو ينهض بالثورة: ماذا تقول .. بماذا تفوهت أيها المعتوه .. أكيد أنك لا تفهم، أنت مجنون لا تعرف .. أهبل ساذج أحمق."[٢]

في خضم هذه اللحظات القاسية الصعبة التي تهدف إلى تمزيق عائلة (نزار) الشيء الوحيد المتبقي. يفكر في سؤال الضابط عن سبب عدم السماح له بالدخول، فيستذكر صديقه (حمدان) الذي حاول التعبير عن رأيه وسؤال ضابط المباحث عن سبب احتجازه، فاكتفى هذا الضابط بكتابة عبارة (الجاسوس حمدان) فوق ملفه "لم يفتح أحد الملف بعد ذلك ليطلع عليه! وإنما تناقلوا حمدان سجنا بعد سجن، وتعذيبا بعد تعذيب على مدى ثلاث سنوات"[٣]، خاف (نزار البطل) خوفا قاتلا من النوع الذي يجمد الدم في العروق، فتصبح مهمة التفكير من النوع المستحيل.

منعوه من الدخول، وسمحوا لطفلته بالنزول مع والدتها. كانت لحظات قاسية تلك التي ينفصل فيها عن ابنته، زيادة عن انفصاله القهري عن وطنه. رفض العقيد المسئول البث في موضعه، وصدر القرار من الجهات السيادية العليا بإرجاعه وأخبره العقيد: "يا أخ نزار، سنتعامل معك وكأننا لم نقع على جواز سفرك، لم نره ولم نرك، وأنك لم تشأ أصلا أن تنزل من السفينة".[٤]

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٨١.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٧٦.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٧٧.

[٤] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٩١.

و(لعودة اليوسفي) الفلسطيني المهجر في رواية (ما علينا) مشوار آخر مع رجال الشرطة وضباطها، فبعد دخوله أحد البلاد النفطية العربية تسللا بقصد العمل، قامت الدولة بتنظيم الحملات التي تهدف إلى القبض على العاملين في أراضيهم بصورة غير قانونية، ويصف الرهبة المرسومة على وجوه هذه الجماعة التي قررت ترحيله "عندما أخذوني إلى الإدارة، أو ما يطلقون عليها دائرة المباحث، دخلت على ضابط يبدو أنه من رتبة أعلى. اعتقدت ذلك من اتساع الغرفة التي يشغلها، وضخامة المكتب الذي يحتله، ومن الوقار المصنوع بعناية والذي كاد يتسلل إلى كل شيء..... وهم يبتسمون بممارسة سلطة تذهب بك إلى وراء الشمس، فلا يجرؤ أحد أن يسأل عنك".[١]

لقد تفنن رجال المباحث العربية في إيذاء الشخصيات الفلسطينية، ولم يتردد هؤلاء الرجال في تقديم لائحة قوانينهم المبنية على أن المتهم مذنب حتى يثبت العكس، فقد اتهم هؤلاء الرجال (عودة) بأنه مخرب جاء لإفساد بلادهم وتخريبها وبث الدماء في إرجائها، على العكس من ذلك فقد توسم هذا الفلسطيني فيهم الأخوة العربية الصادقة المبنية على المحبة والمساندة ولكن كان مخطئا في اعتقاده فتلقى ألوانا من العذاب التي لا تليق بآدميته، وبلغ الأمر بهم من الخسة بعد ضربه بسرقة أمواله وخاتم والده، وترحيله على الطائرة التي عليها دون الالتفات إلى آلامه ومعاناته "جردوني من كل ما معي. نقودي وجواز سفري، وخاتم عرسي، وخاتما وجيها ومحترما ورثته عن المرحوم والدي. وأبتدأوا التحقيق!. ماذا جئت تفعل؟ اعترف. هل تدربت على استعمال السلاح، وأين؟ هل تنتمي إلى تنظيم، أو فصيل أو حركة.... من ...ماذا.... هل ....أين؟ ... متى؟...أسئلة متلاحقة...".[٢]

ولا تفارق الصورة السوداوية لرجال الأمن المنتشرين في المطارات والموانئ العربية الروائي (زياد عبد الفتاح) فعندما تقرر السلطات اليونانية التي استقبلت (عودة) أعادته إلى بلد عربي آخر على أمل السماح له بالدخول، فيصعد على الطائرة التي أوصلته إلى المطار العربي، وعندما جاء الشرطي "قال: إن اسم عودة اليوسفي ليس موجودا في السجلات أو بين الأسماء المسموح لها بالدخول. كما أن اسمه ليس على قائمة الممنوعين. أضاف الشرطي أنهم بعثوا ببرقية إلى الجهات

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٤٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٤٦.

المختصة صاحبة القرار، وأنهم تلقوا الرد سريعا فلا داعي لدخول عودة البلاد ويمكنه أن يعود من حيث أتى...".[١]

لقد تكالبت كافة الظروف على الفلسطينيين، ولم تدع لهم مجالا للحياة بكرامة، فلا زالوا يقبعون تحت الظلم الصهيوني، والحصار برا وبحرا وجوا، لكن لم يتركوا الأمل بالعودة إلى الأوطان....

ثالثا/ شخصية الرئيس العربي:

تعد القيادة السمة الأكثر تلازماً للإنسان في المجتمعات البشرية كافة، وكذلك في عالم الحيوان، وسنعني في هذا الموطن بالإنسان لكونه موضوع الدراسة مع شخصيات (زياد عبد الفتاح)، والقيادة متنوعة من حيث المفهوم فالقيادة في الدولة وفي الأسرة والتنظيم والمؤسسة ....., وبكل أشكال الحياة التي تتسع يوماً بعد يوم، وقد نال مفهوم القيادة اهتماماً كبيراً من المنظرين والعلماء، وسيتدرج الباحث لتحديد مفهوم القيادة .

فالقيادة هي القدرة أو القابلية على التأثير في الآخرين وتحفيزهم وتوجيههم لتحقيق غرض ما[٢]، وغالباً ما يتم الخلط ما بين القيادة والإدارة، فهما مصطلحان متغايران .

ولقد حفلت روايات (زياد عبد الفتاح) بصفة عامة برسم شخصية القيادي القائم على رأس الحكم في دولة كما هو الحال مع شخصية الرئيس العربي في رواية (وداعا مريم).

وسيعرض الباحث هذه الشخصية بشيء من التفصيل للتعرف عليها وعلى صفاتها التي اتسمت بها، وسأكشف سبب التركيز عليها مع رصد ملامحها الخارجية والداخلية، وأبعادها السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية .

والذي يتضح لنا أن هذه الشخصية تتسم بالظلم والاستبداد، لكن قبل الخوض في ماهية الشخصية نود توضيح مفهوم الاستبداد فهو لغة "غرور المرء برأيه والأنفة عند قبول النصيحة أو

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٦٤.

[٢] انظر: زياد النجار، الهندسة القيادية، معهد آفاق بلا حدود، دمشق، ٧٠.

الاستقلال في الرأي والحقوق المشتركة، واصطلاحاً هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف، والاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين".[١]

ويصف بعض الحكماء المستبد بقولهم: "المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته".[٢]

وقد يكون الاستبداد أو الاستبعاد من الدولة بصفة عامة على الشعب، أو من الرئيس نفسه أو من مجموعة من الأفراد يتلقى بعضهم عن البعض التعليمات، فهم مجرد أدوات في أيدي الظلم، ولعل الرواية السياسية الاجتماعية الحديثة تسعى لكشف ظلم وفساد وتجبر النظام، وطغيانه، كما وتكشف الأدوات التي يستخدمها من سجون ومعتقلات لسلب حقوق الآخرين وحرياتهم، وقاربت رواية (وداعا مريم) الواقع، وقد كشفت وعالجت قضية الاستبداد فقد رسم في هذه الرواية صورة الرئيس العربي المستبد وهو الشخص الذي يحكم البلد، وهو يرمز إلى حقيقة ما يجري في الوطن العربي، وهي رواية من أنضج ما كتب زياد بصورة فنية متقنة، من غير تدخل مباشر أو صريح في سياق السرد، ومن غير خطب ومواعظ يعبر من خلالها عن فكرته. إلا أن هذه الرواية تترك المجال للقارئ ليستنتج حقيقة البلاء الذي عم البلاد من خلال رسمه لشخصية (الرئيس) والوقوف على الماضي الذي صنع هذه الديكتاتورية.

شخصية الرئيس العربي هي شخصية قامعة مرهوبة الجانب، وهي عكس الشخصية الجاذبة التي تعد محط جذب الشخصيات الأخرى وذلك يعني أن هذه الشخصية منفرة وليست مرغوبة من قبل الشخصيات التي تتعامل معها، ولكن إذا كانت تلك الشخصيات تتعامل معها فالوضع يكون مختلفاً كلياً وذلك لأنها مستفيدة منها.

---

[١] عبد الرحمن الكزكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، القاهرة، ٣٧-٣٨.

[٢] عبد الرحمن الكزكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، القاهرة، ٣٨.

ومن الجدير ذكره أن وجود هذه الشخصية في الرواية أمرٌ مرغوبٌ فيه من الناحية الفنية لأنه يخلق عنصري الدراما والصراع، وهما من العناصر المهمة في عملية تشويق القارئ، كما تسمح تلك الشخصيات للروائي بأن يبث أفكاره ورؤيته، ولكن يظل دورها الأساسي هو خلق الصراع "فلكي يكون في صراع، وكي يقع حدث، لا بد من ظهور قوة معاكسة تصنع الحوافز والعراقيل أمام الشخصيات وتمارس عليها سلطتها، ومعلوم أن السلطة هنا مأخوذة بمعناها الحرفي، وليس الرمزي، أي بما هي علاقة بين فاعل ومنفعل، والشخصية المرهوبة الجانب ذلك الطرف في هذه العلاقة، الذي تمثله التي تتصرف من موقع قوة ما وتعطي لنفسها حق التدخل في تقرير مصير الفرد أو الأفراد الذي تطالهم سلطتها".[١]

قدمت رواية (وداعا مريم) ملخصا فنيا، لعاهات الرئيس العربي المستفزة، والظروف المؤثرة في تنامي هذه الشخصيات، كما سلطت الضوء على ما يدور في السراديب والغرف المغلقة التي لا تصل إليها عيون الشعوب المقهورة والمظلومة، كما ساهمت هذه الرواية في كشف الحقيقة المرة ومقدار الظلم الممارس على الشعوب العربية.

لقد كانت (مريم) التي يتربع اسمها عل غلاف الرواية، رمزا للحرمان والاضطهاد الممنهج الذي يمارس ضد الشعوب، فلقد أعجب بها مستشار الرئيس الخاص ونشأت بينهما علاقة من الحب، لكن الأمر لا يرضي هذا الرئيس البشع في أطباعه والقبيح في شكله، فقرر تدبير المؤامرة وفصل بين الحبيبين: مريم والمستشار، لقد قامت رواية (وداعا مريم) بكشف الطباع النرجسية التي تمتع بها الرئيس ومحاولاته المستمرة لإخفاء عيوبه، والتستر وراء النعرات الكاذبة، والمبادئ المصطنعة.

لقد دافع الرئيس العربي عن حكمه بشتى الطرق، وجعل من نفسه عالما بأمور الدين، وأمور الحياة، وأعتقد أنه بعلمه قادر على استصدار المراسيم التي تحل مشاكل الآخرين بغض

---

[١] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء والزمن والشخصية)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م، ٢٧٠.

النظر عن رأي الدين، أو الفرع، أو الأعراف في قضاياه، فحكم بأحكام لم تنزل السماء لها سلطان، ولم تمر على أهل الأرض من قبل.

دار في فضاء الرواية الفني عدد من الشخوص الرئيسة التي تفاعلت مع الشخصيات الثانوية، عكست هذه الشخصيات وجهة نظرها وفهمها لشخصية الرئيس من خلال الحوار والسرد والتفاعل مع الشخصيات الثانوية. وقد تمثلت الشخصيات الرئيسة في (الرئيس) و(المستشار) و(مريم) التي تفاعلت في سياق الحدث مع الشخصيات الثانوية الأخرى.

قامت هذه الرواية على تقنية الاسترجاع، وانقسم الزمن فيها إلى زمنين، زمن الرواية الحقيقي الذي يبدأ من فجر أحد الليالي التي يغضب فيها (الرئيس) فيأمر حراسه باستدعاء (المستشار) الذي يبدأ باسترجاعه ذكرياته والارتداد زمنيا إلى مرحلة طفولته، واستكشاف اللحظات التي جمعته بالرئيس وطريقة تعامله مع الأمور والظروف التي صنعها لخدمة ذاته وإيصاله إلى سدة الحكم.

ليس سهلا اكتشاف نهاية الحبكة الفنية في سياق الرواية، ولم يستطع التوقع بمجريات الحدث، فعندما أمر (الرئيس) بتزويج (زوجة معاونه) لأحد الحراس، بعد أن أصدر فتواه المشهورة (فتوة التجحيش)، هربت الزوجة برفقه الحرس، وانتحر المعاون.

أيضا لم يتوقع المتلقي أن تكون (مريم) مدبرة شؤون منزل المستشار، هي ذاتها محبوبته التي فرق بينهما الرئيس، وكذلك فإن نهاية هذا الرئيس كانت ثلاث رصاصات تلقاها من (مستشاره) أردته قتيلا.

أغرقت الرواية في استخدام الرمز، ولم تسجل تصريحا مباشرا يؤكد على عروبة هذا الرئيس، لكن أفصح الراوي بطريقة أو بأخرى على انتماء هذا الرئيس إلى أحد الدول العربية واعتناقه دين الإسلام، وسيسعى الباحث لرصد هذه الإشارات الواردة في سياق السرد الروائي وتسجيلها.

(مريم) الفتاة التي أعجب بها المستشار، ولعبت الظروف دورا في توطيد العلاقة بينهما، والتي كانت ضحية لألاعيب الرئيس ونزواته، استطاعت تجاوز هذه المحنة، وتزوجت أحد الضباط

مدة لم تتجاوز سوى سنوات خمس بعدها "استشهد زوجها في حادث، أثناء أحد المناورات العسكرية"[١]، والشهادة هي اللفظ الدال على التضحية والفداء في المصطلح الإسلامي، وقد يستخدمه العرب من غير المسلمين.

استخدم الرئيس بعض المصطلحات التي تدل على عروبته، فقد كان "يقول لمن حوله واصفا الديكتاتور (قالوا يا فرعون مين فرعنك. قال ما لقيتش حد يردني)"[٢]، كما أنه أمتاز بعض الصفات التي تؤكد علي عروبته فقد حرص على قرض الشعر، ومتابعة الأمسيات الشعرية "فإنه أعرض عن ممارسة هوايته. مثلما أقلع من قبل عن قرض الشعر، وإن ظل فيه حنين جارف لم يصرفه عن متابعة المعارض، والأمسيات الشعرية، ونشاطات ثقافية أخرى"[٣]، كما كان له هوس ببعض العادات التي ترجح ما ذهب إليه الباحث من انتمائه إلى أصل عربي فهو يقوم "بافتتاح مزرعة لتربية الخيول العربية الأصيلة"[٤]، ويمتطي حصانه (الأبجر) ويحمل اسم الحصان أيضا الرمزية العربية.

ورد في سياق السرد أيضا بعض الإشارات التي تؤكد انتماء هذا الرئيس إلى دولة عربية، ففي لقائه مع الصحفيين "سحر الرئيس الحاضرين، بطلاوة حديثه وتدفق معارفه، حتى أن أحد الصحفيين الغربيين ...."[٥]، فهذا الصحفي غربي، وليس من بلد عربي، ومصطلح الغربي يستخدم في الدول العربية للإشارة إلى غير العربي.

أما في سياق السرد المتعلق بالمواطنين في بلد الرئيس، فإنهم مسلمون. فعندما نجا الرئيس من أحد الحوادث المصطنعة، يقوم المواطن البسيط ناهرا زوجته "قومي يا امرأة وجهزي سجادة الصلاة، ريثما أتوضأ لنصلي معا صلاة الشكر لله، أنه أنقذ رئيسنا وأنقذنا"[٦]

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٨٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١١٦.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٩٤.

[٤] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٢١.

[٥] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٢٤.

[٦] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٣٦.

وعندما يتدخل الرئيس لفض الخلاف الواقع بين معاونه وزوجه، حيث "أن الطلقة التي أوقعها المعاون كانت بائنة، فإن الرئيس أفتى بتجحيش الزوجة قبل أن تعود إلى زوجها حلالا خالصا"[١]، وتشير العبارة إلى الأحكام الدينية السائدة في بلد الرئيس، والموجودة فقط في البلاد العربية والإسلامية.

ويعلن الكاتب في روايته أن هذا الرئيس عربي "كان أحد البلدان الأوربية يعيش حدثا من نوع آخر. أزمة لا تشهدها بلدان مثل بلد الرئيس، ولا تدور في خلد مسؤوليها"[٢]، وبذلك فصل للمتلقي بين العوالم التي قد تتداخل في سياق السرد، فهذا الرئيس عربي بامتياز، ولا يمكن الشك بتلك الفكرة.

وفي إشارة أخرى تسجلها الرواية، تنفي الشك القائم بانتماء الرئيس إلى دول العالم الثالث والعربية منها تحديدا، بل واعتناقه دين الإسلام، فتأتي هذه الرواية على لسان أحدى الشخصيات المكملة للحدث "وفي هذا سرد لي الرئيس قصة أتى عليها كتابهم المقدس في سورة الكهف: فقد التقى موسى بأحد الحكماء المعروفين...."[٣].

يتضح للباحث حجم البلوى التي وقعت على كاهل الشعوب العربية المبتلاة بحكام يميلون إلى ممارسة نزواتهم الخاصة، وممارسة طقوسهم التي تهمش إنسانية شعوبهم، وتنال من قدرتهم على الحياة بكرامة وعزة، هذه البلوى التي منعت الكاتب (زياد عبد الفتاح) من التصريح العلني أننا أمام رئيس عربي من النوع الساعي إلى السيطرة المطلقة، وبسط نفوذه القائم على البطش والظلم والاستبداد.

لم يسجل الرئيس عملا خيرا واحدا يشار إليه أو يضاف إلى سيرته، أما الأعمال الشريرة التي تسعى إلى إشباع رغباته وسكناته الشاذة عن التصورات الآدمية، فهي غيض من فيض ملأ الصفحات الروائية.

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٣٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم،١٦٥.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٦٨.

يبدأ المستشار باسترجاع الماضي الذي جمعه بصديقه الرئيس، بعد أن طرق حرس الرئيس أبواب بيته في منتصف الليل، فقد جمعتهما طفولة غريبة، وكان هذا الطفل بمواصفات خاصة، لقد كان فقيرا لكنه قام ببعض الممارسات الخارجة عن المألوف، فلم يتعود البكاء رغم حداثة سنه وإن تعرض للعقاب من معلميه، كما تمتع بقدرة مذهلة على التمثيل، واندمج في لعب الأدوار بذكاء واحتراف، وإن حلت مناسبة حزينة فإن هذا الطفل يشرع بالبكاء الذي تنفطر له القلوب، ولا يتوقف إلا بعد أن يشعر أنه قد تسلل إلى قلوب أصحاب هذا الحزن "كان يسخر ذلك كله من أجل ارتقائه الذي بدأه مبكرا، ورعاه خطوة خطوة في امتداد سنوات العمر. كان ينبت في كل مناسبة ليطل عليها ويشارك فيها بنشاط وهمة لا تفتر ولا تلين. كان الحماس دائما يملؤه، والحيوية لا تفارقه، فغدا بذلك قبلة الأنظار والقلوب."[١]

أما عن المرحلة الثانوية التي جمعت المستشار بصديقه الرئيس، فيسجل تفاصيلها المستشار الذي يسترجع ذكريات الأحداث التي جمعته بالرئيس، محاولا الربط بين ممارساته الغريبة في صغره وحاضره المبني على التسلط وحب الذات والتصرفات الرعناء، ومحاولة الوصول إلى إجابات مقنعة هل وضع الرئيس هدفه منذ صغره ونجح في تحقيقه، أم كان الرئيس بنظرة متمادية، ويستبق الزمن ليؤسس فلسفته الخاصة التي بنى على أساسها دولته فيما بعد، فيعود المستشار إلى الأحداث الإعلامية التي يراجع الرئيس تفاصيلها بدقة متناهية، ويراقب ما ألت إليها الأمور بمراقبة المحطات التلفزيونية، والأشرطة التسجيلية، ويعود المستشار بالزمن إلى المرحلة الثانوية التي حرص الرئيس فيها على الظهور بالصورة التي يريدها ملاحظا أدق التفاصيل من تعابير الوجه، والخلجات والسكنات، لذلك "فإنه اشترى حين كان في المدرسة الثانوية، مرآة تفيض عن حجمه. تبثها فوق جدار غرفته، التي كان يحلو له أن يهجع إليها ليمارس عشقه المدمر لأدواره المختلفة المترواحة. وكان يقف أمام المرآة ساعات وساعات، يستعرض عبرها تنامي قدراته حتى أنه لم يترك جزءا من جسده، ولا عضوا من أعضائه، دون تدريب."[٢]

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٥٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٥٦.

لم يتراجع الهوس الذاتي، وحب النفس المسيطر على الرئيس في حياته الجامعية، بل كان الأمر على العكس تماما فقد زاد حبا للظهور بمظهر تدرب عليه وأتقن تفاصيله أمام مرآته الخاصة أكثر من مرة، وخصص له جوقة خاصة أحاطت به في مناسباته المصطنعة، فقد تدرب في مناسبة وطنية على خطبة أراد لها أن تجمع المؤيدين حوله " ومن أجل ذلك أرسل إلى ثلاث صحف يومية نص إعلان موحد مدفوع الثمن، تنشره في صفحاتها الأخيرة. وفي الصباح المحدد فيما كان يتصفح الصحف الثلاث بتؤذة وأناة، أكتشف أن أيا من تلك الصحف لم تنشر إعلانه"[١]، ثار الرئيس الذي لم يكن رئيسا حينها، وأصبح كبرميل بارود عندما لم يحضر خطابه سوى عدد قليل من مريديه. "وقد اعتذرت الصحف، فيما بعد بأنها لم تجد فوق صفحاتها مكانا خاليا تنشر فيه إعلان الرئيس"[٢].لكن الرئيس لم يستسلم لهذه الأعذار وبدأ بملاحقة قضائية للصحف الثلاث، وعندما حاول المستشار إقناع صديقه الرئيس بعدم جدوى الأمر، أجابه: "ذلك هو الفرق بيننا يا عزيزي، أنا أتابع الأمر مهما يكن الأمل فيه ضئيلا .. أضل ألاحق بصيصه، وهو ينمو لحظة بلحظة. كلما خبا أو كاد، أنفخ فيه من حشاشة روحي...."[٣]

تفنن الرئيس في إقناع ذاته بالتمييز عن الآخرين، وأنه الأفضل، ولأنه تأخر في زواجه، وسبقه إلى الحياة العاطفية صديقه المفضل ومستشاره، فإن الرئيس قرر دس أنفه في حياة مستشاره الخاصة، والوصول إلى (مريم)، والإيقاع بينها وبين حبيبها، وصديقه المستشار، فقط لأن المستشار غلب الرئيس وفاز بفتاة، ولم يفعل ذلك الرئيس.

دبر الرئيس مؤامرة أمسك بزمام خيوطها بيده، وأرسل مستشاره في موعد سري إلى لقاء معد في شقة في إحدى البنايات، وقد أخبر (مريم) أن مستشاره خائن ويتردد على شقة بها معشوقته، وأنه يكذب عليها، واصطحب (مريم) إلى ذات البناية وصعد السلم قبل وصول مستشاره، ووصل المستشار إلى موعده وشاهدت (مريم) حبيبها يدخل الشقة برفقة فتاة "هكذا انتهى السيناريو الذي وضعه الرئيس وأراده، وخطط له. تماما كما يحب ويشتهي. كانت المشاهد متقنة ومقنعة وفاصلة.

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٦٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٦٠

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٦٣.

فانتهت بذلك قصة ذلك الحب، الذي كان يصعد نحو ذروته وئيدا وألقا، حميما وحارا. بمؤامرة من الرئيس، أراد لها أبعادا فاجعة تليق بمهاراته التي نمت خطوة خطوة..."[١]

ويحاول المستشار –بعد اكتشافه المؤامرة– تصور الدوافع التي جعلت الرئيس يقوم بفعلته غير المستصاغة، و يتساءل معتمدا على تقنية المانلوج، هل أحب الرئيس مريم لذاته؟، ولكن سرعان ما تفارقه هذه الفكرة لأنه لو أحبها لتمسك بها وتزوجها، فقد مسحها من ذاكرته. ويتساءل هل يوجد مشكلة جنسية في الرئيس لذلك لا يريد أن يتفوق المستشار عليه؟ ولكن يستذكر أنه رصد الرئيس في طفولته يمارس الاحتلام "على أن الرئيس، لم يخل بالفتاة، ولا حاول إغواءها أو التغرير بها. بالمقابل، فإنه لم يضع في برنامجه التضحية بأهدافه الكبرى، فيتزوجها. كان كل همه إثبات تفوقه في ذلك المجال الحيوي الذي فاته. فكان له ما أراد".[٢]

لم يكن أحد ممن أحاط بالرئيس بعيدا عن الفتك والظلم والاعتداء وبخاصة في حالات الهيجان التي أطلت مرات ومرات على الرئيس، فقد كان بحالة عصبية متقلبة، ولم يكن يعرف موعدا محددا للنوم، ولم يستطع مساعدوه الوقوف على أسباب غضبه لعلاجها، أو البعد عنها، ولم يتوان بالفتك بمساعديه ففي ليلة واحدة دفع إلى السجن بمدير مكتبه، ورئيس حراسه، والنائب الأول لرئيس الحراس، وحار النائب الثاني ماذا يفعل أمام غضب الرئيس "لقد كان من الممكن، قياسا على ما حدث من سجن رئيس الحرس ونائبه الأول، ثم مدير مكتب الرئيس، استخلاص أن الرئيس يخذل حراسه ومعاونيه. وأن من هم في السجن منهم، أضعاف أضعاف الذين خارجه...".[٣]

أحب الرئيس الأطفال، وأصطنع التودد والقرب منهم، وحرص على حمل قطع الحلوى في جيوبه لخطب ودهم، ودعا حراسه أيضا إلى حمل قطع الحلوى في حالة وجود عدد أكبر من الأطفال، مع ذلك "لم ينجب الرئيس، هل كان ذلك لأنه لا يحب الأطفال أم لأنه لا يقر بامتياز أن

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٨٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٨٨.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٩.

يكون من صلبه! ربما لهذا السبب أو ذاك، وربما للسببين معا. أو ربما لسبب آخر، بعيد البعد كله، عن اختياراته ورغباته".[١]

تزوج الرئيس، ولم تظهر زوجته إلا في مرات ناذرة، وكان لها جناحٌ خاصٌ في قصر الرئيس، ولم يكن يزورها في جناحها إلا في مرات نادرة. لم يشاهد أحد زوجة الرئيس سوى الحرس الخاص جدا، ولم يعلم أحد سبب فتور العلاقة بين الرئيس وزوجه "هل كان يقضي منها وطرا، أم كان يكتفي بالرقاد؟ لا أحد استطاع أن يؤكد ولا أحد نفى. بل لا أحد جاهر قط بمثل ذلك التوكيد أو النفي. على الرغم من أن السؤال كان يتردد خفية في ضمائر وأذهان المحيطين به".[٢]

لم يتردد الرئيس ولو لحظة واحدة في تدبير المكائد لرجال دولته، وكان حريصا على الإيقاع بهم وتصويرهم في أوضاع مخلة، وتخصيص الملفات لتسجيل مخالفتهم وشذوذهم وأفعالهم القبيحة ويتحين الفرصة المناسبة للفتك بهم، فهو "لم ينس لصديقه أنه شبهه بالكلب. لقد أضمرها له حتى حانت اللحظة فانتقم منه, ونكل به تنكيلا ألقى الرعب في قلوب المحيطين والأباعد. حقودا كان الرئيس وداخله أسود، وفي قلبه غل لا يمحوه الزمن ولقد نما حقده واستشرس مع تقدمه في الريبة والشك، فأقض بذلك المضاجع القريبة والبعيدة".[٣]

خدع الرئيس شعبه، وكافة المحيطين به، وأتخذ من الكذب طريقا سائغا للوصول إلى ما يريد وما لا يريد، وأحاط نفسه بهالة من الضبابية منعت عن رعيته معرفة سيرته أو خبره، وجهز جهازا إعلاميا يقوم بترويج ما يخطر بباله، ويعطي الانطباع المصنوع لعامة الشعب، فعندما سقط عن حصانه عندما أدعى الفروسية وأصيب على أثرها "اقترح عليه خبراؤه عليه أن يقوم بزيارة إلى حيث ترابط الجيوش فوق ثغور الوطن، وفي خط الاشتباك مع العدو نصحوه بأن يأمر ببعض التدريبات الحية، التي يشارك فيها على الأثير. ثم يخرج بعد ذلك ببلاغ إلى المواطنين، يروي أن الرئيس المفدى، والقائد الأعلى للقوات قد أصيب. حينما كان يشرف على إحدى المناورات العسكرية

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٠٦.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم،١٠٦.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١١٥.

فوق الجبهة. وأن الله حماه وأنقذه، رحمة بشعبه ولطفا بمريديه الذين يكونون أيتاما، لو قدر الله إصابته بمكروه."[١]

كان هذا الرئيس الحاكم لبلد عربي بحالة من الظلم والاستبداد وصلت أبعد الحدود، ولم يقتصر ظلمه على عامة الشعب فقط، أو معاونيه، أو الأبعاد وربما الأقارب فلا أحد إلا وناله نصيب من القهر والاضطهاد، وتسوق رواية (وداعا مريم) بين سطورها حادثة سماها المستشار بحادثة (التجحيش)، لأن الرئيس أمر بتزويج أو (تجحيش) زوجة معاونه لوقوع طلقة بينونة عليها، وأختار لها أحد حراسه عريسا على أن يطلقها بعد أيام ثلاثة، وقد رفض المعاون هذا الأمر، إلا أن قرار الرئيس قد صدر ولا يملك بعدها أحد الاقتراح أو مناقشة الأوامر، لكن تقع المصيبة وهي هروب زوجة المعاون برفقة الحراس، ولا يجدان مكان أفضل للاختباء من جناح زوجة الرئيس ويستمر البحث عنهما إلى أن يدخل الرئيس جناح زوجته ويكتشف الأمر، وتبدأ الكارثة التي "لم تقتصر على اختفاء الحارس فلا تعرف له الجوارح مكانا. وإنما تجاوزته إلى مدير المخابرات، الذي ضاع كل أمل في العثور له على أثر. أما زوجة المعاون فقد انتهت جثة هامدة في حادث صدام مروع، صعدت فيه إحدى الشاحنات المجهولة فوق سيارتها وولت الأدبار".[٢]

وفي حادثة أخرى تدلل على مدى حماقة الرئيس، واستخفافه بشعبه، وتسفيه رأي الآخرين، فقد حلت بدولة متقدمة مشكلة اجتمع أهل الحل والعقد لدراستها ووضع الحلول المناسبة، تمثلت المشكلة بالنفايات النووية الناتجة عن بعض الصناعات والمخلفات العسكرية، وقد رفض هؤلاء المجتمعون رفضا باتا الحلول المتمثلة بدفن النفايات ضمن حاويات خاصة، أو إلقائها في أعماق البحار لما لهذه النفايات السامة من أضرار على صحة أبنائهم، وسلامة بلدهم، لذلك فقد قرر المجتمعون إيجاد وسيط يقوم بدوره بإقناع الرئيس لاستقبال النفايات ودفنها في بلده، "قال الرئيس للوسيط، الذي اصطاد، من جديد، موعدا جمعهما على انفراد في حضرة المستشار، الذي أومأ الرئيس بأن لا أسرار عليه: لا بأس. كم قلت؟ مائة مليون!! إنه مبلغ معقول، ولدينا صحارى

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٣٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٥٣-١٥٤.

شاسعة وليس هناك من ضرر، ما دام بلد صاحبكم يضمن للنفايات مراسم دفن لائقة. إنهم متقدمون، ويعرفون كيف يعالجون هذه المسائل".[١]

طفح الكيل بالمستشار بعد استرجاعه هذا الكم الهائل من الذكريات التي جمعته بصديق الطفولة الذي أصبح رئيسا، لقد كانت جميع الحوادث بطابع مساوي، تأذى على أثرها المستشار نفسه، و(مريم)، والمعاون وزوجته، ورئيس المخابرات، ومدير المكتب، ومسئول الحراس ونائبيه، والعديد من المسئولين، والضباط، والجنود، وفوق كل ذلك الشعب الذي أُنتهكت كرامته ومرغت بالتراب، قام المستشار وتوجه نحو الدار الرئاسية، لم يعارض أي من الحراس دخوله، ووصل إلى مكتب الرئيس الذي لم يرد له التحية واقترب منه ثم "اختار المستشار نقطة في المساحة الصلعاء عند أخمص الرأس. مساحة ما بين الدماغ والذاكرة. وأطلق فوقها رصاصة الرحمة. لا ليست رصاصة واحدة .. بل رصاصتان ..ثلاث .. تفجر الدم شلالا لطخ الجدار خلف قامة الرئيس، وتحت صورته الرئاسية. دم أحمر قان. دم أسود، وأخر أحمر....".[٢]

لقد أغرق الكاتب في وصف اللحظة التي لقي فيها الرئيس حتفه، في محاولة لترهين الزمن، لإعطاء المتلقي فرصةً أكبر للإمعان في نهاية الرئيس الديكتاتور والمتسلط، الذي حمل شخصية سلبية على طوال القص الروائي الموسوم ب(وداعا مريم) للروائي الفلسطيني (زياد عبد الفتاح).

تجدر الإشارة إلى أن هذا النمط من الشخصيات في رواية (وداعا مريم) هي شخصية قامعة تمثل السلطة، ولعل حضورها له دلالات فنية، وأهداف داخل (زياد عبد الفتاح) نفسه حيث أنه كان مسكوناً بهاجس القمع على طول رواياته، فنلمحه يصور شتى صورا لأشكال القمع مثل: قمع رجال الشرطة والمباحث وقمع بعض الشخصيات العربية المُحبطة، وقمع أبناء القضية الواحدة.

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٨٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٢٣٣.

(فزياد عبد الفتاح) يحمل ألم الواقع الذي يعيشه الفلسطيني صباح مساء، وهو دائم الشعور بمعاناة الضحايا الذين وقعوا أسرى لتلك القوى القامعة .

نستطيع القول من خلال تلك الشواهد السابقة الذكر، إن (زياد عبد الفتاح) قد عني بشخصية القامع الذي كان مصدراً من مصادر رعب الشخصيات الأخرى، وكذلك مصدراً لرعب المجتمع عامة، كما أنه قد نجح في تصوير الديكتاتورية العربية القائمة على كبح الحريات وحرمان الشعوب العربية من الديمقراطية التي طالما نادي بها الرؤساء العرب لكنها كانت مجرد شعارات زائفة لا أكثر.

رابعا/ شخصية المرأة العربية:

حظيت المرأة بمكانة عالية داخل المجتمعات الإنسانية الواقعية، وشكلت حضورا في الأعمال الأدبية الأولى، فشعراء العصر الجاهلي وقفوا على الديار، وبكوا الدمن، واستذكروا محبوباتهم، ثم تطورت الأعمال الأدبية بشقيها الشعري والنثري على مدى العصور الأدبية، ولم تغادر المرأة عتبة أي عمل.

واكبت المرأة حضورها في الرواية، وزاد حضورها في سياق السرد الروائي، حيث زادت مكانة المرأة وأصبحت جزءا من الصراع المجتمعي، فالمجتمع أصلا ينشأ عن علاقة بين رجل وامرأة، وبها يحقق المجتمع كيانه. فالمرأة "وسيلة الاتصال البيولوجي والاجتماعي بين الأجيال. بمعنى أن التوالد لاستمرار الأجيال لا يتحقق دون اهتمام كائنين لا غنى لأحدهما عن الآخر، وهما الرجل والمرأة".[١]

ومن الجدير بالذكر أن كل مجتمع قد نظر للمرأة نظرة خاصة، فمنهم من رفع من شأنها ومنحها مكانة عالية، وعلى النقيض فبعض المجتمعات قد حطت من قدرها. والمرأة عالم ملئ بالأسرار يصعب الكشف عن مكنوناتها "وبالرغم من الاهتمام الكبير الذي حظيت به المرأة، منذ

---

[١] زيدان عبد الباقي: المرأة بين الدين والمجتمع، سلسلة الثقافة الاجتماعية الدينية للشباب، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٧، ١٥.

العهود القديمة حتى يومنا هذا، فإنها ستظل فيما نعتقد مجالا مفتوحا للكتابة والإبداع، لكونها تحتمل قراءات ذات مستويات متعددة".[١]

كما حظيت المرأة باهتمام أغلب الروائيين، حيث جعلها البعض مرتكزا أساسيا لروايته من أجل تسليط الضوء على قضية ما، كما جعلها بعضهم سندا وعضدا للرجل في مواجهة صراعات الحياة، فكانت المرأة الأم، والمرأة الزوجة، والأبنة، والمناضلة، والعاشقة، والأعمال الروائية زاخرة بهذه النماذج التي سعت العديد من الدراسات والأبحاث لرصد تفاعلاتها الروائية.

ومن خلال قراءة الأعمال الأدبية الروائية للكاتب الفلسطيني (زياد عبد الفتاح) رصد الباحث العديد من النماذج النسائية، وقد سجل الفصل الأول قسما لدراسة المرأة الفلسطينية ونضالها من أجل زوجها وقضيتها، كما سعى الباحث في الفصل الثاني إلى رصد أهم النماذج النسائية العربية وموقفها من الفلسطينيين في رواية (دار الجيش)، وموقف المرأة من الحياة وظلمها في رواية (وداعا مريم) التي حملت اسما لأنثى، لتعكس هذه الرواية مدى اهتمام صاحبها بتسليط الضوء على المرأة وتقديم نماذج متعددة لها.

مريم/ رواية وداعا مريم:

لم ترتبط رواية (وداعا مريم) بالقضية الفلسطينية، ولم تكن (مريم) مثالا للشخصية المناضلة، أو زوجة لمناضل أو فدائي نذر نفسه لقضيته ووطنه، كما أغلب الروايات الفلسطينية، فقد تجاوزت هذه الرواية الحدود المكانية، وسعت لرسم صورة حقيقية تغوص في أدق التفاصيل المتخيلة لحياة رئيس في دول العالم الثالث وبالتحديد في الدول العربية، وجاءت (مريم) أنموذجا للمرأة الطاهرة والفتاة الشريفة التي تسعى لرسم أحلامها الوردية، على جانبي طريق الأمل، ولكن تسوقها الأقدار إلى حب شاب وسيم ومتألق ولكن يعاني من مشكلة، فهو مستشار رئيس البلاد، ورأى الرئيس أن مستشاره قد تفوق عليه في الجانب العاطفي، فوضع خططه للنيل من صديقه ومستشاره، وعزم على التفريق بين العاشقين، فكانت (مريم) ضحية للمؤامرة، وألقي بها خارج المشهد بلا أدنى رحمة أو شفقة.

---

[١] علي افرفار: صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٦، ص٥.

حضرت (مريم) في سياق السرد الروائي المعنون (بوداعا مريم) على صورتين: أولهما الحضور المباشر، حيث قامت بفتح باب بيت المستشار لحراس الرئيس، وقد قدم الكاتب وصفا دقيقا لهيئتها في ترهين واضح للخطاب يعكس الدور المنوط بها في سياق القص وتفاعلات الرواية، "وانفتح الباب مواربا .. كانت مريم، مدبرة بيت المستشار، منفعلة وهي تفتح الباب. وقد ارتدت قميص نوم، وفوقه ثوب بدا على عجلة في استقراره فوق القميص. تطايرت خصلات شعرها ولم تفلح أناملها في إعادة ترتيبها وهي تهرع إلى الباب"[١]، أما الصورة الأخرى لحضور (مريم) فاعتمدت على استرجعات المستشار، عندما جلس يرتشف فناجين قهوته الأربعة، مسترجعا بداية علاقته مع مريم، ودور الرئيس في الإيقاع بينهما "تمادى المستشار في تخيلاته.... وجنح الخيال بالمستشار إلى حد تأسيس الأمر على قاعدة أن الرئيس قد نسي، أو أنه انشغل فلم يتفطن سوى في حالة مريم. وحتى في تلك الحالة، فإن مريم لم تثر اهتمامه ولم تستنفر هياجه".[٢]

بدأت (مريم) مشوراها مع المستشار، عندما رصدها الأخير تعبر الشارع فأسرت قلبه، وارتعدت أوصاله، وجالت عيونه في فضاء العشق، على أثر هذه الحادثة بدأ المستشار بمراقبة فتاته صباحا عندما كانت تذهب إلى المدرسة، لعله يظفر بنظرة، أو ابتسامة تكون دواءً لروحه، يعود المستشار إلى تذكر مريم "الفتاة التي أوقعته في غرامها"[٣]، فقد كانت "حلبية البشرة، ذات عينين لوزيتين، تاهت فيهما الألوان وتتابعت، مثل تتابع مهرجان الطيف. مربوعة وناحلة وذات شعر كثيف أسود متمادٍ، يبرز استدارة وجهها الصافي، فتبدو مثل حورية هبطت من السماء".[٤]

تبادل المستشار وفتاته النظرات والابتسامات، ولم يتأخر المستشار عن موعده الصباحي للقاء (مريم)، وتزداد أواصل المحبة، ويتعمق الشعور عندما يلتقي المستشار (بمريم) وعائلتها في أحد الاحتفالات برفقة الرئيس "في تلك الليلة اكتشف المستشار أن الفتاة أكثر حسنا مما تبدى له، في تلك الصباحات التي صادفها، أو تعمد مصادفتها. بدت له على طبيعتها، متحررة، تضحك من

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ١٠٤.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٧١.

[٤] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم،٧١.

أعماقها وتمازح الحضور دونما حرج، أو تبتسم تلك الابتسامة الساحرة التي لم يشهدها مكتملة قبل ذلك التاريخ".[١]

استغرب الرئيس من الحالة المزاجية الصافية التي يمر بها مستشاره، وقام بطرح العديد من الأسئلة التي يسعى من خلالها لكشف سر سعادة المستشار، لكن المستشار كان على دراية بالمزاج السيئ لرئيسه والمؤامرات التي لا تكاد تفارق تفكيره، وسعيه المتكرر لتنغيص حياة الآخرين مهما بلغوا من المنزلة، لذلك فقد قرر المستشار عدم كشف سره، وقرر الرئيس تكليف عيونه لجمع أكبر قدر من المعلومات وكشف خفايا أمر المستشار "كتم الرئيس ما بذاته، بل إنه، وهو يتحسب لإلحاح الرئيس وفطنته، وقدرته على الاستشفاف، أسدل سترا من فوق ستار على القصة بكاملها، جملة وتفاصيل".[٢]

وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد استطاعت عيون الرئيس المبثوثة في كل مكان وزمان الوصول إلى سر المستشار، وعندما بلغ هذا الأمر رئيسهم، غضب غضبا شديدا، فلم يكن يتوقع أن يقع مستشاره بالغرام، ويكمن سر غضب الرئيس أن هناك مجالا قد برع فيه المستشار، وأخفق فيه الرئيس لذلك أخذ على عاتقه وقرر أن تكون فتاة المستشار هي الهدف القادم "واتته الفرصة حين نجح في الاتصال هاتفيا بالفتاة، ويوما بعد يوم، تمكن بطلاوة حديثه، ولباقته، وحسن استماعه، وإتقانه الطهر والصدق، أن يجذبها إلى أحاديث شتى، وحين أحس أنها بدأت تقبله صديقا، انتقل خطوة أخرى راح خلالها، ينصب الشراك من حولها، يسحبها إليها شيئا فشيئا"[٣]، ربما كانت شخصية (مريم) بحالة أقرب إلى السذاجة، إذ سمحت للرئيس بالخوض في تفاصيل علاقتها مع المستشار، ولكن الغالب على الأعمال الروائية، واللغة الواقعية، أن المرأة تلقي ما في جعبتها دفعة واحدة، ومن الصعب أن تسيطر على البوح، وذلك ما سقطت (مريم) في وحله، وكلفها بعد ذلك خسارة المستشار، وتخلى عنها الرئيس بعد أن أثبت لذاته أنه قادر على الخداع المباشر، و"قبلت الزواج دون أن تقبل على الحب. تزوجت من ضابط شاب، لم تعش معه سوى سنوات

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٧٦.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٧٣.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٨٢.

خمس، كانت مشحونة بالتوتر والخلافات. لم تسفر تلك السنوات عن أطفال يضيفون للحياة مذاقا مختلفا، ولكنها أسفرت عن كارثة جديدة، أيقنت معها أن حظها فاجع، حتى حدود السخرية".[١]

بعد هذه التطورات الناشزة والمخالفة للتوقعات، يزداد الغموض أكثر، عندما يكشف الراوي أن (مريم) مدبرة شؤون بيت المستشار، هي ذاتها (مريم) الفتاة التي عشقها المستشار، فقد التقى بها المستشار، وعرض عليها العمل لديه مدبرة لشؤون المنزل، فقبلت من فورها، وبرغم أنها قد قابلت الرئيس بعدها في بيت المستشار، إلا أن أحد منهما لم يباشر بسؤال الرئيس عن سبب فعلته، ليس ضعفاً، ولكن بلغ الرئيس درجة من الحقارة التي رفضت معها (مريم) السؤال عن سرها.

كبرت (مريم) وعاشت في بيت المستشار، ساهرة على راحته، وكانت تبتعد عن طريقه عندما يبدأ مغامرة مع فتاة طائشة تنتهي بعلاقة ثم يذهب كل منهما إلى سبيله، إلا أن مريم لم تتزوج بعد حادثة استشهاد زوجها، وكذلك المستشار الذي بقي بلا زوجة عقب خسارة حبه الوحيد "ومريم لم تعد تلك الفتاة الحيية التي كانت ترسل بصرها خلسة خلف المستشار لتضبطه متلبسا في انتظارها، فترتد نظرتها سريعة خجلى، تسري في الوجنتين احمرارا، تصعد به براءة إحساسها بإثم لم ترتكبه. وإنما أضحت امرأة ناضجة، قادرة على اتخاذ قرارات كبرى، تعوض ما فات من قحط الروح والجسد".[٢]

لم ينس المستشار حبه القديم، وقرر الثأر له ولمحبوبته، ودخل على الرئيس وأخرج مسدسه، وعاجل الرئيس بثلاث رصاصات، وصرخ بأعلى صوته: "وداعا... وداعا... وداعا.. مريم"[٣] وبهذه العبارة انتهت أحداث الرواية الموسومة بعنوان (وداعا مريم).

حصة بنت بو يعقوب/ رواية دار الجيش:

وضع الكاتب الروائي (زياد عبد الفتاح) في أعماله الروائية نماذج متعددة للمرأة، التي تراوحت ما بين المرأة الصابرة المحتسبة والداعمة لدور زوجها في النضال، والمرأة العربية الرافضة

---

[١] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٨٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٩٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ٢٣٣.

للخضوع وسيطرة الآخرين، والمرأة المتنمرة في حبها والوفية لحبيبها التي رسمت (حصة) مثالا لها، فهي التي كاشفت (عبد الكريم سمارة) بحبها، وهي التي أكالت عليه تهديدا بالتشتيت والتهجير إن لم يستجب لحبها ويذعن لرغبتها، وتعدى الأمر إلى تهديده برزقه وحرمانه من المكانة التي يتمتع بها عند (بو يعقوب)، أرسلت له رسالة "قرأ في الرسالة أنه قررت أن يكون لها، وأنه إذا لم يسلم فإنها قد تلجأ إلى بو يعقوب، ليحميها من هذا الذئب، الذي يحاول أن يغرر بها. سيفقد مكانته عند بو يعقوب سيعتبره خائنا ووغدا، وقد لا يكتفي بذلك ....".[١]

حاولت الرواية رسم بعدٍ يتصف بالجدية إن تعلق الأمر بالشخصية الفلسطينية وهذه الصورة تتفق مع المهجر الفلسطيني، الذي أخرج من أرضه عنوة، ثم يقرر مواصلة حياته ويبحث عن رزقه الذي يسد به الأفواه المتعطشة لكسرة خبز.

يدلل الكاتب من خلال هذه القصة الواردة في سياق السرد الروائي على شهامة الفلسطيني الذي مَنَّح مكانة سامية لأبي يعقوب، كيف لا وهو الذي تبناه –أبو يعقوب– وأدخله بيته، وجعله أمينا على ماله. لقد وقف (عبد الكريم سمارة) مدهوشا أمام هذه الكارثة، فهو اليوم يحارب أمام جبهة الكرامة: كرامته، وكرامة أبي يعقوب والدة حصة.

لم تستجب (حصة) لمحاولات التهميش الذي بدأ (عبد الكريمة سمارة) بفرضها، وحاولت رسم واقع جديد، بعيد عن التهديد، موسوم بعرض مفاتنها الجسدية، في محاولة لإغواء (عبد الكريم سمارة) قالت: "هأنذا، هل هناك أحلى من حصة، ألا تريد احتضانها؟!".[٢]

طبعت الرواية شخصية (عبد الكريم) بالشهامة، وتوقع المتلقي منه الوقوف جسرا مانعا أمام محاولات الإغواء التي مورست ضده، لكن أتت المفارقة الروائية، واستجابت شخصية (عبد الكريم) لنداء الحياة وتوحد الحب العاطفي في أعماق الاندماج الجسدي البعيد عن الحياة وتعقيداتها "أموت

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٣٧.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٤٢.

واحتضن حصة، أرتعش كلما سطعت في روحي وترددت في خاطري، فكيف وهي أمامي وهي في شوق مثلما أنا، أكاد تحتبس أنفاسي، وأكاد أجن.. غابا في عناق فاجع....".[١]

كسا هذا الحب نفسه بعباءة الخوف من القادم، فكل منهما يعلم مقدار القيود المفروضة عليهما، ومقدار خطورة اكتشاف حبهما، إلا أن (حصة) برعت في خلق المبررات الواهية لفرض معادلة تمكنها من لقاء (عبد الكريم سمارة)، وأقترب الأمر من وقوعهما فريسة (لماجد بو يعقوب) أكثر من مرة "هذه هي المرة الثانية التي تنجو فيها العلاقة من تدمير محقق. المرة الأولى في بيت أبو يعقوب عندما كانا يتعانقان ... لحظتها أخر ماجد قدر ما ..صدفة أو مفارقة، عن تصرف لا يستطيع التكهن به، وهذه المرة الثانية عندما دبر القدر ألا يكون ماجد في السيارة وإنما سائقه وحسب. ظن أن الأولى والثانية رسالتان أو تحذيران، ربما إنذاران، إذا كانا كذلك فكيف تكون الثالثة؟!".[٢]

رسم الكاتب معالم شخصيته (حصة) بألوان الطيش، والتسرع، وعدم التصرف بحكمة، علاوة على ذلك تمتعت بقدر من الطيبة منحها حضوة وحضورا عند والدها، وكانت جميلة بدرجة دفعت (عبد الكريم) للانزلاق نحو نسيج غرورها وطيبتها وسحرها "كانت سمراء فاتنة بعينين سوداوين تشعان بريقا خاطفا وتعكسان ضوء مبهرا. بشرتها لا تشبه: مزيج من خمر معتقة وشمس وظلال، معبأة بأسرار تستنفر ثمل الروح!....".[٣]

لقد دفعها سذاجتها، وبساطة تفكيرها، وحبها العميق، لإرسال برقية تطلب فيها من (عبد الكريم) –الذاهب لزيارة عائلته في فلسطين– الحضور فورا، لأن أبو يعقوب قد أصيب بمرض خطير، ويطلب رؤيته حالا، فيستجيب هذا الفلسطيني المثال الخالد للكرم والوفاء، ولكن يكتشف الحقيقة "قالت حصة: كذبت عليك .. بو يعقوب في أحسن حال، ولكنني اشتقت لك. ماذا أفعل؟ أعرف كم تحب بو يعقوب فأبرقت إليك، وأنا في غاية الغضب: لو قلت لك حصة مشتاقة

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٢٤٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش،٢٧٢.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ١٩٩.

وتنتظرك، وعليك أن تأتي حالا، فإنك لن تأتي قبل مضي الإجازة التي طلبت! ولكن من أجل بو يعقوب هأنت تأتي كما توقعت...."."[١]

أحبت (حصة) والدها بصورة تجاوزت الحدود، فقد رباها وكان أبا وأما وأخا لها، ولم تحضر والدتها في سياق الرواية، وأغلب الظن أنها كانت يتيمة الأم، لذلك فإن خبر مرض (بو يعقوب) نزل عليها كوقع الصاعقة، خاصة أن والدها كان في أيامه الأخيرة، خاصة أنها علمت مقدار التشرد والألم والفراق الذي ستعانيه إن أصاب والدها مكروه "قال عبد الكريم وهو على نفس الحالة من التعاسة: اسمعيني جيدا يا حبيبتي .. بو يعقوب مريض، ومريض جدا.. ولن يهمله المرض طويلا. لم أشأ أن أقول لك.. وهو يعرف ولا يعرف.. الآن اعترف لك بما أعرف، ولو أخفيت عنك الأمر فإنك لن تسامحيني، يوم أمس جاء الطبيب ...وفي الطريق أطلعني على الحالة، قال إنها متأخرة، وأن الأمر لن يدوم طويلا."."[٢]

اعتقدت (حصة) أن والدها لا يعلم بأمر حبها، ولم ترد أن تصبح فريسة لأخيها (ماجد) لذلك حاولت إرسال الإيحاءات لوالده، الذي كاشفها بأمرها و(عبد الكريم سمارة) وأن (بو يعقوب) لن يطمئن عليها إلا بعد تزويجها بمن تحب، وبذلك تختم قصة الحب الفلسطينية الكويتية بالنجاح، رغم المنغصات المتكررة، والعوائق التي حاولت إنهاء العلاقة بين شعبين. لقد كان (عبد الكريم) على طول السرد الروائي رمزا للشهامة والحب والتضحية، وكانت (حصة) رمزا للعطاء والعشق والوفاء. وأعلن (بو يعقوب) أمام جميع أبنائه المعارضين لفكرة زواج أختهم لأجنبي "اسمعوني لآخر مرة.. سيكون زواج شقيقتكم من عبد الكريم سمارة يوم الخميس القادم. فكروا في الأمر جيدا يستحسن أن تكونوا موجودين.. أقول يستحسن لأن على كل واحد منكم دون الآخر أن يتحمل مسئولية موقفه.. مع السلامة".[٣]

---

[١] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٧٨.

[٢] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٢٩١.

[٣] زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ٣١٢.

وتركت الرواية للمتلقي حرية رسم نهاية باقي التفاعلات من خطوات قد يتخدها أبناء (بو يعقوب) من عدم حضور حفل الزواج، أو خلق المنغصات والمشاكل، بعد صدور القرار القاضي بتزويج (حصة) و (عبد الكريم سمارة).

الفصل الثالث

شخصية اليهودي والأجنبي

أولا/ شخصية اليهودي:

سجلت الروايات العربية وخاصة الفلسطينية ظهورا جليا للشخصية الفلسطينية المقهورة، أو المهاجرة، والمعذبة، ونظرت هذه الشخصيات للآخر على اعتباره محتلا ومغتصبا للأرض وخيراتها، وللإنسان وكرامته، وبذلك لم تلق الشخصية اليهودية حضورا مباشرا، وإنما ظهرت في سياق السرد لتقديم الدعم للشخصيات الرئيسة الأخرى، فهذه الشخصيات في روايات (زياد عبد الفتاح) لم تكن البتة شخصيات رئيسة، ولم يكتب لها الامتداد في الفضاء الروائي.

برزت سمة العداوة في الشخصيات الصهيونية بل تفنن هؤلاء الصهاينة في إيذاء الفلسطينيين، وتبرز أسباب العداوة الإسرائيلية للعرب والفلسطينيين بشكل خاص كما يذكرها رشاد عبد الله الشامي في كتابه الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ويرجعها لأسباب:

١- استلهام الروح العدوانية في التراث الديني اليهودي:[١]

فالتوراة طبعت العقيدة الإسرائيلية برباط وثيق بين حرب إسرائيل ورب إسرائيل حيث هذا الرب هو رب الجنود الذي يحقق لبني إسرائيل السبيل لتحقيق مأربهم في الغزو والاحتلال.

"الرب إلهك هو العابر أمامك نار آكلة هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتضربهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب"[٢]، والإله عندهم هو الذي يوحي إلى موسى بخطط الحرب والخديعة فهو الذي يأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان "ثم كلم الرب موسى قائلاً: أرسل رجالاً يتجسسوا على أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل"[٣].

---

[١] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، يونيو ١٩٨٦، ١٤٦.

[٢] سفر التثنية ٣:٩.

[٣] سفر العدد ١:١٣.

أيضاً هم ينظرون إلى الأجناس الأخرى وأصحاب الديانات المخالفة لليهودية باعتبارهم جنساً أقل مكانة وخلقوا لخدمة اليهود "فإن أجابتك إلى الصلح, وفتحت لك, فكل الشعوب الموجودة فيها يكون للتسخير ويستعبد لك"[١].

كما أن سفر التثنية يتحدث بتفاصيل كاملة عن أساليب احتلال المدن واستبعاد أهلها وسلب خيراتها .هذه القوانين التي يستلهمها قادة بني صهيون كمصدر روحي وكشريعة من أجل استئناف البعث على أرض فلسطين، وانتهاك حرماتها وقتل أطفالها وذبح نسائها، وقتل رجالها أو استعبادهم[٢].

كما تنحصر النظرة إلى العربي من وجهة النظر الصهيونية إما خادم فهو صالح، أو غير خادم فهو غير صالح , ويجب قتله .

٢- استلهام تقاليد الروح العدوانية في الفكر والسلوك الصهيوني:[٣]

فالصهيونية مرتبطة بالتعصب وكره الآخرين، كما ارتبطوا بالاضطهاد والقتل جراء المجازر التي فتكت بهم في روسيا وألمانيا .

ويقول آحاد هاعام بعد زيارته لفلسطين في مقال بعنوان حقيقة من فلسطين "ماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين، لقد كانوا عبيداً في بلاد الديسابورا وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها وقد ولد هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد كما تكون الحال عندما يصبح العبد سيداً، إنهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويهينون حقوقهم بصورة موجهة وغير معقولة"[٤].

---

[١] سفر التثنية ٣٠:١٠.

[٢] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ١٤٧-١٤٩.

[٣] السابق، ١٥٥.

[٤] السابق.

٣- الفزع من ذكريات النكبة النازية:[١]

أصبحت المصيبة التي حلت بالصهيونية، من قتل وتشريد لليهود أهم معلم تستفيد منه الصهيونية في استغلال ما حل باليهود، وتخويفهم من تكرار التجربة التي قد تعصف بهم من جديد وتحولهم إلى ضحية مشردة.

لقد طبعت الصهيونية عقول اليهود ورسخت لديهم فكرة الاستهداف لليهود في مجازر النازية ذلك لأنهم شعب بلا أرض، في تجاهل كامل لأعداد الروس والبولنديين الذين تم استهدافهم في هذه الحملات لذلك أصبحت إحدى فرضيات الصهيونية إذا لم يكن لك وطن خاص بك فإنك حثالة الإنسانية، وفريسة للحيوانات المفترسة.

٤- تمجيد القوة الاسبرطية كمثل أعلى:[٢]

في فترة تكوين ما يعرف بدولة (إسرائيل) ساد اعتقاد لدى المؤسسين الأوائل يقوم على ضرورة تدريب الفتية والفتيات ووضعهم في ظروف وحشية تصنع منهم آلة قتل تستطيع الصمود في الظروف القاسية .

هذا الأمر دفعهم لإقامة المعسكرات التدريبية للفتية والفتيات دون سن الثامنة عشر، يخضع فيها المتدربون لتدريبات غير اعتيادية حيث يدفع بهم إلى الصحراء، أو يطلب منهم السير في المطر، أو دفعهم في الليالي الباردة إلى شاطئ البحر، وقد اتخذ الشباب لأنفسهم قدوةً بعض الأسماء التي ارتبطت بقتل العرب والفلسطينيين وارتكبت المجازر والمذابح أمثال (آرئيل شارون)، و(مائير هوتسيون) الذي اشتهر في إسرائيل في فترة الخمسينيات من القرن المنصرم وعرف عندهم ببطولته في قتل الفلسطينيين في محاولة لإرهابهم وطردهم عن أرضهم.

---

[١] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ١٦٦.

[٢] السابق،١٧٤.

٥- عسكرة المجتمع الإسرائيلي :[١]

تكون لدى يهود الخارج وقبل تأسيس دولتهم المزعومة اعتقاد بضرورة تكوين جيش أو جماعات تدافع عنهم وتحميهم، وظل هذا الاعتقاد السائد بعد وصول جماعات الصهاينة إلى فلسطين فكونوا عصاباتهم الإجرامية، وعند قيام دولتهم المزعومة عام ١٩٤٨م، اصطدم اليهود بمشكلة تعود أفراد هذه العصابات على العمل الإرهابي وعدم القدرة على إخضاع هذه العصابات السياسية دولة متكاملة، حيث أنهم تعودوا العمل السري غير المنظم غير الخاضع لقوانين الدولة، ذلك الأمر يعكس اختلاف وجهات نظر القيادة السياسية وأيدلوجياتها .

إن غريزة الوجود والبقاء التي نشأت في المجتمع الإسرائيلي، دفعت إلى تكوين شخصية عسكرية تؤمن بالقوة للاستمرار، ومن خلال هذا التداخل أصبح المجتمع الصهيوني مجسداً لنظرية القوة والروح العدوانية التي بنيت على أساسها الشخصية الصهيونية .

٦- الرفض العربي للوجود الإسرائيلي: [٢]

إن التهديد المستمر بالاقتلاع والقتل يخلق نوعاً من الخوف المستمر ويجعل هذا الخوف من صاحبه آلة باحثة عن أسباب الخوف .

هذا الأمر ولد عند الشخصية الصهيونية شعوراً بالعدوانية ترجمت هذه العدوانية باضطرابات ولدت سلوكاً عنيفاً استهدف المجتمع المحيط الساعي لاقتلاع الجسم السرطاني الإسرائيلي الدخيل .

---

[١] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية،١٧٩.

[٢] السابق، ١٩٠.

٧- الطابع الامبريالي لإسرائيل: [١]

ارتبط اليهود بالقوة الكبرى على مر التاريخ، فقد خدموا الفراعنة مائتي سنة، ثم تحولوا في الوقت المناسب إلى الاسكندر الأكبر لينالوا تقديره ثم البطالسة وبعدها تحولوا إلى خدمة يوليس قيصر ونالوا امتيازات رائعة من اليونان .

هذا الملخص التاريخي يوضح مدى تهافت الصهاينة لإقامة الوطن الأكبر لهم، وفي سبيل تحقيق هذه الأمنية لا بد من ارتباط بالقوة الأكبر التي تسيطر على العالم واستجلاب رضاها لذلك فإنهم في الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى توددوا إلى السلطان التركي والقيصر الألماني، وعندما اتضح أن بريطانيا ستكون هي التي سترث الحكم في فلسطين فإن حملتهم توجه إليها لنيل رضاها.

وعندما أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية المسيطرة على خيوط الشرق الأوسط، سارعت (إسرائيل) للتمرغ في أحضانها، لا حباً فيها ولكن مراعاة للطبيعة الإسرائيلية الاستعمارية .

٨- الإحساس بحتمية الحروب للوجود الإسرائيلي: [٢]

الحروب في تاريخ البنية العنصرية الصهيونية تمثل أسطورة مغلقة، شانها كشأن الأساطير الصهيونية مثل أسطورة أرض الميعاد، والحق التاريخي في فلسطين، وأسطورة الشعب المختار كلها أكاذيب مثل أسطورة شعب بلا أرض لأرض بلا شعب .

ولذلك أصبحت الحروب الصهيونية بمثابة تجسيد ومتنفس حتمي وضروري للروح العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية مهما حاولت إضفاء أثواب شرعية عليها .

لعل أبرز الروايات التي سلطت الضوء على شخصية الأخر في أعمال الكاتب والروائي (زياد عبد الفتاح) هي رواية (المعبر) حيث أحداثها الدائرة على أرض فلسطين. وبالتحديد في قطاع غزة والضفة الفلسطينية، حيث تعكس أحداث الرواية حجم المعاناة والألم التي يعانيها الفلسطينيون

---

[١] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية،١٩٧.

[٢] انظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية،٢٠٦.

المحتجزون في قطاع غزة إذ دفعت بهم الحاجة للخروج من قطاع غزة نحو الأراضي المصرية عبر منفذ رفح البري، وما في هذه الرحلة من احتكاك بمجندات إسرائيليات، أو ضباط يسعون للنيل من الفلسطيني البسيط، إما بابتزاز حاجته ودفعه للعمل جاسوسا لصالحهم، أو العودة من حيث جاء، أو التعذيب لمجرد قهر الآخرين ودفعهم للاستسلام وترك قراهم وأراضيهم.

عاموس كوهين (رجل المخابرات) / رواية المعبر:

لقد تكررت مظاهر القتل والمعاناة والألم على يدي الآخر في رواية (المعبر) والصورة الأولى التي تسلط الضوء على مدي الجبروت الذي يمارسه رجال المخابرات الإسرائيلية ضد الفلسطيني الأعزل، فعندما يركب الراوي في "سيارة المرسيدس سبعة ركاب"[١] منتظرا السماح له بالدخول على حاجز (أبو هولي) بين (دير البلح) و (خانيونس)، فيعود بالزمن مسترجعا ما دار بينه وبين رجل المخابرات الإسرائيلي (عاموس كوهين) الذي يتعرض الكاتب لشخصيته واصفا إياها بطريقة تراوحت بين التقديم المباشر وغير المباشر، حيث تتعدد طرق تقديم الشخصية الروائية، ويخضع هذا التقديم لرؤية الكاتب الفنية، وبحسب الطريقة التي يرى من ورائها الفائدة في تقديم شخصياته للمتلقي، وتراوحت أنماط تقديم الشخصية في أعمال (زياد عبد الفتاح الروائية) لتقع بين التقديم المباشر وغير المباشر، وفي مجال الحديث عن الشخصية اليهودية، يجد الباحث أن الشخصية اليهودية التي لم تحظ بحضور واسع في نطاق روايات (زياد عبد الفتاح)، كما قدمت بطريقة مباشرة و"الطريقة المباشرة تقوم آليتها على وصف الشخصية، ورصد سلوكها وردود أفعالها"[٢]، ويميل الروائي إلى "تقديم مقاطع وصفية من الرواية يرسم فيها ملامح الشخصية وطبائعها بوساطة الراوي، أو يترك الشخصية نفسها تقوم بهذا العمل"[٣].

وهذا التقديم المباشر للشخصية اليهودية في سياق رواية (المعبر)، يكشف مدى حرص الروائي على كشف زيف السلام المصطنع بين الفلسطيني والآخر، ومدى الاستغلال والقمع الذي

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر،١٣.

[٢] شرحبيل المحاسنة: بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز الروائية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة،٢٠٠٧، ١١٣.

[٣] سمر الفيصل: بناء الشخصية الروائية، الموقف الأدبي، دمشق، ٢٠٠٠، ٦٧.

يمارس على الفلسطيني، في محاولة سافرة للتضييق عليه، ودفعه للخروج من أرضه، أو النيل من صموده .

وتظهر شخصية رجل المخابرات (عاموس كوهين) بين دفتي رواية (المعبر) وتحديداً عندما يبدأ الراوي باسترجاع رحلة العذاب في معبر رفح الخاضع للإدارة والتصرف الإسرائيلي، عندما تم إيقافه وتحويله لمقابلة المخابرات مع نهاية الصفحة الثامنة عشرة، وتنتهي محاولة الضابط لإسقاط الراوي أيضاً في نهاية الصفحة الثامنة والعشرين.

لم تسيطر شخصية رجل المخابرات الإسرائيلي (عاموس كوهين) على أحداث الرواية ولم يكتب لها الراوي الامتداد في أحداث السرد الروائي، وكأنه أراد أن يصور ألواناً شتى من الممارسات القمعية ضد الفلسطيني، تجمع بين دفتي الصفحات العدد الأكبر من الشخصيات الإسرائيلية القامعة وصورها المتعددة .

تميزت هذه الشخصية بثباتها، وبظهورها المحدود، وظهرت بصورة أفقية محدودة، ولا يمكن اعتبار(عاموس كوهين) من الشخصيات الرئيسة في رواية (المعبر) .

وقفت الرواية في تصويرها المباشرة لهذه الشخصية على تصوير "البعد الخارجي للشخصية الذي يشمل المظهر العام للشخصية والسلوك الظاهري لها"[١]، فهو "الرجل البدين في أواخر الثلاثينات .... كان خلفه علم مبالغ في حجمه"[٢].

أيضاً حاولت الرواية كشف الهواجس الداخلية لهذه الشخصية الإسرائيلية، فضابط المخابرات يعي أن هذه علاقة بين جلاد وضحية، لذلك يصور الضابط نفسه بأنه دارس لعلم النفس، وهو ذات العلم الذي تخصص به الراوي وبرع فيه، لذلك فإن كلاً منهما بدأ يغوص في أعماق الآخر، مستكشفاً الأسرار والهواجس في محاولة لاستغلال الظرف القائم في ردهة المعبر، فالراوي يريد الخروج من محاولة الابتزاز والاستغلال. وأيضاً ضابط المخابرات يحاول إسقاط الراوي المسافر واستغلال حاجته .

---

[١] شرحبيل المحاسنة: الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز، ١١٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٩.

ثم بدأت الشخصية بالتعبير عن نفسها بصورة غير مباشرة، فاعتمدت الحوار أسلوباً في الكشف عن حقيقة الصراع بين الراوي الفلسطيني ورجل المخابرات الصهيوني، وتتبع أهمية هذا الأسلوب الدرامي من "وظائفه الحيوية أمام القارئ بخصوصيتها الفردية الحية"[١].

والحوار أحد تقنيات السرد الحديثة التي تستخدمها الرواية الحديثة "وفي هذا النوع لا يجد القارئ المعلومات أمامه جاهزة عن الشخصيات بل يترك المؤلف المجال للقارئ ليشارك في التعرف والبحث عن ماهية الشخصية" [٢].

"أدى ضباط المخابرات الإسرائيليون دوراً كبيراً في خدمة الاحتلال وسلطات الحكم العسكري في الضفة الغربية وقطاع غزة، فهم يستطلعون الآراء، ويقابلون الشخصيات المختلفة ويناقشون ويحاورون" [٣].

تحاول (رواية المعبر) تصوير ألوان شتى من المعاناة، وتسليط بقع ضوء متعددة على القمع الممارس في كل ناحية من أراضي الضفة الفلسطينية والقطاع، لكنها لا تعطي بعداً استسلامياً لصورة الفلسطيني فهو الرافض لواقعه كونه يقبع تحت نير الاحتلال، وهو غير المستسلم لمحاولات الإخضاع والتركيع، فالراوي عندما يُستدعى لمقابلة رجل المخابرات الإسرائيلي في معبر يفترض أنه فلسطيني يفصل بين كيان عربي وآخر عربي أيضاً فإن الراوي يبادر"فوراً بسؤال :هل أنا أمام محقق أو تحقيق؟ فاجأه السؤال، قال : لا ... فهذه إجراءات سخيفة"[٤].

هذا السلوك يعكس مدى قوة الفلسطيني، وكشفه لزيف الاتفاقات، وعلمه المسبق من تجارب الآخرين بالخيوط التي ينسجها رجال المخابرات للنيل من الشباب الفلسطيني وإسقاطه في وحل العمالة، أو كره الوطن والرحيل عن أرضه .

---

[١] جورج لوكاش: دراسات في الواقعية، ترجمة: نايف بلوز،ط٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢، ١٦٤.

[٢] سعد عودة عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٤، ١٦٤.

[٣] محمد أيوب: الشخصية في الرواية الفلسطينية،٩٦.

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٩.

يعلم (عاموس كوهين) رجل المخابرات أنه أمام فلسطيني مثقف، صاحب تجربة سابقة، بل أنه قد تخصص في دراسة علم النفس لذلك فإنه يحول الخطاب المعتاد بلغته المحتوية على كلمات التهديد والوعيد إلى حوار مصطنع بالتفاهم والانسجام والرغبة في فهم الواقع، ويعرض الراوي أفكاره البعيدة عن العنف بلغة بسيطة أقرب إلى الفصحى السهلة :"حاولنا الانتصار عليكم فلم نفلح، وحاولتم إبادتنا فلم تقدروا، اكتشفنا ... أنه لا يمكن لأحد إلغاء الآخر، لذا ليس من سبيل سوى التعايش والسلام.. هل التقطت ما أقول ؟ ..... السلام بمفهومه لا يحتاج إلى شرح . أوله الاحترام والصدق وآخره كذلك"[١].

لقد فطن رجل المخابرات (عاموس كوهين) أنه أمام حوار معقد لذلك فإنه بادر بطرح الأسئلة بدلاً من الإجابة، رافضاً التعاطي مع أفكار الراوي الداعية إلى السلام، والتعايش فقد ارتبط هذا الحديث باعتقاده بين رجلين كل منهما يمثل وجهة نظر مختلفة ويؤمن هذا الإسرائيلي بكره الفلسطينيين والسعي لقتلهم في كل وقت وحين فهكذا تربى وتعلم، وكره الآخرين، ولكنه يجعل على وجهه قناعاً من الكذب والادعاء بأن مهمته تسهيل حياة الفلسطينيين، ولكن الراوي لا يقتنع بهذه الأفكار ويعاجل بالرد "عندما يطلق أحدهم النار بين أقدامك لا لشيء سوى أنه يتسلى برعبك، وعندما يوقفك الجندي على الحاجز ويطلب إليك تحت تهديد السلاح أن ترفع يديك وتظل تحدق في الشمس بعينيين لا تغمض لساعات إلا قتلتك"[٢].

وبرغم محاولات الراوي إقناع محاوره رجل المخابرات (عاموس كوهين) بأفكاره عن التعايش السلمي، وتصوير ممارسات الجنود على المعابر ونقاط الاحتكاك ودورها في تأجيج الصراع وتوليد العنف وعدم استقرار المنطقة إلا أن رجل المخابرات اقتنع بما يريد وتناسى هذا الحديث بينه وبين الراوي، وبدأ يرمي صنارته لإيقاع الراوي في أوحال العمالة فيقول له "نحن متفقان على كل ما طرحته من أفكار، فلماذا لا نبقى على اتصال؟ أريد رقم هاتفك، وأعطيك هاتفي، لكي نتشاور فيما يستجد ..... سيظل الأمر بيننا. لا أبوح به ولا تأتي على ذكره وبذلك نخدم أفكارنا المشتركة"[٣].

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر،٢٠.

[٢] زياد عبد الفتاح، المعبر، ٢٤.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٢٥.

صعق الراوي من هول ما استمع، ولكنه عاد إلى منطقة الإدراك لأنه يعلم أن القوة بيد رجل المخابرات، فابتسم ونهض على الفور محاولاً الخروج، فلم يندهش(عاموس كوهين)، ولكنه ممارس دور المُحتل مرة أخرى وترك الراوي ينتظر جواز سفره في ساحة المعبر ساعات وساعات في محاولة منه لابتزاز الراوي ودفعه للاستسلام أو الاستجابة إلى رغبة رجل المخابرات والتعاون معه.

الجنود الإسرائيليون/ رواية المعبر:

أيضاً يستحضر الراوي في رواية (المعبر) صور شتى للآخر، ويسلط ومضات سريعة تكشف مدى الألم الذي يعاني منه الفلسطينيون جراء العنف الصهيوني المرتبط بالسلوك العدواني المتجذر في أصول الصهيونية، فيستذكر رحلته عندما مر "بحاجز إيريز أو بيت حانون ..... عند ذلك الحاجز كان يقف شاب فلسطيني في العشرين، أكثر أو أقل قليلا، وجهه في اتساع الأرض وظهره إلى الحاجز قد رفع إحدى رجليه"[١].

ومرة أخرى يتناول الراوي حادثة أخرى كان هو ضحيتها هذه المرة أيضاً، ولكن الآخر كان أصغر سناً، فقد كان جندياً حديثاً في السن، في محاولة منه ليصور ارتباط هذا السلوك العدواني بالتربية الأخلاقية، ومحاولات زرع الكراهية المتكررة من أبناء جنسه للفلسطينيين، فعندما صعد إلى الحافلة "أشار لك الجندي بعد عشرين متراً، أن تخلع نظارتك الشمسية كي يتعرف عليك، كنت تدرك أنه ليس الضجر هو الذي دفعه لذلك، وإنما التربية على التصرف المحتل"[٢].

ويلقي (زياد عبد الفتاح) ضوءاً آخر على معاناة الفلسطيني كان بطلها هذه المرة "محمود عبد الدايم" الذي يعمل سائقاً في إحدى شركات النقل الإسرائيلية، وابتعد عن السياسة وكان مثالاً للالتزام وصديقاً للجميع بما فيهم الإسرائيليين، لكنهم أطلقوا عليه وابلاً من الرصاصات التي "كانت

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٢٨.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر،٤٩.

تمضي متصالبة فتكاد تلسع أنفه مرة، وتلحس قفاه ..... اجتمع عليه كل شيء الخوف والرعب والموت والحياة"[١].

ثانيا/ شخصية الأجنبي:

ظهرت الشخصية الأجنبية الذكرية بشكل محدود في أعمال (زياد عبد الفتاح) الروائية، ولم تحظ كافة الروايات بحضور الآخر الأجنبي غير العربي، فلم تسجل رواية (دار الجيش) حضورا ولو لشخصية واحدة أجنبية، ويقصد الباحث من خلال هذا المطلب من الدراسة دراسة الشخصية ذات الأصول غير الفلسطينية وغير العربية.

فيليب/ رواية المعبر:

وقد ظهرت هذه الشخصية في رواية (المعبر) التي تصور المعاناة الفلسطينية، وألون القمع الصهيوني الممارس ضد الفلسطيني، وقد استدعى الكاتب بعض الشخصيات الفرنسية تمثلت (بسيمون) رمزا للطهارة والعطاء والحب الصادق، و(فيليب) الزوج الخائن الذي أغتال حب زوجته، وقضى على أحلامها السعيدة، وأغتالها مرة أخرى وتسبب بوفاتها بعدما نقل إليها مرض السيدا (نقص المناعة)، ويرى الباحث أن هذا الاستدعاء لشخصيات أجنبية في الحيز الروائي الموسوم بالمعبر، ليدلل على عشق الفلسطيني للحياة والتفاؤل، ولكن القدر أدار لهذا الفلسطيني العاشق للأمل ودفع به نحو مقصلة المحتل الصهيوني.

لم تكن شخصية (فيليب) ذات اتصال بالقضية الفلسطينية، ولم تسجل دعما لأهل فلسطين، وأيضا لم تظهر أيا من أشكال العداوة، إذ أنه لم يتصل بفلسطين أو قضيتها فقد أستدعى (عبد الحميد) أحداث قصة (فيليب) و(سيمون) عندما أسترجع أحداث رحلته إلى فرنسا وأيامه السعيدة هناك التي انتهت بكارثة تركت جروحا غائرة في قلبه.

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر،٦٥.

شكل (فيليب) حضورا محدودا في رواية (المعبر) ويمكن وصفه بالشخصية الثابتة، إلا أن صدمة قد أصابت المتلقي عندما جاء الحديث على لسان (عبد الحميد) الذي يسرد للراوي ما أصاب (سيمون) من إصابة بمرض نقص المناعة تسبب بها الزوج (فيليب).

كان (فيليب) مهندسا وهاويا للفنون وأولها الرسم، تعرف عليه (عبد الحميد) عندما كان يهم برسم (سيمون)، مالت الرواية لإضفاء صورة إيجابية لشخصيته فقد كان "بادي الأناقة والوسامة والظرف.... سلم بأناقة وود بعد أن قبل زوجته"[١]، وقد كان (فيليب) يبادل زوجته والآخرين مشاعر تعكس احترامه الآخرين، ولطفه الصادق والعفوي، فعندما يشاهد لوحة (عبد الحميد) التي رسم فيها (سيمون) يبادر بتقديم كلمات المدح والإطراء، فيخاطب زوجته "سيمون هذا الرجل فنان بموهبة نادرة. هل تصدقين لقد رأى فيك ما لم أره طوال سنين. أظن أنه قد وقع على أسرارك ونقاط قوتك وضعفك" [٢].

استمر ظهور (فيليب) الزوج المحب لزوجته، والمهندس الأنيق طوال السرد الروائي من لحظة ظهوره في الصفحة الثامنة والعشرين بعد المائة، حتى حدثت المفارقة التي قدمت صورة سلبية له مغايرة لتنبؤ المتلقي وتوقعاته، فتكشف (سيمون) في الصفحة والخامسة والأربعين بعد المائة، أن زوجها "تعرف على خلاسية من أب هولندي وأم أفريقية.... في البدايات كان يعود إلى[٣] ملهوفا ومفتقدا وحافلا بالشوق، ولكنه بعد شهور راح يتجنبني. لم أكترث"[٤].

انغمس (فيلب) الزوج الخائن بملذاته، وانجرف نحو أهوائه، متناسيا زوجته وابنه، وعاش صولات وجولات مع صديقته في (دروبان)، وبدأ يدخل في صراع داخلي، يتأجج كلما عاد إلى زوجته ويقرر الانقطاع عن صديقته ولكن كان يعود إليها في كل مرة، وعندما عاد بحث عنها

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢٨.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢٩.

[٣] الصواب (إلي).

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٥.

فوجدها " في المستشفى... قالوا: أنها في حالة متأخرة من المرض وأيامها أصبحت معدودة، ويستحسن ألا تزورها، هكذا قال الطبيب... لأنها مصابة بفقدان المناعة (السيدا)"[١].

لم يصب (فيليب) بالمرض، وقد أجرى عددا من الاختبارات التي أكدت عدم إصابته بالمرض، ويكمل اعترافه لزوجته "لكنهم نبهوني إلى أنني يجب ألا أطمئن تماما فالمرض قد يكون كامنا لشهور وأعوام فلا يتحرك إلا بعدها"[٢]، بهذه الكلمات حاول (فيليب) مواساة نفسه، وتخفيف آثار الكارثة على (سيمون) الذي حفر قبرها بكلتا يديه.

بعد هذا الاعتراف المشين خيرت(سيمون) زوجها، أما أن يرحل هو، أو أن ترحل هي، فقد تركها (فيليب) الزوج الخائن في حالة هستيرية من الهواجس والتخيلات والرؤى هل أصيبت بالمرض، أم أن المرض كامن في داخلها؟،وكم المدة التي ستنعم فيها بالحياة؟ "منذ تلك الليلة طردت فيليب من حياتي، وخيرته بين أن يغادر البيت أو أغادره، وعندما أختار الأولى أبلغته أنني لا أحب أن أراه...."[٣].

لم يظهر (فيليب) بعد اعترافه في حياة (سيمون)، وغاب كليا عن فضاء السرد الروائي إلا من صورتين فذات مساء ظهر في الحي اللاتيني الذي أعتاد (عبد الحميد) رسم لوحاته فيه، وقال:

"هذه الرسالة من السيدة إليك.

أين هي؟

الآن.... تماما... لا أدري.

متى عادت من السفر؟

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٦.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٨.

قبل أن يبلغ السؤال مداه، وتتوالى الأسئلة والإجابات، كان فيليب قد أدار ظهره دون أن يلتفت إلى الوراء"[١].

لقد جاء (فيليب) بالشؤم فقد احتوت هذه الرسالة على كلمات الوداع الأخيرة التي نقلتها (سيمون) بعد إصابتها بمرض نقص المناعة الذي نقل لها عن طريق هذا الزوج الخائن، أما المرة الثانية التي ظهر فيها (فيليب) فقد كانت عند مدخل المستشفى، قال فيها "عبد الحميد، لا تذهب إليها. فات الأوان وهي الآن في ثلاجة المستشفى بانتظار الدفن غدا. إليك العنوان..إنها ترغب في حضورك لحظة الدفن. كان هذا آخر رجاء لها"[٢].

رجال المعابر اليونان/ رواية ما علينا:

دارت أحداث رواية (ما علينا) على متن السفن وعلى أرض المطارات وفي أعالي الجبال، وهذا يعكس مقدار ما وصل إليه الفلسطيني من معاناة ترتبت على تهجيره من أرضه وسلب ممتلكاته، لذلك برز حضور لرجال الأمن والمعابر من كلا الجنسيتين العربية والأجنبية في فضاء الرواية، وقد قدمت هذه الرواية أنموذجا للشخصية الأجنبية اليونانية تمثل في رجال الجوازات والمعابر على متن الموانئ الجوية والبحرية.

تمتع رجال الأمن اليوناني باللباقة واحترام الآخرين، إضافة إلى الالتزام بالقوانين دون التخلي عن روح التعاطف مع معاناة المسافرين وحاجاتهم، وعلى الرغم من الدور المحدود لهذه الشخصية المساندة، التي لم تظهر أسماؤها لدورها العابر، وتفاعلها المحدود مع الشخصيات الرئيسة، إلا أنها أضفت نوعا من التوازن لصالح الشخصية الفلسطينية المهاجرة، في معاملتها الحسنة التي جاءت على النقيض تماما من رجال الجوازات العربية وضباط المخابرات المنتشرون في المطارات والمعابر العربية، وقد أشار الباحث لدورهم في قمع حريات الآخرين، والنيل من الفلسطيني وسلبه أدنى حقوقه، وتحطيمه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٥٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٥٨.

وصل (نزار البطل) إلى (فولوس) اليونانية برفقة عائلته، فيقوم الراوي بتقديم صورة إيجابية للضباط ورجال الأمن فهم يحترمون (نزار) بغض النظر عن جنسيته أو بلده، فقط يعظمون إنسانية هذا الشخص "شرطي الجوازات اليوناني، لطيف ومهندم، ويفتش الأوراق باحترام، أمر مطمئن، فالاحترام أول الحضارة، ويعبر عن استحقاق إنساني"[١].

لقد تمتع هؤلاء الرجال باحترام حضاري يعكس مدى الحرية التي يتمتع بها أفراد هذا الشعب على متن أراضيهم اليونانية، الأمر الذي أكسبهم احترام الآخرين وتقديرهم، فقد عرفوا مكانة الإنسان وقدره.

ويلاحظ ضابط الجوازات اليوناني عند تدقيقه جوازات سفر (نزار) وعائلته، يجد أن رب الأسرة يحمل جوازا تونسيا، بينما تحمل زوجته جوازا مصريا، والعجيب أن ابنتهما تحمل جواز سفر عراقي، أستوقف هذا الأمر هذا الضابط "قال بالإنكليزية كأنما يحدث نفسه، وهو يعدد بأصابعه: تونسي يتزوج من مصرية، أمر لا غرابة فيه. لكن كيف يتفق أن يلدا طفلة عراقية؟ لماذا هي ليست تونسية، أو حتى مصرية"[٢]، مع أن هذا السؤال مشروع، والحادثة تدعو للشك والريبة، ويعلم (نزار) أنه لو كان أمام رجل أمن عربي، لتم تحويله من فوره للتحقيق الممزوج بالإهانة والتعذيب، إلا أن رجال المعابر والأمن في الدول الأجنبية اعتادوا على احترام وتقدير الآخرين، لذلك فقد اقتنع هذا الضابط بالإجابة عندما أخبره (نزار) أن طفلته ولدت في العراق.

طرد رجال الأمن في ميناء الإسكندرية (نزار) ومنعوه من دخول الأراضي المصرية، وفرقوا بينه وبين عائلته، وأعادوه على متن السفينة التي جاء عليها، وعندما يصل إلى الميناء اليوناني في رحلة أقرب إلى العذاب، يدور حوار يثير دهشة رجل الأمن اليوناني، الذي يستغرب من وصول رجل عربي، إلى بلد عربي آخر هو غير مطلوب فيها، ولكن لا يسمح له بالدخول لأنه غير مرغوب فيه، ويعد هذا الأمر من الحوادث النادرة التي لا يمكن أن ينساها هذا الضابط الذي أعتاد اللباقة في التصرف والاحترام في معاملاته "جاءه الشرطي سأله بإنجليزية متعثرة، وهو يقلب جواز سفره: "– لقد رحلت أمس الأول إلى الإسكندرية؟!.

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٦٨.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٦٩.

- نعم يا سيدي
- وعدت على السفينة نفسها؟!
- نعم
- لماذا عدت؟
- لأن السلطات هناك رفضت السماح لي بالدخول.
- هل أنت مطلوب لهم؟
- لو كنت مطلوب لاعتقلوني.
- لماذا إذا أعادوك؟
- لا أدري؟
- لا يمكن غير معقول ..... عربي يذهب إلى بلد عربي، غير مطلوب، لكنه غير مرغوب فيه، ويعاد على الباخرة نفسها، ليظهر في أثينا من جديد!! معادلة سريالية وبالغة التعقيد"[١].

وعندما يشعر ضابط الجوازات بأنه قد أثقل على (نزار) الذي لم يلتق به أو عرفه، بل كان على ملة ودين وجنسية مغايرة لجنسيته، ولم يسبب هذا الضابط أي نوع من أنواع الحجز أو الإهانة أو الحجز أو التنكيل سوى أنه قد سأله واستعلم منه باستفاضة عن سبب عودته "فقال بصوت مرتبك. كان يريد خلاصا أمام حالة محرجة: حسناً إليك جواز سفرك. أتمنى لك إقامة طيبة... آسف فأنا لم أفهم، وكنت أتمنى لو أفهم، ستظل حالتك في ذاكرتي! نعم ستظل في ذاكرتي"[٢].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٠٢.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٠٥.

تعامل أيضا رجال الأمن والجوازات في مطار أثينا بصورة إيجابية أثارت حفيظة (عودة اليوسفي) الذي تعود على الضرب والإهانة في المطارات العربية، لقد أحترم قبطان الطائرة اليوناني (عودة) وتعاطف مع ضابط المطار أيضا معه، وحاولوا أكثر من مرة إيجاد حل لمعضلته التي كلما اقتربت من الحل اصطدمت بقرارات الأنظمة العربية الجائرة "يقولون أن الأجانب ينكرون أبناءهم، وأنهم لا يملكون عواطف مثلنا يوزعونها، ولو بالتقسيط! من أين أتوا بكل هذه العاطفة نحوي، وفي المقابل لماذا كل ذلك الصفع والضرب والشتائم المقذعة، في المطار العربي؟"[١].

خريستو مارتينس/ رواية ما علينا:

هو والد (سيرينا) الفتاة التي أحبها (سامي نصير)، ولد وعاش وترعرع في اليونان، التي عشق أرضها، وكافح أجداده من أجل استقلال بلاده، فقد قدم أجداده الأوائل من جزيرة (كريت)، عاش حياة هانئة في بيت حجري مرصوف بذوق وعناية، وأحاط المنزل أشجار متنوعة من العنب والكرز والتفاح، التقى (سامي نصير) زوج ابنته القادم وحبيبها وعرف عن نفسه "اسمي خريستو مارتينس.. إنه كما ترى، اسم عادي، لا يثير انتباها.. ولدت في هذه البلدة، وكذلك والدي وجدي. يقولون إن أجدادي القدامى وفدوا إلى البلدة هاربين من سعير الحروب المجنونة...."[٢].

أحب هذا الرجل ابنته وحاول صدها عن فكرة ارتباطها برجل سيؤدي بها بعيدا عنه، حيث أنها الابنة الوحيدة له ولوالدتها، ولكن تعلقها الكبير بحبيبها، جعله يوافق على قرار ابنته، وجعله يتجرع نفس الكأس الذي أذاقه لوالده، فيحاول أن يشرح لزوج ابنته القادم ظروفه التي تغلب عليها في سبيل حبه "عندما تزوجت أم سيرينا، نشأت مشكلة لم أتوقف أمامها لحظة واحدة. كنا مختلفين في الدين. لم ألتفت إلى التورية والرمز في كلام والدي. وعندما حاول أن يكون واضحا أكثر التقطت رسالته. وعندما فهم أنني فهمت اكتفى بتجاهلي"[٣].

مثل هذا الرجل فكرا بعيدا عن التعصب المرتبط بالأديان، فقد جعل العلاقة الإنسانية والترابط والتماسك في منزلة ترتقي فوق اختلاف الدين، فقد ترك لزوجته البقاء على دينها، ولم

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٥٣.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١١٨.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١١٩.

يحدثها بالانضمام إلى دينه، ويلتمس الباحث إشارة لدينه، لكن لا تظهر رغبة للتعبير عن أن الدين في حالته حد لا يفصل بين أفراد جمع بينهم الحب، وقد ازداد على تسامحه في مراعاة شعور الآخرين فقد أخبر (سامي نصير) على مائدة الطعام "سيرينا وأنا نتضامن مع السيدة، ونمتنع عن الخبز تماما يوم السبت, هل تعلم لقد تعودنا على ذلك..."[١].

راقب (خريستو) تعلق ابنته المتزايد برجل مسلم، ولم يكن هذا الرجل جاهلا، وملك المال والتجارة، وكان واعيا ومثقفا، ويعلم سوء أحوال فلسطين وأهلها، إضافة إلى مشكلة اختلاف الدين التي قد تواجه ابنته في حياتها القادمة، لكن وعند رغبة ابنته يجعل من كل الصعوبات أداة للتغلب على قهر الحياة "إنني صاحب متجر كبير، ربما أكبر متجر في البلدة وإنني أتابع ما يجري في العالم. أقرأ كثيرا عنكم، وأعلم مدى ما تعرضتم له من ظلم فادح وقتل وتشريد.... لكن صدقني أن هذه الأوضاع مؤقتة، وهي لا تستوقفني، ويجب أن تُطوى، وسوف تطوى مهما طال الزمن"[٢].

بهذه الكلمات القوية والمحفزة انتهى دور الشخصية الأجنبية الإيجابية (خريستو مارتينس)، هذه الشخصية التي تميزت بصغر دورها على ضفاف السرد الروائي، واقتصار حضورها على مشهدين اثنين، إضافة إلى ثباتها على طول السرد. قدمت هذه الشخصية بطريقة مباشرة فقد قام (خريستو) بتقديم أنموذجا لتسامح الأديان الذي تزوج يهودية، ويرجح الباحث أنه كان مسيحيا، وكان على ثقافة واسعة فلم يغفل عدم إمكانية استمرار علاقة ابنته (سيرينا) مع (سامي نصير) المسلم دون الدخول في الإسلام.

ثالثا / شخصية المرأة الأجنبية:

تظهر المرأة الأجنبية في روايتين من روايات (زياد عبد الفتاح)، احتوت أولاهما (المعبر) على أنموذج نسائي أجنبي واحد هو (سيمون) المنحدرة من أصول فرنسية، والتي جمعتها و(عبد الحميد) الفنان القادم من (المغراقة)، علاقة حب رومانسي أكثر من رائع بعد أن التقى بها مصادفة في الحي اللاتيني .

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٦٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٢٠.

أما الرواية الثانية التي قدمت شكلاً جديداً للمرأة الأجنبية هي رواية (ما علينا) التي استحضر الراوي المرأة الأجنبية ذات الأصول الكردية (شيلان) التي تكالبت عليها الظروف وذاقت الويل أكثر من مرة بعد أن انخرطت في العمل السياسي في أحدى الدول العربية.

أما المرأة الثانية ذات الأصول الأجنبية التي ظهرت في رواية (ما علينا) أيضاً هي (سيرينا) الفتاة التي أحبها وارتبط بها (سامي نصير)، ولكن تقع عقدة تأجج الصراع ليصل إلى نقطة الذروة، عندما تكشف الرواية أن والدة (سيرينا) تنتمي إلى الديانة اليهودية.

بينما لم تتطرق رواية (دار الجيش) ورواية (وداعاً مريم) إلى المرأة الأجنبية بأية صورة كانت، ويرجع الباحث سبب ذلك إلى أن الحيز المكاني خدم رواية (ما علينا) التي دارت أحداثها في المطارات والموانئ وخاصة اليونانية منها، وبذلك احتك شخوص هذه الرواية بأشخاص أجانب وغير عرب، بعكس رواية (دار الجيش) التي دارت أحداثها في الكويت، ورواية (وداعا مريم) التي حاولت تسليط الضوء على قمع الشعوب وتسلط الرؤساء في الدول العربية، بينما حاول الكاتب في رواية (المعبر) التي ترجمت إلى اللغة الانجليزية إيصال رسالة للعالم أن الفلسطيني شخص مسالم يؤمن بالحب والسلام، وعشق الحياة، وحاول استجلاب التفاؤل والأمل، ولكن السلوك العدواني الصهيوني يأبى إلا وأن يغتال الحياة، ويقضي على تطلعات الفلسطيني المسالم .

سيمون/ رواية المعبر:

(سيمون) هي فتاة فرنسية، عاشت حياة مترفة في أحد القصور الفارهة، متزوجة من (فيليب) المهندس الذي يتطلب عمله السفر الدائم، وهي أم لطفل صغير، عشقت الفن والأدب وأحبت الحياة، لذلك قررت أن تحصل لنفسها على لوحة فنية تكون هي بطلتها، ولهذا الغرض توجهت إلى الحي اللاتيني لتجد فنانا يلبي لها حاجتها، ويسترجع (عبد الحميد) الجالس في مقهى (ديليس) في مدينة غزة لحظة دخولها محدثاً الراوي مالك المقهى، والذي جلس يستمع قصة (عبد الحميد) "سطعت في الحي اللاتيني مثل ضوء شمس يتسلل من ثغرة تبدو كخرم إبرة في الغيم

الكثيف، يجدد البرد والكآبة ويطرد الملل ..... كانت مثل ساندیلا[١] والسفيرة عزيزة، وصاحبة القصيدة اليتيمة، كونها الله في أحسن تكوين ...."[٢].

لقد تنبأ المتلقي من خلال هذه الإشارة الأولية بإعجاب (عبد الحميد) بهذه الفتاة، وربما توقع بنشوء علاقة حب بينهما، وهذا ما أكدته صفحات رواية المعبر القادمة، فقد أرسل الكاتب إشاراته الأولية التي تهيئ لتكوين علاقة بين الفنان القادم من أزقة (المغراقة) الفلسطينية المحاصرة في قطاع غزة و الفتاة المترفة التي تسكن في قصر محاط بالخدم في أحد أحياء باريس الراقية .

كانت (سيمون) بملامح جميلة وملائكية جعلت (عبد الحميد) يقف حائراً أو ناسياً لقواعد رسم الآخرين، وطبع ملامحهم على وجه اللوحة الفنية، فقد أصيب بحالة من الإرباك جراء جمالها الأخاذ فهي "بيضاء حلبية بحمرة خفيفة يعبرها الشفق في لحظة الذروة... وجه مستدير استدارة خفيفة فليس قمراً وإنما أبدع من القمر. جبهة عالية بمقدار، يحرسها أنف بارتفاع طفيف..... تكنهما عينان خضروان زرقاوان صافيتان..... ليست طويلة ولا قصيرة ....."[٣].

لقد فتن (عبد الحميد) بهذا الجمال وأخذ يرسم الخطوط الدقيقة التي تبرز تألقها وروعتها، وقد أعجبت بهذا الرسم الذي يصور مفاتنها، وروعة وجهها، ورقة روحها وقالت وهي تطبع قبلة على وجنتي عبد الحميد : " رائع ... رائع .... أحسنت ... أشكرك "[٤].

وقررت دفع خمسمائة فرنك مقابلاً لهذه اللوحة التي أعجبتها تعبيراً عن تقديرها (عبد الحميد) في توصيفها الرائع، إلا أن الأخير يرفض تقاضي المبلغ ويطلب منها أن يرسمها مرة أخرى بالألوان فهي تستحق أكثر من رسم بألوان الفحم، فهمت (سيمون) ما أراد (عبد الحميد) وفرحت بالفكرة وأجابت بالموافقة، ولكنها تركته حائراً إذ لم تحدد له مكاناً أو زماناً للالتقاء وإكمال الاتفاق .

---

[١] الأصح: ساندريلا.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ٩٨.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٠.

[٤] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٠٢.

انقطعت (سيمون) بعد هذا الموقف، وبدأ الخريف يداهم (عبد الحميد) الذي سيغادر المكان نظراً لتوقف أعمال الرسم في الحي اللاتيني في فصل الشتاء، ويمني نفسه برؤية (سيمون)، يستذكرها ووعدها بالعودة، ويحاول إقناع نفسه أنها ستعود، لكن مع طول الأيام أيقن أنها لن تعود، ولكن أخيراً ومع الأيام الأخيرة في الحي اللاتيني جاءت (سيمون) "قالت وهي تغزل ألفاظها فتنهمر أنغاماً: قلت أنك تتمنى رسمي باللون وليس بالأبيض والأسود، هل التقطت كلامك بدقة أم أنه تهيأ لي؟ – أجبت دونما تردد وبسرعة قبل أن تسحب كلماتها .

- لقد فهمت جيداً، تماماً، بالضبط .

- حسناً لقد تأملت الرسم كثيراً، وكنت أكتشف في كل مرة ما يحيرني في خطوطك فهي قاسية تارة حانية أخرى ثابتة عند نقطة عالية ومتجلية في غيرها. وفكرت في معاودة الجلوس أمامك ولكن بشرطين ....."[١].

تركت له موعداً، وسلمته بطاقة تحمل العنوان، ووصل (عبد الحميد) في الموعد المحدد، وجدها في انتظاره، وقد "جاءت ترتدي ثوباً ورديا بسيطاً وبالغ الأناقة وقد عقصت شعرها وربطته إلى الخلف ...."[٢].

بدأت خيوط المحبة تنسج بين (عبد الحميد) و(سيمون) بعد أن تجاذبا أطراف الحديث التي جعلت (عبد الحميد) يتخلص من ارتباكه، وقد لحظت (سيمون) هذا الارتباك، فبدأت حديثاً عن نفسها، "قالت :أجن بالموسيقى، وأجيد العزف على الجيتار، وفي طفولتي تنقلت بين هوايات عديدة من الرقص... فأنا أعشق الرقص... أنا من أسرة ثرية... أنا أعمل في تصميم الأزياء ..."[٣].

عمق هذا الحوار الذي جاء بلغة بسيطة بالرغم بين الفروق الطبقية بين طرفيه من شعور الحب الصادق، وبرزت فيه (سيمون) بصورة إنسانية إذ أنها تقدر الآخرين وتبادلهم الحب بغض النظر من أين قدموا؟ وماذا يملكون؟ ومستواهم الاجتماعي .

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١١٥.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢١.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢٢.

مثقفة كانت (سيمون) وحاولت كتابة الشعر وقرأت كثيراً في الأدب، تميزت باندفاعها فعندما قدمت إلى الحي اللاتيني أرادت تجربة شيء جديد واكتشاف عوالم جديدة، تميزت هذه السيدة بصدقها وعدم تصنعها فقد أخبرت (عبد الحميد) "عندما عدت إلى البيت ألقيت الصورة حتى كان اليوم الذي عدت فيه إليك. وقعت الصورة بين يدي فتأملتها مدة بعد مدة .... عندها وجدتني أهرع إلى ساحة الحي اللاتيني "[١].

فرحت (سيمون) باللوحة التي استغرق رسمها أكثر من جلسة على مدار يومين كاملين بدلت فيها العديد من الأثواب والجلسات وزادت جمالاً وروعة في كل حديث وفي كل همسة أو حركة، فقد رسمها (عبد الحميد) رسماً مغايراً للواقع ولقوانين الفانين التي تجبر من يرسم على عدم التحرك والتقيد بجلسة واحدة "سيمون، ملاكي الحارس المقتحم الذي ملأني وأطلعني على أسراره الداخلية فقد رسمتها بنبضي وعيناي وذوب روحي وخفق شراييني"[٢].

توطدت أواصر الصداقة بين السيدة الثرية الفرنسية والرسام الفلسطيني الذي لا يملك قوت يومه، في تحد لقواميس الكون فالحب يجمع بين الآخرين، ولا يفرق بين كبير وصغير أو غني أو فقير "تواصلت الزيارات واللقاءات، وفيما بعد تسكعنا في كل باريس وجلسنا على مقاهي الرصيف، وشربنا البيرة وأكلنا الساندويتشات وكلما أوغلت الأيام في رحلتها كلما زدنا تعلقاً"[٣].

أصيبت (سيمون) بخيبة أمل كبيرة عندما اكتشفت خيانة زوجها (فيليب)، الذي تعرف على إحدى الخلاسيات في رحلته إلى جنوب إفريقيا، ولكن خيبة الأمل تحولت إلى صاعقة عندما أخبرها زوجها أن هذه الفتاة قد ماتت بعد إصابتها بمرض نقص المناعة، ويؤكد لها أنه غير مصاب بالمرض، لكن الأطباء أخبروه أن المرض ربما قد نقل لزوجته وأنه كامن فيه، لتقرر بعدها الانفصال عن (فيلب)، وتحدث (عبد الحميد) الذي لا يتخلى عنها في أزمتها "المشكلة هي أنني لا

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٢٤.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٣٧.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٣.

أملك شيئاً سوى الانتظار، انتظار مفزع يضعني في زاوية قاتلة . ظهري إلى الجدار وأمامي مسدود. انتظار بلا زمن يضع له نهاية أو خاتمة .مجهول أو غامض ويحطمني"[١].

تغيب أخبار (سيمون) وتختفي هي أيضاً، بعد أسابيع عاشتها مع عبد الحميد "عدة أسابيع عشناها طولاً وعرضاً دون أن نتوقف عند حد. وفجأة لم تتصل ولم تأت"[٢] وعندما قصد مكان سكنها فتحت الخادمة، وأخبرته أن سيدتها قد سافرت، وأصبح يذهب يومياً، يجد نفس الرد عند الخادمة .

إلى أن استلم رسالة من (سيمون) جاء فيها "بدأت رحلة علاج، رحلة بائسة معذبة، تذهب بي بتسارع مجنون. لو رأيتني الآن سوف تنكرني فأنا لم أعد سيمون التي تعرفها كبرت ألف سنة وأصبحت عجوزاً شمطاء ... لم أشأ تشويه اللوحة التي رسمتها ... يجب أن أبقى في خيالك حتى آخر لحظة في حياتي مثلما كنت ... أرجوك لا تحاول إلقاء نظرة أخيرة علي سوف أتعذب كثيراً لو فعلت . دعني أرحل بسلام وأعدك بأن تكون آخر صورة أنام عليها هي صورتك ..... حبيبتك سيمون" [٣].

مات (عبد الحميد) مقهورا مغلوبا على أمره، بعد أن أعدمه جنود الاحتلال الإسرائيلي بعد عودته إلى (المغراقة)، و ماتت (سيمون) أيضا مقهورة مغلوبا على أمرها بعد أن نقل إليها زوجها الخائن مرض نقص المناعة المكتسبة، فالاحتلال من الفلسطينيين كنقص المناعة من (سيمون) كل منهما نال حظه واُغتيلت حياته رغما عنه.

شيلان/ رواية ما علينا:

ظهرت هذه الشخصية في رواية (ما علينا)، ومثلت امرأة من نوع مغاير لنساء البشر، فقد كستها الأيام بدرع من التحمل الذي تحولت معه إلى كائن أنثوي منزوع الرقة، دخلت في بوابة من

---

[١] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٤٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: المعبر، ١٥٣.

[٣] زياد عبد الفتاح: المعبر ،١٥٧.

الصراعات السياسية التي دفعت بها إلى قطع الصحاري والابتعاد عن عائلتها ومنزلها خوفاً من بطش الأنظمة السياسية .

هي "مريم في السجلات الرسمية أو شيلان في تداعيات الأسماء الهاربة الخائفة من الالتقاط أو الاكتشاف"[١].

قدمت هذه المرأة أنموذجاً للمرأة الجميلة المتمنعة في تقديم جمالها للآخرين، ولم تكن لقمة سائغة يشتهيها الرجال ويقطفونها، كانت بمزاج غريب فهي صريحة وتكاد أن يبتعد حديثها عن انتقاء الكلمات القريبة إلى مزاج النساء وتفكيرهم، فكانت المرأة الرجلة كأدق توصيف يمكن وصف (شيلان) به، فهي تحاور (نزار) بطل رواية (ما علينا)، بحديث أقرب إلى ما يكون حديث ندين متساويين "اشتقت إليك، فتشت الأماكن وسألت عنك .هل تعلم؟ لم أصادف رجلاً مثلك، على الرغم من نذالتك، شاهدت زوجتك وهي تصعد ... كنت دائماً تشتهيني وكنت أبداً أحبك حين كنت تشبه شفتي بحبتي كرز، كنت أبتهج وأشعر بالاعتزاز، لكنني حرمت عليك الكرز هل تعلم لماذا؟..."[٢].

قلقة ومضطربة كانت (شيلان)، فقد سلبت الأمن في أكثر المراحل العمرية التي احتاجته فيه، وسجن حبيبها عندما هامت عشقا فيه، وحُرمت حنان الأبوة فقد انتمى والدها لحزبه وخاف بطش الحزب إن هو اعترض، وسكتت الأم لأنها لا تستطيع التضحية ببقية أفراد العائلة، لقد وضعت (شيلان) في ظروف استثنائية صقلت شخصيتها وحولتها إلى وحشة كاسرة من الخارج، ولكن بنفس ضعيفة ومضطربة "هل تذكر تلك الرحلة المشؤومة التي حدثتك عنها والتي قطعت فيها ليلتين ونهاراً كاملاً يصيبني بالجنون أو الشلل فزعاً ورعباً. الآن أنا لست في مثل ذلك الوضع ولكن أحس باضطراب أعظم"[٣].

مرت بتجربة قاسية ومريرة جداً، وأحست أنها صارت وحيدة وقد تخلى عنها الأقارب المتمثلين في العائلة الذين خافوا من البطش في معركة الأحزاب السياسية التي دست (شيلان) نفسها فيها، وتخلى عنها أيضاً الحزب الذي انتمت إليه، والذي شعر أنها أصبحت تمثل عبئاً عليه

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٩.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١١.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١١.

بعد اكتشافها، لذلك قرر الزج بها في رحلة اضطربت كلما تذكرت فصولها "أسلموني إلى الدليل وأنا بلباس أعرابية يقذف فيها إلى جوف الصحراء، فإنني اعتبرت الأمر جريمة ونذالة وربما مؤامرة . لم أشهد خوفاً مثل الذي شهدته طوال ليلتين ويوم قائظ .... نركب حيناً ونمشي حيناً... فكرت في الأعرابي الذي يرافقني. لم لا يغدر بي. إنه ليس رفيقاً وهو يصطحبني لقاء مبلغ من المال"[١].

كانت (شيلان) ضحية للظروف القاسية التي دفعتها نحو التفكك والاضطراب النفسي. ويرى الباحث أن (شيلان) هي فتاة عربية الحياة والقمع والظروف بامتياز، ولكن أصولها تنتمي إلى غير البلاد العربية لذلك فقد تم إدراج هذه الشخصية في الفصل الثالث الذي يتناول الشخصية الأجنبية "الأب كردي من أصل إيراني... والوالدة شيعية تمت بجذورها إلى الفاطميين في مصر"[٢].

أصيبت (شيلان) بحادثة ثانية هذه المرة في (بيروت) فقد خرج حبيبها من السجن، وارتمت في أحضانه، ورسمت لنفسها الأحلام الوردية التي ستخلصها من وساوس وأحلام الليالي المظلمة إلا أن هذا الحبيب "انكسر فلا سبيل إلى ترميمه. ولم تفلح الحياة الجديدة والأمن والأمان والاطمئنان الذي وصلنا إليه في العودة به من رعب يمسك به حتى كاد يقتله. بل إن حالته راحت تتدهور شيئا فشيئا"[٣]، وعندما رأت استحالة استمرارية الحياة مع هذا الحبيب الذي دمرته السجون، أخبرته بعزمها على الطلاق، ومضت إلى مطبخ شقتها "التي تطل على الشارع الأخير من الفاكهاني في بيروت"[٤]،فجأة أنقضت القذائف على شارعهم، وذهبت تبحث عن زوجها الذي لمحته على الشرفة "هرعت أستطلعه فلم أجد الشرفة من أساسها. هبطت وهبط معها منعجنا مع الأسمنت والحديد"[٥].

---

[١] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٠.

[٢] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ١٣.

[٣] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢١.

[٤] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٢.

[٥] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٣.

على الرغم من البؤس الذي سيطر على (شيلان) وعلى (بيروت) والأحداث السوداء التي زخر بها السرد وما تبعها من خروج الفلسطينيين ومن سار بركبهم أو أرتبط بهم، إلا أن خاتمة رواية (ما علينا) حاولت إرسال لمحة أمل تستمر معها الحياة، فعندما يصل (نزار البطل) إلى تونس المقر الجديد "قبل أن يغادر باب الخروج من المطار إلى الشارع التقطت عيناه امرأة لا يمكن أن يخطئها، تمضي مسرعة إلى مكتب الاستعلامات هتف في داخله: شيلان أيضاً في تونس، ربما ليست هي، لا بل هي.. لا يمكن أن أتيه عنها. إنها هي... ما من امرأة تشبهها أو أعذب منها!"[1].

[1] زياد عبد الفتاح: ما علينا، ٢٠٥.

الخاتمـــة

النهاية، سنة الله في كونه، وما من مخلوق إلا وقد وضع الله له النهاية، فملك الموت الذي ينهي حياة الآخرين ويقبض أرواحهم ينتهي هو أيضاً ويموت، سبحانك لا دائم إلا وجهك فأحمدك حمداً عظيما لا ينبري لأحد من قبلك أو من بعدك أن خلقتني مسلما، وجعلتني من السالكين في درب العلم، الحمد لله الذي جعل لكل بداية نهاية، والحمد لله الذي جعل لكل عمل خاتمة...

وفي خاتمة بحثي هذا اسأل الله العظيم أن أكون قد وفقت في دراستي هذه التي تناولت فيها دراسة الشخصية في الأعمال الروائية للأديب الفلسطيني (زياد عبد الفتاح)، وقد جاءت هذه الرسالة في مقدمة شرحت من خلالها أهمية هذه الرسالة إذ تؤصل لكفاح الشعب الفلسطيني، وخروجه من أرضه نحو مخيمات اللجوء والشتات العربي، واللبنات الأولى لتشكيل فصائل الكفاح السياسي والعسكري، والظروف التي سبقت تشكيل منظمة التحرير الوطني الفلسطيني، كما بينت أهمية بحثي، ودوافع دراستي، والغاية المرجوة من دراسة الشخصية الروائية، والمنهج المتكامل الذي اتخذته في دراسة شخصيات زياد عبد الفتاح.

ثم شرعت في التمهيد الذي تمحور حول ركنين أولهما: تقديم مستهل غير مطول حول الرواية من حيث الماهية، والنشأة والتطور الذي أصابها، والمراحل التي مرت بها إلى أن تركزت قواعدها الفنية، أما المحور الثاني في التمهيد فقد جاء للتعريف بالكاتب الروائي زياد عبد الفتاح الذي تقلد في العديد من المناصب التي خدم من خلالها وطنه وقضيته، وتطرقت إلى تقديم إيجاز لكافة أعماله الأدبية التي تراوحت بين القصة القصيرة والسيرة الذاتية "ورق حرير"، والروايات مجال الدراسة "وداعاً مريم، المعبر، ما علينا، دار الجيش".

وجاء الفصل الأول الذي احتل المساحة الأكبر من الدارسة، إذ أنه يدرس الشخصية الفلسطينية، وتفاعلاتها مع التغيرات الطارئة، كما يقيس مدى استيعاب كارثة النكبة، وتوزيع الأجيال حيث جيل النكبة الذي دفعه الجهل والبساطة والسذاجة إلى التفريط بالأرض وبيع قطعة الذهب الأخيرة والبدء برحلة جديدة نحو المجهول، وما تبع هذا الجيل من شباب تعلم ونال قسطا أكبر من المعرفة مكنته من فهم المؤامرة والبدء بالعمل الجاد لاسترجاع الأرض، وقد تنوعت

شخصيات هذا الفصل بين الشخصية (الوطنية، والمناضلة، والمقهورة، والمهجرة، والمرأة الفلسطينية).

أما الفصل الثاني فقد توصلت من خلال دراسة شخصية العربي إلى الدور العربي الذي لا يمكن أبدا فصله عن القضية الفلسطينية، وقد تفاعلت الشخصيات الفلسطينية المنتشرة في مخيمات اللجوء العربي مع الشخصيات العربية التي انقسمت إلى شخصيات فاعلة قدمت الدعم المالي والنفسي بل والدعم العسكري في بعض الحالات، والقسم الثاني الذي ظهر حاول هدم الفلسطيني ولم يراعِ الهم الذي أصابه جراء فقده أرضه و وطنه، وقد ظهرت هذه الشخصية السلبية بشكل أقل من الشخصية المساندة، وانحسر دورها على رجال الأمن وضباطه، وشخصية واحدة غير أمنية.

وانقسم الحديث في الفصل الثالث الموسوم بـ "شخصية اليهودي والأجنبي" فقد جاءت الشخصيات اليهودية محاولة قمع الفلسطيني وتخويفه وسلبه حقوقه وقهره لتحطيم قدرته على الحياة ودفعه لترك وطنه، أما القسم الثاني فقد تناولت فيه الشخصية الأجنبية التي ساندت الشخوص الفلسطينية ولم تجعل الفروق الطبقية حاجزا في تعاملاتها مع الفلسطيني، وتناول هذا الفصل أيضا الحديث عن المرأة ذات الأصول غير العربية، والتي جاءت في سياق السرد على صورة المرأة الضحية.

وذيلت الدراسة بخاتمة لخصت فيها أبرز نتائج البحث التي توصلت إليها، والتوصيات التي طرحتها، تلتها قائمة بالمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات، وصدرت بحثي بملخصين باللغتين: العربية والإنجليزية.

وأخيرا أستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- ركزت الرواية على صور المعاناة اليومية التي يعانيها المجتمع الفلسطيني جراء القمع والقهر الحصار المفروض عليه، كما تسلط الضوء على اتفاقية أوسلو التي جلبت الاستعباد للفلسطيني في تحركاته وسفره واستقراره، ومحاولات الآخر لاستغلال حاجات الفلسطينيين ودفعهم نحو مهاوي التعاون.

- حاولت الدراسة الوقوف على أسباب فشل التعايش السلمي، التي عالجها الكاتب، ورأى أن السبب الرئيس لفشل هذا التعايش يرجع إلى تأصل العقيدة الصهيونية في عقول بني صهيون الذين اعتادوا التصرف كمحتلين يملكون السلطة بعد فترة طويلة اكتووا فيها بنار القمع والقتل، فجاءوا ليصبوا نار حقدهم وعدائهم على الشجر والبشر والإنسانية.

- احتلت المرأة مساحة واسعة في روايات زياد عبد الفتاح، مما يؤكد على مكانتها ودورها في بناء المجتمع كما أشار إلى دورها في مساندة الرجل، ومشاركته الهم والمسؤولية، وتقاسمه النضال السياسي في مرحلة الصراع.

- طبع الكاتب المرأة بطابعين، وإن غلب أحدهما على الآخر، فجاء الطابع الأكبر على رسم المرأة بصورة النمرة المبادرة إلى الرجال بتقديم حبها، والتصريح برغبتها دون حرج أو خوف، أما الأنموذج الثاني فهو المرأة التقليدية الزوجة الوفية لزوجها والمساندة له في جولات الحياة.

- غياب البعد الديني عن الشخصيات، فالشخصيات في أغلبها لا تتحرج في علاقتها مع الجنس الآخر، وترتكب أعمالا تتنافى مع معاني الأخلاق الإسلامية والتقاليد الفلسطينية، كشرب الخمر، وممارسة اللقاءات المحرمة.

- لخصت هذه الروايات بلغة فنية حية مراحل مهمة من مفاصل تاريخ الشعب الفلسطيني، مثل الفترة التي تكونت بها حركة (فتح) في الكويت، ومرحلة الخروج من لبنان عقب الحصار.

- استقى الكاتب صوره وشخوصه من بيئته، فقد حضر باسمه الصريح في سياق السرد، وحضر المكان الذي يعكس مدى التفاعل والارتباط بينه وبين الشخصيات.

- امتازت الروايات بالوضوح وسهولة المعاني والبعد عن التعقيد والالتواء، كما برع الكاتب في اختيار الألفاظ المعبرة عن حالة الفقد والحزن وقسوة الواقع، كذلك اتسمت هذه الأعمال بأصالة الخيال، وابتكار الصور المعبرة.

- أشرك (زياد عبد الفتاح) القارئ في إكمال الصورة الفنية، فلم يقدم القصة جاهزة للمتلقي، بل أشركه في التماس خيوطها وإتمام ملامحها، وقد أسهم ذلك في جذب المتلقي إلى أجواء الرواية.

التوصيات المقترحة:

هذه الدراسة الأولى التي بحثت في أعمال زياد عبد الفتاح الروائية، وقد اختصت بدراسة الشخصية على وجه التحديد، لذلك فإنني أوجه عناية الدراسيين في الأدب الحديث إلى دراسة:

- العناصر الروائية الأخرى المشكلة للسرد في أعمال زياد عبد الفتاح الروائية.
- تقنيات السرد في روايات زياد عبد الفتاح الروائية.
- دراسة القصة القصيرة عند زياد عبد الفتاح.
- دراسة السيرة الذاتية عند زياد عبد الفتاح.

وأخيراً أحمد الله تعالى أن أعانني على إكمال هذه الدراسة، وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وابتغاء رضاه، وأن يكرمني بأن يجعل هذا العمل علما يُنتفع به في الدنيا وبعد الممات، وما كان في هذه الدراسة من توفيق وصواب فهو من الله تعالى، وما كان من نقص أو قصور فمن نفسي والشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا/ المصادر:

١. القرآن الكريم.

٢. الكتاب المقدس.

٣. زياد عبد الفتاح: المعبر، مؤسسة دار الهلال، العدد ٦٤١، القاهرة، مصر، مايو ٢٠٠٢م.

٤. زياد عبد الفتاح: دار الجيش، ط١، الدر للنشر والتوزيع، المحروسة، مصر، ٢٠١٠م.

٥. زياد عبد الفتاح: ما علينا،ط٢، مطبعة الهاني الثقافية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٤م.

٦. زياد عبد الفتاح: وداعا مريم، ط٢، مطبعة الهاني الثقافية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٤م.

٧. زياد عبد الفتاح: ورق حرير، الرعاة للنشر والتوزيع، رام الله، فلسطين.

ثانيا/ المراجع:

١. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

٢. أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الثقافة، بيروت، لبنان،١٩٦٣م.

١. أحمد أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني (١٩٥٠- ١٩٧٥)، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٢. أحمد الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار المعارف، ١٩٧٨.

٣. أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ :المصباح المنير، ط١ ، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م .

٤. أحمد شريبط : تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧-١٩٨٥)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٨.

٥. أحمد عثمان: بناء الرواية، مكتبة الشباب، مصر.

٦. أدوين موير: بناء الرواية، ترجمة : إبراهيم الصيرفي، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة.

٧. آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط١، دار الحوار، سوريا، ١٩٩٧.

٨. إيمان مطر السلطاني: السرد وما السرد في الرواية العراقية المعاصرة، مجلة اللغة العربية و آدابها.
٩. جان إيف تاديه: الرواية في القرن العشرين، ترجمة محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣. جمال الدين ابى الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، ط ٤، مؤسسة الرسالة.
١٠. جهاد عطا نعيسة: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١ .
١١. جورج لوكاش: دراسات في الواقعية، ترجمة: نايف بلوز،ط٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢.
٤. الجوهري: الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
١٢. جيرمي هورثون: مدخل لدراسة الرواية، ترجمة : غازي درويش عطا، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٩٦.
١٣. حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية ١٩٦٥-١٩٨٥، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨.
١٤. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء والزمن والشخصية)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.
١٥. حميد الحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م .
١٦. داوود غطاشة، ورائد حسين: قضايا النقد العربي، مكتبة دار الثقافة، عمان، ط٢، ١٩٩١م .
١٧. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، يونيو ١٩٨٦.
١٨. رفيف رضا صيداوي: النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية ١٩٧٥ -١٩٩٥، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م .
١٩. زكي العيلة, المرأة في الرواية الفلسطينية, مركز أوغريت الثقافي للنشر والترجمة, رام الله, فلسطين, ٢٠٠٣م .

٢٠. زياد النجار، الهندسة القيادية، معهد آفاق بلا حدود، دمشق.
٢١. زيدان عبد الباقي: المرأة بين الدين والمجتمع، سلسلة الثقافة الاجتماعية الدينية للشباب، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٧.
٢٢. ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة: إحسان عباس، ط ١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٥٨.
٢٣. سعد عودة عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٤م.
٢٤. سلمى خضراء الجيوسي, موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر, المؤسسة العربية للمؤسسات والنشر.
٢٥. سليمان حسين: مضمرات النص والخطاب، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩.
٢٦. سمر الفيصل: بناء الشخصية الروائية، الموقف الأدبي، دمشق، ٢٠٠٠.
٢٧. سيزا قاسم: بناء الرواية في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م .
٢٨. شرحبيل المحاسنة: بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز الروائية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة،٢٠٠٧م.
٢٩. شمس الدين موسى: مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، السلطة الوطنية الفلسطينية– وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.
٣٠. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الادبي، ط١، دار الشروق، ١٩٩٨م.
٣١. عبد الرحمن أبو عوف: مقالات لها تاريخ، مشكلة التجديد و البعد الفكري في أدبنا، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٣م.
٣٢. عبد الرحمن الكزكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، القاهرة.
٣٣. عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٩٥.
٣٤. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، ١٩٩٨م.
٣٥. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢م.
٣٦. عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، ط٤،مكتبة غريب، مصر.

٣٧. علي افرفار: صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٦م.
٣٨. علي عودة: الفن الروائي عند جبرا خليل جبرا، ط٣، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣م.
٣٩. علي كمال: النفس، ط٤، دار واسط، بغداد، ١٩٨٨م .
٤٠. علي محمد عودة: الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، ط ١، ١٩٩٧.
٤١. فاروق خورشيد: في الرواية العربية، دار الشروق ، ١٩٧٥ .
٤٢. فاطمة الحاجي: الزمن في الرواية الليبية، ط ١، الدار الجماهيرية، ٢٠٠٠م.
٤٣. الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، ط١ ،المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، رام الله –فلسطين، ٢٠٠٣م .
٤٤. محمد أيوب: الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ط١، سندباد للنشر والتوزيع، ٢٠٠١.
١. محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١.
٤٥. محمد حسن حماد : تداخل النصوص في الرواية العربية، القاهرة، الهيئة العربية العامة للكتاب، ط ١ ،١٩٩٧ .
٤٦. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت.
٤٧. محمد يوسف نجم: فن القصة، ط٥، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٦.
٤٨. محمود غنايم: تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة ، دار الهدى، القاهرة.
٤٩. مريم سليم وأخريات, المرأة العربية بين ثقل الواقع والتطلعات التحرر, ط١, بيروت، ١٩٩٩م.
٥٠. مصطفى اجماهيري :الشخصية في القصة القصيرة، الموقف الأدبي.
٥١. مي الصايغ: "المرأة العربية– الواقع والتطلعات" مجلة النهج، العدد٤١ ،١٩٩٥.
٥٢. نبيل أبو علي: البحث الأدبي و اللغوي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١١.
٥٣. نزيه أبو نضال: علامات على طريق الرواية في الأردن، ط١ ، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ،١٩٩٨م.
٥٤. يوسف نوفل: قضايا النقد القصصي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
شكر وتقدير	٤
الملخص باللغة العربية	٥
الملخص باللغة الإنجليزية	٧
المقدمة	٩
التمهيد	١٣
الفصل الأول : شخصية الفلسطيني	٣٣
الشخصية الوطنية	٣٦
الشخصية المناضلة	٤٨
الشخصية المقهورة	٦١
الشخصية المهجرة	٧٣
شخصية المرأة الفلسطينية	٩٣
الفصل الثاني: شخصية العربي	١٠٦
شخصية فاعلة	١٠٧
شخصية مُحبطة	١٢٠
شخصية الرئيس العربي	١٢٨
شخصية المرأة العربية	١٤٠
الفصل الثالث: شخصية اليهودي والأجنبي	١٤٩
شخصية اليهودي	١٥٠
شخصية الأجنبي	١٦٠
شخصية المرأة الأجنبية	١٦٧
الخاتمة	١٧٦
المصادر والمراجع	١٨٠
فهرس الموضوعات	١٨٤